محمد محمود رضوان

السندباد الطائر

أنيس منصور

دار المعارف

السندباد الطائر

أنيس منصور

السندباد الطائر

أنيس منصور

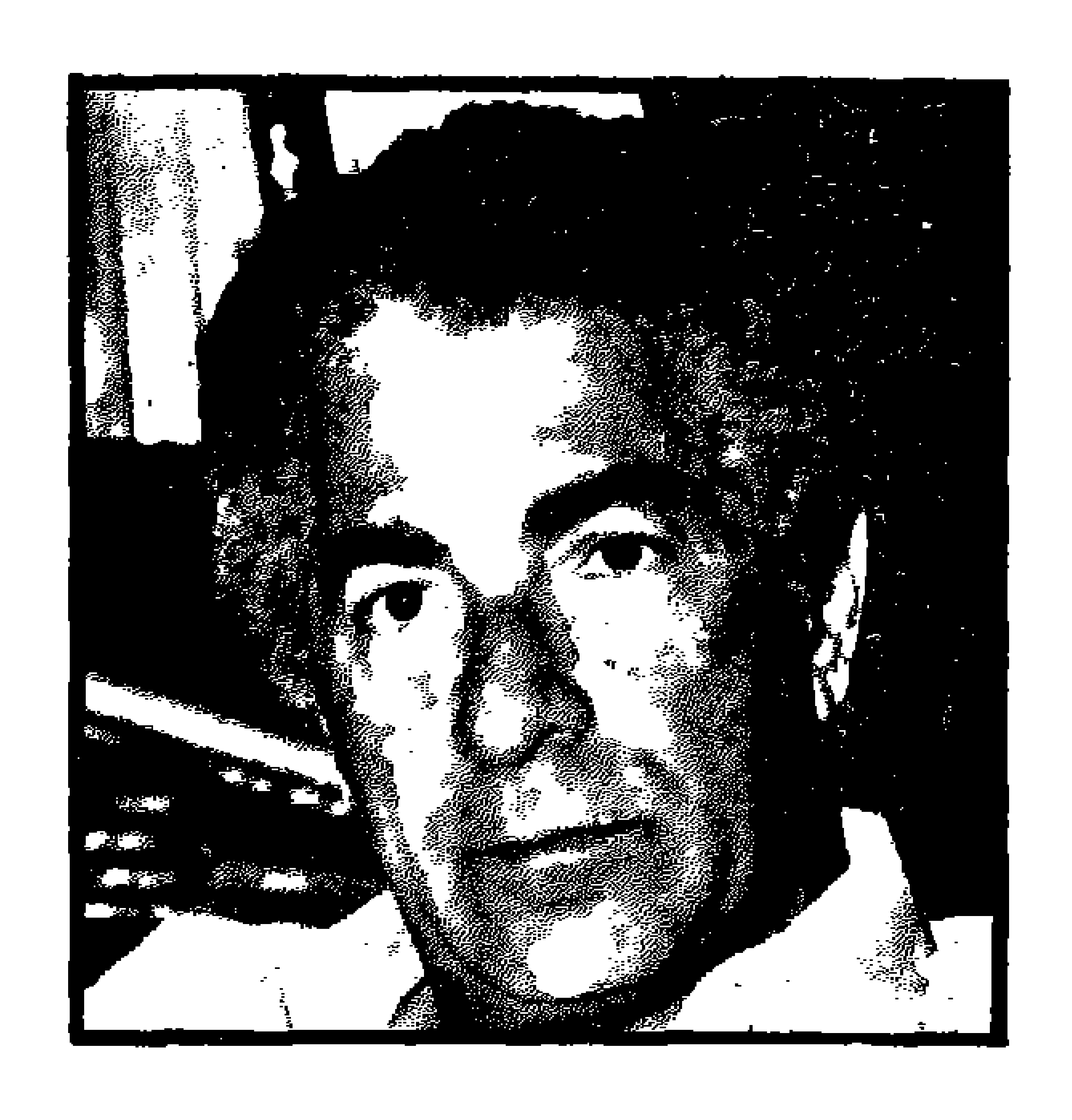
بقلم

محمد رضوان



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



أنا قلعة .....
لها ألف باب !

أنيس منصور

الإهـــداء

إلى منبع الحب والحنان والرحمة
إلى أمي

محمد رضوان

أنيس منصور فى ضوء المنهج النفسى

مقدمة

للسفير الشاعر : أحمد عبد المجيد

أخذت الرحلات فى عصرنا الحديث طريقها ، وأخذت وكالاتها تنمو وتنتشر انتشارًا أصبح ينافس أى صناعة أخرى تمشيًا مع متطلبات العصر ، واستكمالا لمظاهرها الحضارية التى تنشد المعرفة والإحاطة والإدراك .

ولعلنا لا ننسى الحالات النفسية التى تلازم المدنية وتعد ضريبة تدفعها النفوس بما يعتريها من ملل وضيق يدفع بها إلى الارتحال من بلد إلى بلد ، تخفيفًا من هذا الضيق الذى تحسه ، والانقباض والاكتئاب اللذين هما من سمات العصر.

وإننا عندما نرى أفواج السائحين فى أى بلد كان ، يتنقلون من مكان إلى مكان ، نعرف علة تنقلهم التى هى معرفة وشفاء !

والأمر الملاحظ أن غالبيتهم ، إن لم نقل أنهم جميعًا ، من الطبقة الوسطى أو الدنيا من الناس ، على العكس مما كنا نراه فيما مضى من سنوات هذا القرن ، التى لم يكن يقدم على السياحة إلا أصحاب الثروات وأصحاب الجاه والألقاب ، ما بين لورد أو أمير أو دوق أو وزير !

إننى مازلت أذكر فى مطلع هذا القرن ، فى العشرينيات منه ، أن المسافرين الذين كانوا ينتقلون عند حلول الصيف إلى الإسكندرية ، كانت أسماؤهم تنشر فى صحفيتى « المقطم » أو « الأهرام » كخبر من الأخبار !

---

(١) أحمد عبد المجيد (١٩٠٥ – ١٩٨١) عمل بالسلك الدبلوماسى منذ عام ١٩٣١ حتى عام ١٩٦٠ لمدة ثلاثين عاماً متنقلاً بين عدة قارات وهو شاعر وباحث متمكن من مؤلفاته سندباد دبلوماسى ، لكل أغنية قصة وديوان « همسات » .

فكنا نقرأ مثلا أن عائلة الثرى الأمثل عز الدين بك الدرنللى ، أو عثمان باشا وجدى ، قد انتقلت إلى مصيف رمل الإسكندرية لقضاء شهور الصيف بين ربوع هذا الثغر الجميل ! .

* * *

لقد ظهر فى عصرنا الحاضر كتاب فى مصر اشتهروا بالكتابة والوصف كما شاهدوه فى رحلاتهم وضمنوا مشاهداتهم كتبًا أو مقالات كانت ومازالت متعة للقارئين، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور طه حسين فى كتابه « رحلة الربيع » ، وكتابه « فى الصيف » ، والدكتور عبد الوهاب عزام فى « رحلاته » إلى إيران والهند وباكستان والجزيرة العربية ، وعبد الله عنان ، ومحمد ثابت ، والدكتور مصطفى محمود ، فى مشاهداته فى أفريقيا وفى رحلته داخل جسم الإنسان فى بساطة العالِم الواثق بنفسه ، المحيط بما يصف .

وكان « رفاعة رافع الطهطاوى » من أوائل الذين كتبوا عن الرحلات فى القرن التاسع عشر فى كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » .

ولو أن مجال الرزق انفسح أمام إبراهيم عبد القادر المازنى ، لانطلق من إسار السياسة والحزبية التى اعتنقها كارهًا فى سبيل لقمة العيش ، حتى أنه كان يكتب مقالا فى الصباح فى صحيفة صباحية ، ويعود لينقض قوله ويسفه ذلك القول فى صحيفة مسائية حتى يتصل رزقه ورزق أهله .

وقد كان إذا ألمت به علة تصرفه عن الخروج ، فإنه كان يلف ويدور فى بيته ليصف أدق ما تراه العين فى صحائف هى من أمتع ما تقع عليه عين الأديب ، وما ينشرح له خاطر الكاتب ، وما يستمتع به من محبى هذا الكاتب اللماح والشاعر الأصيل الذى كان يجول فى الأنفس والخواطر والضمائر ، حتى أصبح سيد أهل زمانه من كتاب الأدب والسياسة واللغة والترجمة والشعر والفكاهة التى تلمس فيها إشراقة الفكر وعمق البحث فى كل ما كتب أو حاضر أو روى !

* * *

منذ عدة سنوات مضت أصدرت المطابع كتبًا للرحلات لأنيس منصور ، لا تكاد تصدر حتى تنفد وتختفى فى أدراج مكاتب الشباب من الجنسين من فتيان وفتيات ، هذا العصر المولع - لحسن الحظ - بالرحلة والاستمتاع بما فى هذا العالم من مشاهد وخفايا ومناظر وأكوان !

وبرغم اشتغال أنيس منصور بالعديد من الكتب وفى مجالات متشعبة ، فإنك تقرأ كتبه فى الرحلات ، فتظن أنه فرغ إلى هذا الكون ، وأنه ربط حياته دون أى شىء عداه !

وقد اجتمعت بين أصابع أنيس منصور عناصر مادته ، فاستقام أمامه الطريق فى بساطة وبراعة وانفراد .

وكتاباته فى الرحلات أشبه ما تكون بحلوى « غزل البنات » التى لا يشبع منها آكلها ولا يستطيع أن يمسك نفسه عنها !

ربما كان الخط الدرامى الواضح المعالم فى كل ما كتب عن رحلاته ، هو ضيقه بالحقائب ، حتى تخيلته يتمنى أن يكون أحد أفراد قبائل « الزولو » التى لا يستر جسده إلا ما شف وخف من الجلد أو القماش ممسكا بيده حربة ، هى بمثابة قلمه ، وفى يده الأخرى درعه الذى يمثل عقله عندما يحميه من الوقوع فى كثير من المآزق !

وهو يمضى فى تجواله - فى الغابة - التى هى الدنيا بكل ما فيها من عنف ووحشية وحضارة ومدنية ، ومحاسن وشرور ، ومن شبع وجوع ، ومن رى وظمأ !

* * *

وهو لا ينسى الفلسفة وهو يطوف بك فى أرض الله الواسعة الفضاء .

وإذا كانت الفلسفة - كما يقولون - هى العلم بالوجود ، ومعرفة الأمور الآلهية والإنسانية ، والتأمل فى ظواهر الكون ومحاولة التفسير اللازم لأسرارها والكشف عن مصادرها ، فإن « أنيس منصور » لم ينس دراساته الفلسفية ومادته الأصلية فى كتب رحلاته التى تمس كل هذه الظواهر .

وقد أوجز « أفلاطون » فى وصفه للفلسفة عندما قال : « إنها العلم بالحقائق المطلقة

المستترة وراء ظواهر الأشياء».

وإذا كانت الصحافة هي «مهنة البحث عن الحقائق» والغوص وراء المجهول للكشف عن أسراره، فإن مهنة «أنيس منصور» كصحفي قد أعانته في الكتابة عن رحلاته.

* * *

«وأنيس منصور» يمتلك أسلوبًا لا يجارى في البساطة وحسن السبك، وجمال العرض، وسريان الروح الشفيفة التي تترقرق فيها خفة الظل وبراعة الحديث، وطرح المفارقة التي هي أساس الفكاهة عند فلاسفة المزاح، وأساطين الظرف وقد ألف العديد من كتب الرحلات أشهرها «حول العالم في ٢٠٠ يوم» و«غريب في بلاد غريبة»، و«أعجب الرحلات في التاريخ»، وغيرها وغيرها.

وقديمًا زعم نقاد «شكسبير» أنه لم يكن هناك شاعر بهذا الاسم نظرًا لغزارة ما ترك من تراجيديات وشعر بل أنه كانت هناك في عصره.. كما يزعمون – جمعية أدبية توفرت على إصدار هذه الأعمال الأدبية.

فهل يجيء يوم يصدق فيه هذا القول على «أنيس منصور»!

* * *

ومؤلف هذا الكتاب محمد محمود رضوان، يعلو بأدبه على عمره ويسبق طموحه واقعه، وتتوثب روحه نحو سموات من المعرفة والإدراك، والإحاطة بكل ما يستطيع أن يدركه، أو يشق إذا هو رد عن إدراكه لأسباب يعيها حينًا وتخفى عليه في أغلب الأحايين.

وهو يحيط نفسه بالاطلاع الدائم، وبالإحاطة بالكثير من ذخائر المكتبات، ولا يألو جهدًا في الاتصال بأهل الأدب في عصره من كتاب وشعراء وصحفيين، ليغترف من المنابع الأصلية لمادته ولأدبه الذي أخذ نفسه على أن يكون من فرسانه وأن يجمع له من كل فج، ما يعينه على تحقيق رغبته، التي كانت تنحصر في أدب السير والتراجم.

ولقد عشق هذا اللون من الكتابة حتى أصبح يتنفسه ، ويعيش فيه جل يومه ، وأغلب ليله .

واستطاع أن يكتب تراجم أدبية ممتعة عن الدكتور زكي مبارك ، وعلى محمود طه ، وصالح جودت ، وإبراهيم ناجي ، وأحمد فتحى ، وكامل الشناوى ، وعبد الحميد الديب ، ولا يزال فى دأبه على الكتابة فى هذا اللون من الأدب .

وهو إذا كان قد اختار اليوم ميدانًا غير ميدان الترجمة الأدبية للشعراء المعاصرين بوجه خاص ، فإنى أهيب به أن يستقر قليلا عند هذا المنعطف فى حياته الأدبية ، بل إنى أدفعه دفعًا لهذا الطريق ، لأنه يخدم به التعرف على كتاب رزقهم الله بسطة فى الاطلاع والفلسفة والأدب والحس بدقائق الأمور ، والإحاطة الدقيقة لكل ما يقع تحت بصرهم ، أو تنفذ إليها بصيرتهم ، أولئك هم كتاب الرحلات الذين يتحدث اليوم عن أثراهم مادة .

وهناك عناصر يجب أن تتوافر لدى كاتب الرحلات يجدها القارئ ، فى هذا الكتاب عن « أنيس منصور السندباد الطائر » وإنى لأنصح بكل إخلاص من جاوزته بعض هذه العناصر أن يحمد الله ، على ما أنعم به عليه من القدرة على القراءة وليدعُ الكتابة فى هذا الباب ، لأصحاب هذه المواهب وهذه الفنون .

القاهرة ١٩٨٠

أحمد عبد المجيد

فى عالم السندباد الطائر

يعد « أنيس منصور » ، من أبرز أدبائنا الموسوعيين ، الذين استوعبوا الثقافة العالمية وهضموها بمختلف اتجاهاتها وتياراتها ، وفى مختلف عصورها ، فضلا عن استيعابه للثقافة العربية قديمًا وحديثًا ، ثم تفرد بلون خاص تميز به واتسمت به كتاباته وفلسفته .

ولعل من أبرز ما يتسم به أدب « أنيس منصور » هو جمال الأسلوب والقدرة على الكشف عن مجاهل النفس الإنسانية ، وتصوير همسات الوجدان والقلب ودقة الملاحظة وعمقها ، كما يعد من الأدباء الذين تنوعت ثقافتهم وبالتالى تنوعت كتاباتهم ، فهو كالسندباد يطير بين مختلف الثقافات الإنسانية ويقدم لنا خلاصتها فى بساطة وعمق ويطير بين بلاد العالم ويقدم لنا خلاصة مشاهداته ونظراته وملاحظاته بين ربوع البلاد التى تجول فيها .

وقد قدم لنا « أنيس منصور » نتاجًا ثريًّا خصبًا فى أدب الوجدان والعاطفة وأدب القصة والمسرح بجانب الأدب الفلسفى والأدب السياسى وما يسمى بتأديب التاريخ وأخيرًا أدب المقالة الصحفية وهو فى كل هذه الألوان الأدبية ، تبدو لنا ثقافته الواسعة ، ودقة ملاحظته ، وصدق ما يكتب .

والحق أنه فى كتاباته الوجدانية وفى أدب الرحلات لا يتخيل الحياة ، بل يندمج فيها ويلحظ جزئياتها ، ويسجل تفاصيلها ، ويحصى دقائقها مما يضفى على أدبه روح الصدق والحرارة والأصالة .

وفى هذا الكتاب حاولت أن أتجول فى عالم السندباد الطائر «أنيس منصور» ، وهو عالم خصب ثرى بألوان الثقافات الرفيعة التى يتجلى فيها صدق عاطفته وجمال أسلوبه ، وفلسفته فى الحياة والمجتمع وذلك من خلال تجاربه فى الحياة ومن خلال قراءاته المستفيضة ومن خلال رحلاته الخصبة فى (بلاد الله خلق الله) .

إن عالم « أنيس منصور » يحتاج لعدة دراسات وكتب ، لرحابة هذا العالم وتنوعه وثرائه ولم أجد بدًّا من استخدام منهجي فى أدب التراجم والسِّيَر الذى استخدمته فى كتبى السابقة [1] وأعنى به المنهج النفسى « حيث إننى فى كل تراجمى الأدبية ، أرسم للأديب الذى أتناوله بالترجمة صورة نفسية مستمدة من حياته وبيئته ، ثم أظهر وأبين العوامل التى أثرت فى أدبه ولونت فنه ، وبذلك أضع فى يد القارئ مفتاح شخصية المترجم له ومن ثم مفتاح أدبه .

وفى ضوء هذا المنهج النفسى ما هو مفتاح شخصية السندباد الطائر ؟

برغم أن « أنيس منصور » يصف نفسه « أنا قلعة لها ألف باب » فإننى أستطيع أن أضع يدى على مفتاح شخصيته وأعنى به « القلق » !

إن القلق النفسى والفلسفى هو الذى خلق أدب « أنيس منصور » وهو الذى دفعه لأن يطير وينتقل بين الثقافات وبلاد العالم ليشغل نفسه ، وليفرز لنا نتاج جولاته وسياحاته على الورق ، علّه ينسى عذاب قلقه المتصل ، وملله الطويل ، وهو فى هذه الجولات والسياحات يشعر بمتعة فريدة وجديدة لم يشعر بها سلفه السندباد البحرى ، مما جعله يقول :

إننى لا أحسد « سندباد » . . .

فهو لم يستمتع بالتجربة الأولى . . والمفاجأة الأولى . . والفزع الذى لا قرار له . . والحيرة التى لا حدود لها . . ولا أحسده أيضًا . . فقد تمنيت أن يطول كل شىء فلا شىء يخيف . . ولم يكن يعذبنى فى رحلاتى الكثيرة إلا التعب الذى جعلنى عاجزًا عن احتمال الخوف والصدمة والمفاجأة .

ولو كانت لى قوة « سندباد » وعضلاته وشهيته المفتوحة إلى الطعام وقدرته الفذة على أن ينام فى أى مكان وفى أى وقت ، لشربت مياه المحيط . . لكى أعبره بعد ذلك ماشيًا على قدمى . . ولنقلت الجبال وردمت بها الأودية لكى أتمشى على مهلى من دولة

---

(١) راجع كتبنا = صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك = ومأساة شاعر البؤس : عبد الحميد الديب «وشاعر النيل والنخيل : صالح جودت» .

إلى دولة ، وأنه لم يتعذب . . ولم يسعد بالراحة بعد العذاب . . إنه لم يعش ، وإنما كان يمثل دوراً فى الحياة !

وبرغم تلك القلعة الغريبة المغلقة بالأسرار وبرغم أبوابها الألف ، فإن لها مفتاحاً واحداً ، وكلمة سر واحدة هى القلق !

وكأنها كانت هذه الكلمة هى كلمة السر « افتح ياسمسم » فى أسطورة « على بابا والأربعين حرامى » ، والتى فتحت لى مغاليق أدبه وأسرار فلسفته ، وخبايا خواطره المتناثرة واستطراداته الممتعة ، فكانت هذه الدراسة لوناً من التعرف على عوالم السندباد الطائر الممتعة ، ومدخلا لدراسة أدبه وفلسفته ، وضوءاً على طريق العذاب الذى سار فيه برغم أشباح الملل والقلق والحيرة التى عذبته وأرقته والتى جعلته يؤمن بقول أحد الحكماء فى تفسيره لحبه للرحلات وشغفه بها .

إنها هذه النفس الغامضة . . إنها « أنا » . . هذه « الأنا » المغامرة . . الباحثة . . الأنا التى تريد أن تذهب إلى أبعد مكان فى الدنيا . . إلى أطراف كل شىء . . وكل إنسان . . وكل فكرة . . إنها هذه الأنا التى تريد أن ترى أبعد . . وتسمع أعمق . . إننى أريد أن أعرف بصراحة وبإيجاز ما الذى يكمن فى أعماق هذا الإناء الإنسانى .

إن « أنيس منصور » هذا الأديب الموسوعى الذى قدم للمكتبة العربية عشرات الكتب الجادة الرصينة ، وعشرات الأفكار الجريئة الجديدة والكثير من الإمتاع والفائدة يستحق منا الكثير من الامتنان والتحية ..

إننى فى هذا الكتاب قد اعتمدت على ما عكسه « أنيس منصور » فى كتاباته عن أفكاره ومشاعره وأحاسيسه وتجاربه ، ولم أحاول أن أتعرف منه على معلومات معينة عن حياته وأدبه فى لقاءاتى القليلة به لأنه لم يخف عنا شيئاً . . بل أفصح عن سرائر روحه وأسرار روحه بأمانة وحرارة وصدق .

* * *

وبعد ، فلتكن هذه الدراسة أولى السياحات فى عالم السندباد الطائر « أنيس منصور » ، لنتعرف على هذا العالم الغريب المليء بالعمق والخصب والثراء ، لنتعرف على جولات السندباد الطائر فى دنيا الفلسفة والخيال والواقع ، ورحلاته المثيرة فى (بلاد الله خلق الله) !

القاهرة ١٩٨١

محمد رضوان

(صحفى بدار الهلال)

الفصل الأول

سيرته وثقافته

فى كفر الباز

كان ذلك فى ١٨ أغسطس عام ١٩٢٥ .

حين ولد « أنيس محمد منصور » فى قرية كفر الباز مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية . .

وفى ظلال قرية كفر الباز الخضراء بطبيعتها الجميلة وجوها الهادئ الساحر تفتحت عينا كاتبنا ، وكانت فرصته لينطلق بين ربوع القرية الصغيرة الخضراء يركض بين حقولها ويستحم فى ترعتها ويجرى خلف العصافير يحاول اصطيادها ببراءة الطفولة وانطلاقها المرح الساذج .

* * *

ولد « أنيس » لأسرة متوسطة الحال متدينة ، فقد ولد لأبوين كريمين ورعين ، يؤديان الفروض والنوافل ، ويقرآن كتاب الله ، وتتسم أخلاقهما بالطيبة والصفاء وحب الخير .

وكانت لطبيعة أبويه الهادئة وخلقهما الطيب ، وتمسكهما بالقيم والمثل والأخلاق الرفيعة ، وحبهما للخير أكبر الأثر فى تنشئة « أنيس » وفى تشربه لتلك القيم والصفات .

لذا أود أن أتحدث عن كليهما بشىء من التفصيل لنتعرف على ملامح شخصيتهما وانعكاس ذلك على حياة كاتبنا وفى أدبه فيما بعد . .

أبوه

كان أبوه الشيخ « محمد منصور » رجلا متدينًا ورعًا مثقفًا . . يؤدى الفروض والنوافل ويقرأ كتاب الله ويحفظه .

وكان رجلا قنوعًا طيب القلب كريم النفس ، تتمثل فيه قيم الوفاء والشهامة والجود ، فضلا عن أنه كان مثقفًا يلم بالأدب العربى القديم شعرًا ونثرًا ، وبالتراث الإسلامى ، وفوق ذلك فإنه كان ينظم شعراً .

وكان الأب يعمل « مأموراً » لعزبة عدلى يكن باشا . . ولعزب بعض الباشوات بعد ذلك . . وكانت طبيعة عمل الأب تقتضى عدم استقرار الأسرة وكثرة الانتقال من مكان إلى اخر .

وكان الشيخ « محمد » محبوبًا من الفلاحين الذين كان يتعامل معهم . . فقد كان يحاول إسعاد أكبر عدد ممكن من الفلاحين الفقراء البسطاء ولكن صاحب الأرض رأى ذلك شيئًا مخيفًا وخطرًا عليه . فكان يبعده إلى عزبة أخرى .

كما أن صاحب الأرض غضب من الشيخ محمد عندما كان يعطى للفلاحين سلفة ، ولكنه كان غير حريص على تحصيلها فى الوقت المناسب شفقة بهم وكان يتلمس لهم الأعذار المختلفة . .

وكان يستمع إلى كل شكوى . . ويميل إلى تصديقها . . فمن يذكر أن أمه ماتت يبادر إلى تعزيته ، ولكنه لا يبتعد أكثر من ذلك فلا يحاول مثلا أن يتأكد إن كانت هى ماتت فعلا أو ماتت قبل ذلك . وإنما كان يرى أن كل إنسان معذور ما دام فقيرًا . . وأن الإنسان إذا اضطر إلى الكذب . فهذه عقوبة .

لذا كان صاحب الأرض هو القادر على أن يجعل تلك الأسرة البسيطة المتمسكة بقيمها وطيبة قلبها تركب السيارة ليلا وتنتقل سرًّا إلى أى مكان وكان هناك إصرار من الجانبين . .

إصرار من « الشيخ محمد » على عمل الخير ومساعدة الفلاحين البسطاء ..

وإصرار من صاحب الأرض على عدم الاقتناع ..

وكل واحد منهما يتخذ هذا الموقف ولا يغيره .. ولكن لا ينفصلان ولكنهما كانا غير حريصين على أن تكون العلاقة أفضل ، فصاحب الأرض لم يكن يكرهه ، ولكنه كان غير راض عنه ، ولم يستطع الاستغناء عنه لأمانته وصدقه ونزاهته .

وكان الفلاحون يحبون الشيخ محمد ويودون مساعدته ولكنهم كانوا لا يملكون مساعدته !

وخالفه بعض الناس فى رأيه الذى يبرر الأعذار للناس ، ولكنه كان مقتنعاً بأن الناس على حق فى أعذارهم !

كانت هذه هى طبيعته .. وهو يفعل ما يرى أنه طبيعى مهما كلفه ذلك من ركوب السيارات ليلا بين أرض وأرض وبين قرية وقرية !

* * *

وتستمر رحلة كفاح الأب مع أصحاب الأرض ومع السفر ليلا .. ومع عدم الاستقرار ومع الحاجة والمرض حتى يتمكن من أن يكمل تعليم ابنه الأثير « أنيس » ويدخله الجامعة ولكن شاء القدر أن يرحل الأب عن الحياة فى اليوم الذى اطمأن فيه على حصول ابنه على الليسانس .

ولقد كان هذا الموقف من الذكريات الحزينة فى حياة « أنيس منصور » فعندما ظفر بالليسانس فى كلية الآداب قسم الفلسفة عام ١٩٤٧ كان ترتيبه الأول على خريجى القسم ، واستدعاه الأب ، وكان مريضًا على فراش الموت ، وسأله :

– قل لى يا ابنى هل نجحت ؟

فرد عليه « أنيس » :

– نعم ..

فسأله الأب :

– وهل جاء ترتيبك الأول ؟

فرد « أنيس » :

– نعم . .

ومات الأب . . وابتسامة عريضة راضية على شفتيه !

ولكن ارتبطت فى ذهن « أنيس منصور » وفى وجدانه أكبر نجاح وأكبر صدمة !

* * *

لقد كانت لشخصية ذلك الأب دور كبير وفعال فى حياة أنيس منصور وأدبه . . وكان له تأثير كبير فى كل مرحلة من مراحل حياة كاتبنا وسوف أفصل ذلك خلال تتبعى لسيرة كاتبنا خاصة فى مرحلتى الطفولة والصبا وتشتت الأسرة بين العزب والضياع والقرى المختلفة من كفر « نوب طريف » حتى « أبو حمص » !

أمه

كانت أمه سيدة مؤمنة طيبة القلب ، صافية السريرة ، متدينة بالفطرة تتميز بسعة الأفق والوعى برغم أنها كانت سيدة بسيطة لا تقرأ أو تكتب . .

كانت من عائلة الباز من قرية « ميت الخولى مؤمن بمحافظة الدقهلية » .

ولقد كانت سيدة قوية العزيمة صلبة الإرادة شديدة التحمل لمشاق الحياة ومصاعبها قد تحملت الكثير وشاركت زوجها رحلة الحياة فى صبر وإيمان وقوة تحمل عظيمة وتحملت الحياة حلوها ومرها وسهرت على رعاية أبنائها فى صبر المؤمنة التقية المثابرة بصورة نادرة .

وكانت تتنقل مع زوجها . . لطبيعة عمله . . ومع أبنائها حسب تنقلات الزوج المتعددة من قرية إلى قرية ومن عزبة إلى أخرى حسب رغبة أصحاب الأرض وكانت الأسرة الصابرة المكافحة كثيرًا ما تجد نفسها فى سيارة وراءها غبار كثيف وكان الصغير « أنيس » يجد على يمينه أباه وعلى يساره أمه . . ويضع رأسه على ركبتيها وينام فى السيارة المنطلقة !

ونشأ أنيس يحب أمه حباً كبيرًا نادرًا يذكرنا بحب المازنى لأمه حتى أنه كان يتفاءل عندما كانت تدعو له بقولها « الله يكرمك » .

وكانت الأم بدورها تخاف عليه وتحوطه برعايتها وحبها بصورة عميقة حتى أنه ضاق بهذا الحب الذى بلغ درجة الخوف عليه من أية لفحة هواء حتى بعد أن أصبح رجلا يتحمل مسئولية نفسه ولكن قلبها المحب بكل بساطته ظل يتابعه ويشمله بالحب والحنان .

ويصور لنا أنيس مدى حب أمه له وحرصها عليه فيقول فى مقال له بعنوان « كرهت حبى »[١] .

العلاقة التى تربطنى بأمى غريبة . . .

فهى تحبنى بطريقة مختلفة عن حبى . . .

« وكل ما يهم أمى لا يهمنى ، وكل ما يهمنى لا تعرف أمى عنه أى شىء . . فهى لا تعرف ماذا أعمل ، ولا كم أساوى ، ولا ماذا يقلقنى أو يخيفنى . .

« وإذا كنت مريضًا ، فإننى لا أفتح فمى ولا أقول : آه !

« وإذا كان المرض شديداً فإننى أختلق أى قصة وأهرب من البيت وأنزل فى أحد الفنادق » .

فأمى لا تتصور أبدًا أننى من الممكن أن أمرض أو أتعب أو أتعذب . . . إنها تحزن فى عجز . فكل ما تملكه أمى هو بضعة ملايين من الدموع ، ومثلها من الدعوات . . ثلاث مرات فى اليوم . . وهذا هو الطب القديم الذى لا تؤمن به الأمعاء ولا المعدة ولا الأعصاب !

والزجاجات الكثيرة الملونة الصغيرة والكبيرة التى إلى جوار فراشى ليست إلا فيتامينات بسيطة للزكام . . والزكام سببه البرد والسهر وسقوط اللحاف من فوقى وأنا نائم . . كما تقول أمى . . وأؤكد لها ذلك كل يوم !

---

(١) أنيس منصور / وداعاً أيها الملل / ط ١٩٧٠ / ص ٩٨ .

وكل رجل يطلبنى بالتليفون هو تلميذ من تلامذتى فى الجامعة ولذلك تدعو له بالنجاح فى الامتحان !

كل فتاة تطلبنى فهى خطيبتى ، أو ستكون خطيبتى أو زوجتى أمى تدعو لها ، بالسعادة والرفاء والبنين . . وأمى طبعاً ضعيفة فى الحساب ، وإلا لكانت قد تصورت أننى لا أستطيع أن أتزوج كل من تطلبنى فى التليفون فى خلال سنة أو عشر سنوات .

وأنا أحمد الله أن أمى لا تعرف عنى أكثر من هذا ، ولا تعرف ما يصيبنى فى جسمى أو فى نفسى ، وإلا كانت كارثة علىّ أنا !

فكل ما يصيب أمى . يصيبنى بعدها بلحظات . . إننى أبالغ فى متاعبها . . وهى أيضاً . . هى ترى متاعبها ضئيلة جداً ، ولكنى أراها خطيرة .

ولكن حب أمى يعذبنى فعلا . .

إنها سلبتنى أعز ما أملك . . سلبتنى حريتى . .

إننى أصبحت أشعر بأننى حارس لابنها . . الذى هو أنا . . بأننى حاميه . . بأننى أمانة . . فى عنقى . . بأننى « عهدة » يجب أن أسلمها إلى صاحبتها وهى والدتى . .

بأننى يجب أن أصون نفسى ، يجب ألا أمرض ، ألا أتعب . . ألا أتقلب فى فراشى !

إن حبى لأمى جعلنى أتحول من صاحب مال إلى حارس لهذا المال ، من صاحب عمارة إلى بواب .

لقد كرهت حبى . . كرهت حبى لأمى . . لأنه يعذبنى . . لأنه يحرمنى متعة المرض ، متعة الصراخ بأعلى صوتى وأقول : آه . . متعة تبديد نفسى . . إهدار صحتى . ممارسة حريتى !

وحتى هذا — والحمد لله — لا تعرفه أمى ، وإذا عرفته فإنها لا تفهمه ولا يهمها . .

فالذى يهمها هو أن أعود إلى البيت فى أى وقت ، وأدخل غرفتى ، وأمد يدى إلى كوب الشاى ، فأشربه ومعه قرص أسبرين ، وأسحب « القربة الساخنة » وأضعها تحت رجلىّ . . وأنام !

ولا تعرف أمي – طبعًا – أنني فى حاجة إلى قربة ساخنة تحت رأسى ، وإلى جوار قلبى . . وقربة ساخنة بينى وبينها . . قربة تشفينى من عذابى . . تشفينى منها . . فإنها هى المرض الغريزى . . والمرض الذى أوحت به السماء فى كل دين ! !

بمثل هذا الحب النادر كانت تلك الأم البسيطة الطيبة القلب تحوط ابنها به برغم عدم إدراكها أنها بذلك تحرمه من حريته . . ومعاناته . .

وظل « أنيس » ملازمًا لأمه بعد أن أصبح كاتبًا لامعًا وكانت دائمة الدعوات له ، وظل يؤثرها بحبه العميق ، ويحرص على رؤيتها فى كل وقت حتى بعد زواجه . .

وعندما دهمها المرض فى صيف عام ١٩٧١ اجتاحت « أنيس » مشاعر حزينة عنيفة وظل بجانبها .. ونسى فى تلك اللحظة كل شىء ماعدا الاطمئنان عليها .. نسى الأدب والمجد والصحافة والشهرة ، ولم يبق فى وجدانه سوى أمه . . وأصبح لا ينام . . يسعى من مكان لآخر باحثاً عن كل دواء وصف لها لتظل هى منبع نور اليقين الذى يؤنس حياته ويبدد وحشته ويشعره بالراحة النفسية والرضا الوجدانى . .

وأحس قراء صحيفة الأخبار من كتاباته فى تلك الحقبة أنه أصبح يكتب كتابات ملؤها التمزق والأسى والمرارة . . ويكثر من حديث الموت . . والفرقة . . والدموع !

وذات يوم طالع القراء مقالا حزينًا باكيًا « لأنيس » فيه صراخه وأحزانه وأساه العميق وتمزقه وهو يرى أمامه أمه تتعذب وتتمزق ألمًا . . والطب عاجز عن إسكان آلامها . . فأطلق تلك الصرخة الحزينة المدوية التى تنضح حزنًا ومرارة وأسى . . ونثر فى تلك الكلمات شظاياه وهو يصور للقارىء مدى عذابه واحتراقه ، فقال[1] :

أيها القارئ العزيز : لا أحرق الله لك جفنًا ، ولا أدمع لك عينًا ، ولا أوجع لك قلبًا ، ولا بدد لك عقلا ، ولا أذاب ليلك فى نهارك ، ولا أراك الله مكروها فى عزيز لديك . . فى أم أو ابنة أو زوجة أو أخت ، فإنه لشىء فظيع أن يجد الإنسان نفسه عاجزًا لا يملك إلا دمعة العين وزفرة القلب ! . . إلا الحب وإلا الدعاء . . وإلا التطلع

(١) الأخبار / ١٩ يوليو ١٩٧١ .

إلى السماء . . وإلا هذه العبارة التى يضربها فى السقف فترتد إليه « اللهم رحمتك » . . .

ثم يختم مقاله بهذا الدعاء الباكى الحزين . . وهذه الصرخة الباكية الممزقة : « فلا أراك ، ولا أرانا مكروهًا فى عزيز لديك : أملك وأمى . . التى كانت حياتى عذابها . . فأصبح عذابها حياتى ! . . » .

وظل « أنيس » يتعذب وهو يرى عذاب أمه وعجز الطب عن وضع حد لآلامها وعذابها فسجل أحزانه وكأنه كان لديه إحساس حاد بفراق أمه . . أوكأنه كان يوطن نفسه على صبر الفراق . . فقال : [1] .

« طلبت سيدة يونانية كبير الآلهة « زيوس » أن يمنحها أعظم نعمة فى الدنيا واستجاب زيوس لدعائها فوهبها ولدين ماتا فى أثناء النوم ! . .

الولدان ليسا هما أعظم ما فى الحياة . . لكنه الموت فى أثناء النوم هو أقسى ما فى الحياة وأرق ما فى الموت

ولكن كيف يتحقق هذا الحلم لأى إنسان ؟

إنه أمل بعيد لا يبلغه إلا السعداء . . وإلا إذا استجابت الآلهة لدعاء الأمهات فهذه إذن هى الجنة التى تحت أقدام الأمهات !

أين هى الحياة ؟

وأين هو الموت ؟

وما الذى يساعد الحياة على أن تبقى أو الموت على أن يستسلم له الجسم أو هذا الجثمان ؟

ما المعنى ؟

ما الحكمة ؟

أى معنى فى هذه اللحوم والعظام والصرخات والآهات والدموع والمشارط والسكاكين والكحول واليزول ؟ .

---

(١) الأخبار / ٢٠ يوليو ١٩٧١ .

إن كانت هذه الحياة ، فأين هو الموت ؟

وإذا كان هذا هو الموت فكيف تكون الحياة ؟

هل نعيش لكى نموت ؟

أهذه هى حكمة الحياة والموت معًا ؟

هل الموت هو ألوان ودرجات وأحجام وأشكال من الحياة ؟

إننا لا نفهم ولا ندرى وإن كان بعضنا يحاول أن يتفلسف فيقول إننا فى طفولة الإنسانية ولا نعرف بالضبط ما الذى سوف يحدث فى رجولتها أو شيخوختها من ملايين السنين .

وعلينا أردنا أو لم نرد أن نقبل هذه الحياة أو هذا الموت ؟

وظل « أنيس » فى عذاب دائم يتابع علاج أمه . . وقلبه يتمزق أسى وألمًا وهو يرى عذابها . . وأصبح لا ينام ويدعو لها من أعماقه بالشفاء . . ولكن إرادة الله كانت فوق كل شىء . . وعجز الطب عن إنقاذها ووقف عاجزًا أمام الموت . .

ثم ودعت هذه الأم الطيبة القلب الصافية النفس الحياة . .

وكانت صدمة حياته المروعة . . فاهتز كيانه بعنف . . وانتفض . . وتمزق . . وتعذب . . وبكى كثيرًا كما لم يبك من قبل . . وأحس أنه أصبح كطائر حزين فى جحيم من النار والعذاب !

وتناول قلمه والأسى يرثيها ويبكيها .. بعد فراقها بلحظات ، فقال : [١] .

« اليوم فقط — مع الأسف — حتى الأسف لم يعد له معنى ، قد عرفت أن كل ما اخترعه الطب الحديث لم يكن إلا محاولة مضنية من أن يكون الموت هادئًا !

من أجل أن تقود هذه العقاقير وهذه الإبر وهذه الخراطيم إلى سور تعبره أمى هادئة إلى الشاطىء الآخر !

كأنها تود إسقاطها من طائرة الحياة ولابد من مظلة واقية . . لتهبط جثة هادئة !

كأنهم جميعًا — وأنا لا أعلم — قد قرروا وتواصوا فيما بينهم أن موتها أكيد ، ولكنهم

---

(١) الأخبار / يوليو ١٩٧١

حاولوا فى الليل والنهار أن يجعلوا هذا الموت سرًا لا أعرفه وسرًا لا تعرفه هى . .

فإذا أحست بالألم عاجلوها بالمسكنات ، وإذا شكت من جفاف الريق ، ملئوا فمها بالسكريات ، وإذا أرادت أن تجلس أجلسوها ، وإذا أرادت ألا تريد شيئًا أدخلوها فى غيابات من الطمأنينة !

ويزداد حزن « أنيس منصور » وأساه لأن أمه ماتت دون أن تتمكن من أن تتحدث إليه وتفضى إليه بكلماتها الأخيرة قبل الرحيل ، ويصور لنا أمنيته التى لم تتحقق . . فيقول :

« وتمنيت لو قالت لى أمى كلمة واحدة .. لو طلبت منى رغبة واحدة .. ليتها فعلت .. إذن لجعلت كلماتها هدفًا لحياتى . وغاية لكفاحى فى الحياة ولكنها لم تفعل ، كما أنها أرادت فقط أن يكون موتها الهادئ هو منتهى الأمل !

كأنها هى التى طلبت من الله أن يعطيها أعظم راحة ، أى تموت فى أثناء النوم . . فى أثناء نومها هى ، وفى أثناء نومى أنا . بعيدًا عنها . . فلاهى قلقت ولا أنا » .

وكأنما شاءت أمه قبل أن ترحل عن الحياة أن تدعو له دعوتها الأثيرة المحببة إليه « الله يكرمك » . . ولعل هذه كانت آخر دعواتها وهى فى غيبوبة الموت . . وكأنما شاء الله أن يحقق لها هذه الدعوة فى لحظتها . . فعين « أنيس منصور » رئيسًا لتحرير مجلة « آخر ساعة » وهى تودع الحياة . . ونشر الخبر التالى[1] :

عين « أنيس منصور » رئيسًا لتحرير مجلة آخر ساعة .

و « أنيس منصور » غنى عن التعريف ، فقد عرفه القارىء كاتبًا لامعًا وصحفيًا موهوبًا ، وقد بدأ حياته الصحفية منذ ربع قرن تقريبًا ، وعمل فى دار أخبار اليوم إبتداءً من عام ١٩٥٢ وكان واحدًا من رؤساء التحرير فيها . .

وقد اشتهر برحلاته الصحفية التى طاف فيها العالم واستحق عليها جائزة الدولة .

* * *

وبعد فقد كانت هذه صورة لأم كاتبنا وتأثيرها فى حياته وأدبه . . وصورة حبها

(١) الأخبار / ١٩٧١

النادر الكبير لابنها وتأثير رحيلها فى نفسية هذا الأديب المرهف الإحساس الذى كان يحب أمه من أعماقه .

وهذه الصورة من الحب النادر والحنان الدافق نجد مثيلا لها عند بعض كبار أدبائنا وخاصة عند المازنى الذى صور لنا فى كتاباته مدى حبه لأمه وحب أمه له كما صور لنا تلك الصدمة الهائلة التى هزته من أعماقه يوم رحيلها وتأثير ذلك فى حياته ونفسيته .

ولا شك أن هذا الحب النادر قد ترك تأثيرًا فى كتابات « أنيس » وجعلت أدبه أكثر شفافية وأعمق حزنًا وأبعد غورًا فى تصوير أحزان النفس الإنسانية وحيرة القلوب الحزينة فى مواجهة الآلام والصدمات .

يرسم لنا المازنى صورة تحليلية لأمه ، فيقول[1] :

لا أعرف الأمهات كيف يكن ، ولكنى أعرف أمى كيف كانت وأجمل التعريف بها وأوجز الوصف فأقول : إنها كانت « رجلا » وأحسب أن النساء لا يرضيهن ثناء كهذا يسلبهن أنوثتهن ، وإن سرهن ما فيه من معنى الإكبار ولكن أمى لم يكن لها بال تجعله إلى شيء من هذا ، فقد اضطرت أن تمحق أنوثتها فى سن يبدأ فيها النساء . . أو معظمهن . . يعرفن معنى الأنوثة الكاملة ، فقد مات أبى وهى فى الثلاثين من عمرها وأذاقها فى حياته ، ما سود الدنيا فى عينيها وأنساها أنها امرأة كالنساء .

ومن حنانها العجيب أنها كانت إذا مرضتُ ووصف لى الطبيب دواءً لا تدعنى أجرع منه إلا بعد أن تجرع هى منه . وكثيرًا ما كنت أقول لها : « يا أمى كفى عن هذا » فتقول : « يا بنى إنه قلب الأم » فأقول : « ولكنه عمل لا نفع منه » فتقول : « نعم ، ولكن ليطمئن قلبى » .

وكانت – عليها رحمة الله – تتوخى أن تعفينى من المنغصات ، وتتجنب أن تحملنى الهموم فتستقل بها دونى وتتحرى ما يدخل على نفسى السرور ويشيع فيها الغبطة والرضا ، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة ، وكانت ذاكرتها قوية ، فكانت إذا

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى / سبيل الحياة / أمى .

جلست للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف وكأنها تحياها من جديد ، فلا يغيب عنها حرف ولا يفوتها لون .

وكانت لقوة ذاكرتها سجلا عاماً للأهل والصواحب .

* * *

وفى الحقيقة فإن هناك جوانب تشابه كثيرة بين أنيس منصور والمازنى ، أستطيع إجمال بعضها فيما يلى :

١ — بساطة الأسلوب مع سلاسته وعذوبته .

٢ — حبهما الشديد لأمها والتعبير عن هذا الحب فى كتابتهما .

٣ — سعة ثقافة كل منهما واطلاعهما على الآداب العالمية .

٤ — حب الاستطراد فى الكتابة والانتقال من فكرة إلى أخرى فى سلاسة ومقدرة تثير الرغبة فى المتابعة .

٥ — الصراحة فى الكتابة والدوران حول النفس والإفصاح عن مكنون مشاعرهما والأحداث التى مرت بهما .

٦ — حبهما للرحلات وإجادتهما تسجيل مشاهداتهما وإثراء أدب الرحلات فى أدبنا العربى المعاصر وقد صور المازنى ذكريات رحلاته فى كتاباته ورحلته إلى « الحجاز » وفى ثنايا مؤلفاته الأخرى .

بداية التثقف

فى وسط هذه البيئة البسيطة وفى وسط ذلك الجو الدينى الصالح ، نشأ « أنيس منصور » وترعرع . .

نشأ وقد وجد كثيراً من الكتب تملأ البيت كما وجد أباه يردد أشعاراً بصوت موسيقى شجى . . واكتشف أن أباه شاعر . .

وكان الأب يمتلك ذخيرة طيبة من الكتب تحوى كتب الدين الإسلامى وأصول

اللغة وكتب الأحاديث النبوية كما تحوى أيضًا كتب الأدب ودواوين الشعر القديم .

وعندما شب « أنيس » بدأ يلتقط بعض الكتب الموجودة بالمكتبة ويقلبها وشد انتباهه بصفة خاصة دواوين الشعر . وحفظ فى البداية بضعة أبيات وعندما اكتشف والده ذلك شجعه وحثه على المزيد وأعطاه دواوين أخرى .

وعندما وقع بين يديه ديوان « الشوقيات » لأمير الشعراء أحبه وحفظ منه قصائد كثيرة . . ثم حفظ عشرات القصائد لمختلف الشعراء العرب فى القديم والحديث .

وفى سن السابعة أدخله أبوه فى كتاب القرية واستطاع « أنيس » أن يحفظ معظم القرآن الكريم عن ظهر قلب . . وكان أبوه يستمع إلى قراءته لآيات القرآن الكريم ويقومه ويرشده إلى القراءة السليمة . . حتى أصبح « أنيس » يقلد أباه فى قراءة القرآن !

وقد كانت لقراءاته المبكرة وحفظه للقرآن الكريم وحفظه لعشرات القصائد من الشعر العربى أثر كبير فيما بعد ، فى رقة أسلوب كاتبنا وطلاوته وبعده عن اللحن والإغراب !

وبعد ظهور مخايل الذكاء والنجابة على الطفل « أنيس » اتجهت نية الأسرة إلى أن يصبح أحد رجال الدين ليكون من كبار العلماء فى الأزهر الشريف !

انطلاق الطفولة

وفى طفولة « أنيس » نجد كثيرًا من المواقف الضاحكة التى تدل على أنه كان طفلا كثير الحركة جم النشاط ، يرفض الاستكانة والجمود . .

ومن تلك المواقف الطريفة .

كان يلعب لعبة « العروسة والدكتور » وهى لعبة يقوم فيها الطفل بالكشف على العروسة المريضة ، والعروسة عادة طفلة صغيرة تنام على الأرض . . وكان « أنيس » يقوم بدور الدكتور ويتولى الكشف عليها !

وكان أهالى القرية البسطاء ينظرون إليه ويضربون كفًّا بكف ويضحكون قائلين : والله القيامة ستقوم . . انظروا ماذا يفعل أولاد هذا الزمن ؟!

وكان البعض يقول إنه سيصبح طبيبًا كبيرًا . .

وكان يجد متعة كبيرة فى تسجيل أرقام السيارات التى تمر أمام منزلهم وقال البعض إنه سيكون عسكرى مرور أو ستكون له سيارة ، وقال الذين يتعمقون الأمور بل سيكون من علماء الفلك وستكون هوايته رصد الكواكب السيارة ! . .

وكان يحلو له أن يستمع إلى الراديو . . وكان يومئذ ضيق الانتشار . . وشده بصفة خاصة صوت « عبد الوهاب » وحفظ معظم أغانيه وكان يحاول تقليده وكان يكثر من ترديد أغنية « خايف أقول اللى فى قلبى » بصفة خاصة . . لا يدرى بالضبط ماذا شده فيها . . أهو اللحن ؟ أهى الكلمات ؟

أهو الصوت ؟ لا يدرى . . ولكنه أعجب بتلك العوامل مجتمعة . .

وبدأ « أنيس » يقلد « عبد الوهاب » . . فيغنى . .

وعندما حاول أن يغنى فى الحفلات العائلية ، قال أفراد أسرته إنه سوف يكون مطربًا .. وكان الطرب مقترنًا يومئذ بالرقص .. والرقص مقترنًا بالمجون ! ..

وانزعجت الأسرة . . لأن مستقبل ولدهم سيضيع . . فى نظرهم !

ولكن « أنيس » لم يتجه إلى الغناء بجنون العشاق . . وإنما باستطلاع الهواة !

ولكن كان قد اتجه بكل كيانه إلى الكتب . . بنهم العاشق ولهفة الظمآن !

كان ينظر إلى أى كتاب على أنه مصحف . . على أنه كتاب مقدس ولذلك ، كان يحرص عليه ويمسكه بين يديه بتقديس وحب وهو يقلب صفحاته . .

وكانت المكتبة حافلة – كما ذكرت – بالكتب الدينية والأدبية . . وكان الأب ذواقة للشعر والتاريخ والنوادر . . وكان محبوبًا ومهابًا بين الناس كما كان يتسم بخفة ظله وروحه المرحة فأحبه الناس أكثر . . وكان يحفظ الكثير من قصائد الشعر العربى وكان ينظم الشعر كما كان يحفظ الكثير من نوادر الشعراء . .

لذا كانت فرحته لا توصف وهو يرى ابنه يقبل على الكتب بهذا النهم . .

وكان أقاربه وإخوته يعجبون من هذا الطفل الصغير الذى يقضى معظم وقته فى تقليب صفحات تلك الكتب العسيرة الفهم بالنسبة لهم !

وبدأ يحس وهو صغير أنه يفعل ما لا يفهم . . وأنه يقرأ ما لا يدرى . . ولكنه كان مصرًا على القراءة . . فماذا يفعل أمام سخرية هؤلاء المحيطين به ؟

اهتدى إلى وسيلة ليستمر فى تلك القراءات الغريبة بالنسبة لهم . . فكان يخفى الكتب تحت السرير . . ويختفى معها . . وكثيرًا ما كان يختفى معها . . وكان يجلس جلسة غير مريحة ، فكان ينام على أرضية الغرفة من شدة التعب ، وأُصيب من جراء ذلك بالبرد ومرض . . واستلقى على فراشه ولكنه ظل مصرًّا على القراءة فى عناد وتصميم وإرادة قوية . . وظلت الكتب بين يديه حتّى وهو مريض يقرأ فيها الساعات الطوال دون كلل أو ملل . . وبعد أن شفى عاد مرة أخرى يعاود قراءاته متخفيًا تحت السرير . . وبالرغم من الضوء الخافت الذى كان يصله وهو تحت السرير ، فقد كان يستمر فى القراءة لساعات طوال بصبر وتصميم عجيبين ! . .

ورأى الوالد ابنه عاشق الكتب ، وأعجبه تصميم ابنه وصبره العجيب ، فكان يقول له مشجعًا : الله يفتح عليك يا بنى . .

وكان « أنيس » يعجب بهذا الدعاء أشد الإعجاب ، فكان يزداد تصميمًا على القراءة والاطلاع . . وكان الأب يقول لأصدقائه وضيوفه فى سعادة ومرح :

– لقد ولد « أنيس » والكتاب بين يديه ! . .

كان فى الليل مثلا يقرأ كتاب « أدب الدنيا والدين » وفى الصباح يلعب فى الحارة وفى النهار يحفظ « دلائل الخيرات » ويستحم فى الترعة . . ثم يحفظ « بردة البوصيرى » . . .

وبالرغم من بعض مشاكساته الطفولية واستحمامه فى الترعة فإن جل وقته كان يقضيه غارقًا لأذنيه بين الكتب . .

وهكذا استطاع « أنيس منصور » فى هذه السن المبكرة أن يجيد القراءة فى البيت قبل أن يدخل المدارس ! . . .

فى خضم الحياة

وعندما نقل والد « أنيس » إلى مكان آخر ، ألحقه بكتاب فى قرية « كفر الباز » مركز فارسكور ، ومرة أخرى لم يتعلم شيئًا وإن كان قد وجد فى « سيدنا » الثانى طيبة ورحمة .

وذهب إلى كتاب ثالث ، وكان والده قد وعده بشراء ملابس جديدة له ، كما وعد « سيدنا » الثالث بمكافأة خاصة ، وفعلا حفظ القرآن خلال عامين[1] .

ولكنه لم يحصل على الملابس الجديدة ، فقد استقبله والده لا بالفرح كما كان يتصور ، بل رآه حزينًا والمسبحة فى يده وشفتاه ترددان دعاءً طالما سمعه « أنيس » من والده دون أن يفهم معناه وهو :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس »

وكان صوته مختنقًا بالدموع .

وفهم « أنيس » فى هذه المرة أن والده يشكو الناس إلى الله . وعرف أنه لن يحصل على الملابس الجديدة .

ومنذ هذه اللحظة بدأ يجد صعوبة فى التطلع إلى وجه والده الحزين ، ويومًا بعد يوم أصبح يجد صعوبة فى التطلع إلى وجوه الناس جميعًا ، فإذا جلس « أنيس » بين بعض الناس – حتى ولو كانوا من أعز الأصدقاء – فمن النادر أن يتطلع إلى وجه أحدهم وهو يتكلم أو يتناقش أو حتى يضحك .

وبدأ يقرأ كتبًا أخرى غير القرآن الكريم ، وأصبحت طفولته موزعه بين القراءة واللعب فى الحارة والاستحمام فى الترعة ، ولقد كان حفظه للقرآن الكريم جواز مروره إلى حلقات الذكر والمساجد التى حرص على التردد عليها ليلا محاولا أن يفهم معانى القرآن ، فقد كان حفظه للقرآن مجرد خطوة نحو فهم القرآن وفهم أصول الدين .

ولكنه لم يصل إلى فهم القرآن أو فهم الكتب التى قرأها وبدأت حياته تأخذ لونًا

---

(١) إبراهيم البعثى / شخصيات عربية معاصرة / كتاب اليوم أبريل ١٩٧٠ .

من القلق الحاد وعدم الاستقرار ، فقد تعدد نقل والده من عمل إلى عمل ومن مكان إلى مكان ، كلما استقر ورتب ملابسه القليلة وكتبه المعدودة رأى الأسرة تجمع حاجياتها وتنتقل إلى قرية أخرى .

والده يجرى وراء رزقه ، وهو يجرى وراء والده لا يعرف إلى متى سيبقى فى هذه القرية أو متى سيعود إليها ، وعرف الخوف من الليل : من العفاريت التى تتراءى له فى خياله البسيط ، وتواصل الأسرة الرحيل من مكان إلى آخر . . الأم تحرص على حقيبة الملابس ، والأب يحرص على ساعة الحائط ، و« أنيس » يحرص على الكتب القليلة التى لديه !

والتحق بالمدرسة الابتدائية ، وكان متفوقًا فى دراسته ، فكرهه التلاميذ وأحس هو بالحرمان كلما رآهم يلبسون الملابس الجديدة والأحذية الجديدة . .

وكان يحتمل أن يرى نفسه محرومًا من الملابس الجديدة ، ولكنه لم يكن يحتمل أن يرى نفسه محرومًا من الكتب عاجزًا عن شرائها ، وكره الكتب . كل الكتب - لأنها تشعره بالحرمان ، فحمل كل ما كان قد تجمع لديه من كتب وباعها بأبخس الأثمان .

ولكنه بعد أن باعها كره « البقال » الذى اشتراها منه وكره الشارع الذى يوجد به « البقال » وكره نفسه وقرر أن ينتحر . . وقصد جسر « كوبرى » المنصورة واستعد لإلقاء نفسه فى النيل ، ولكنه تذكر أمه المريضة وخيل إليه أنه يرى وجهها على صفحة النيل وهى تتقلب فى فراشها رافعةً يديها إلى السماء .

وعدل عن الانتحار ، ولا يدرى حتى الآن ما الذى جعله يتذكر أمه فى هذه الصورة وكأنها تحول بينه وبين الموت .

كان قد نجح فى الإبتدائية بتفوق كبير ، وكان ترتيبه الأول ، ونجح فى شهادة التوجيهية ، وكان ترتيبه الأول أيضًا وفاز بجائزتين . . .

الأولى : خمسة وعشرون جنيهًا ، ومجموعة كتب تسلمها من أحمد نجيب الهلالى وزير المعارف وقتئذ .

والثانية : كانت خمسة وعشرين جنيهًا من السير لامبسون السفير البريطانى وقتئذ

فى مصر لتفوقه فى اللغة الإنجليزية . واشترى « أنيس » من الجائزة المالية أول كتاب له قيمته فى حياته وهو « تاريخ الفلسفة اليونانية » للكاتب الألمانى « تسللر » وأودع له والده بقية المبلغ فى دفتر توفير البريد ولم يعرف « أنيس » النوم فى هذه الليلة ، فظل يقرأ ويقرأ حتى فوجئ بدق عنيف على الباب .

كان والده قد انتقل إلى القاهر وسمحت له « السيدة نعمت يكن » صاحبة الأرض التى كان يعمل مفتشًا لزراعتها بأن يقيم مع ولده فى حجرة جانبية فى مقرها ، وكانت السيدة المالكة تؤجر نصف القصر للقوات اليوغسلافية التى كانت تعسكر فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية ولاحظت السيدة أن النور مضاء حتى ساعة متأخرة من الليل فأمرت والده بإطفاء النور توفيرًا لبضعة مليمات قيمة استهلاك المصباح الكهربائى .

ومنذ هذه اللحظة بدأ «أنيس منصور» ينام مبكرًا ليستيقظ مبكرًا حتى يقرأ فى ضوء النهار ، فإذا أحس برغبة ملحة فى القراءة ليلا وقف تحت أحد فوانيس شارع الأمير حسين بالزمالك ليقرأ .

ولاحظت السيدة صاحبة القصر إصرار « أنيس » على القراءة بأى ثمن وبأية صورة فأثار إصراره على ذلك إعجابها ، فطلبت من أحد الخدم أن يصحبه إلى مكتبتها . . وكانت مكتبة نفيسة تضم أروع الكتب التاريخية والأدبية والقانونية لأعلام المفكرين الفرنسيين ، وأهدت له السيدة نعمت يكن كتاب « الأفكار » للمفكر الفرنسى « باسكال » وبهذه الهدية الفكرية نسى « أنيس » ماسببته له هذه السيدة من آلام عندما أمرت بإطفاء الأنوار عليه لمنعه من القراءة ليلة شرائه لكتاب « تاريخ الفلسفة اليونانية »

* * *

وعندما كان « أنيس منصور » بمدرسة المنصورة الثانوية ، كانت مكتبة بلدية المنصورة هى النافذة التى يطل منها على الفكر العربى والعالمى ، وقد دخل أنيس المدرسة الثانوية بعد معارضة شديدة من والده المنهك ماديًّا المرهق بأعباء تسعة أولاد كبار ،

لكن تفوق « أنيس » وترتيبه الأول على الدفعة وتأييد والدته له أرغم الأب على الموافقة .

وبعد حصول « أنيس منصور » على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة اليوم) من مدرسة المنصورة الثانوية وترتيبه الأول اتجه طموحه إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة ، فهل تحقق له الأيام أمنيته ؟

فى الجامعة

كان لطموح أنيس وتفوقه الكبير دور كبير فى إصراره على الالتحاق بكلية الآداب بجامعة عين شمس ، حيث اختار قسم الفلسفة بالكلية .

وكان ترتيبه فى الليسانس الأول . . بل إنه كان طالب الفلسفة الوحيد الذى يدرس فى قسم الأمتياز تحت إشراف الدكتور منصور فهمى .

وفى هذه الحقبة كان يتقاضى ستة جنيهات من الجامعة كمكافأة امتياز ، وحاول أن يزيد دخله ، واقترح عليه الدكتور شوقى ضيف أن يذهب بتوصية منه إلى الأستاذ عبد الوهاب عزام ليوصى به لدى الأستاذ عبد الرحمن عزام أمين عام الجامعة العربية السابق ليرشحه بدوره فى أحد الأعمال بالسلك السياسى أو الأمم المتحدة .

ولكن خجل « أنيس » من التعرف على الناس أو التطلع إلى وجوه الناس منعه من الذهاب .

ومرة أخرى أرسله إلى الدكتور على الرجال المحامى ، وكان يرأس تحرير جريدة الأساس وقتئذ – فذهب « أنيس » وظل يدور حول مبنى جريدة الأساس مرة ومرة وهو عاجز عن الدخول وحده ، وساقت الصدفه زميلا من خريجى قسم الفلسفة فأخذه من يده وقدمه للدكتور على الرجال الذى رحب به ووافق على نشر قصصه المترجمة ، وعندما عرف أن « أنيس » يتقن الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية واللاتينية

ويعرف العبرية واليونانية اقترح عليه أن يعمل فى « الأساس » بانتظام بأجر قدره عشرون جنيها .

ورحب « أنيس منصور » . . .

وبدأت فى حياة « أنيس منصور » مرحلة جديدة مثيرة .

* * *

وبعد حصول « أنيس » على ليسانس الآداب قسم الفلسفة عين معيداً بالكلية بجانب نشاطه الصحفى فى الترجمة والكتابة الفلسفية الأدبية .

وعن عمل « أنيس » كمعيد فى الكلية يروى لنا هذه التجربة بعنوان أول جملة فى أول حصة ، حيث يلقى لنا الأضواء على هذه الحقبة الهامة من حياته ، فيقول :[1]

« أول العام الدراسى سنة ١٩٥٠) كلية الآداب – جامعة عين شمس – قسم الفلسفة .

« كنت أعرف هذه المعلومات قبل ذهابى إلى الكلية بشهر على الأقل . أقنعنى بذلك أستاذى الدكتور عبد الرحمن بدوى . وكنت فى حاجة إلى إقناع . لأننى كنت محرراً فى ذلك الوقت بجريدة « الأهرام » وجريدة « الأساس » ومجلة « روزاليوسف » وفى نفس اليوم الذى فاتحنى الدكتور بدوى أن أقوم بتدريس الفلسفة كتب إحسان عبد القدوس يقدم لى مسرحية وجودية نشرتها « روزاليوسف » بهذه العبارة « إذا تخيلت شخصاً يجمع بين « العقاد ، والحكيم ، وطه حسين » وشيئًا من الشباب والحيوية والطموح فأنا أقدم هذا الشاب » .

« هذا الشاب هو أنا . . ولذلك عندما جلست أمام الدكتور بدوى كنت أتعالى عليه كالعقاد . وأدور حوله كالحكيم ، وأتجاهله كطه حسين .

« ثم وافقت أنا على أن أكون مدرسًا للفلسفة التى أحبها والتى كنت أول تلميذ فى المسابقة التى أجريت لطلبة التوجيهية ، وقبل أن أذهب إلى كلية الآداب فى شبرا سجلت على نفسى عدداً كبيرًا من التغيرات . ولابد أن تكون لها دلالة خاصة . فأنا

(١) مجلة الرائد / يناير ١٩٧٠ .

اشتريت «كرافته» فخمة ولابد أن تكون فخمة تليق بهذه المراكز العقلية والأدبية والتاريخية التى أعيشها وأحلم بها . . ولاحظت أن «الكرافته» متعددة الألوان . وقلت فى نفسى : إن هذه الألوان دليل على رغبتى فى أن أعبر عن كل الاتجاهات وهذا معناه بداية التوازن النفسى فى داخلى . ثم إن «الكرافته» نفسها قيد – وهى بداية قيود أخرى سوف تلتف حول عنقى وحول قلبى وعقلى بعد ذلك !

«فأنا لم ألبس الكرافتة» إلا ثلاث مرات فى حياتى ، مرة عندما جئت من المنصورة إلى القاهرة لأتسلم جائزتى عندما كان ترتيبى الأول فى التوجيهية ، وتسلمت الجائزة من نجيب الهلالى باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت ، وكان الطربوش فوق رأسى والكرافته حول عنقى . وندمت على أن الطربوش لم يكن مربوطًا فى رأسى مثل الكرافته . . وقد شعرت بالأسف العميق لذلك عندما تعثرت أمام الوزير وأمام جميع نظار المدارس . وسقط الطربوش على الأرض . وضحك الحاضرون وأوجعتنى كلمة تقول : فلاح» – أى أننى فلاح فاعذرونى !

«والمرة الثانية عندما ذهبت لأتلقى شهادة الليسانس وكان ترتيبى الأول . وكان ذلك فى قاعة الاحتفالات الكبرى . وتلقيت هذه الشهادة من إبراهيم عبد الهادى باشا ، رئيس الوزراء فى ذلك الوقت . . ولم أكد أخرج من باب القاعة حتى طار الطربوش من فوق «دماغى» . . وقبل أن أصرخ : الحرامى . . . اكتشفت أن الطرابيش أيضًا مثل الحمام الزاجل تعود لأصحابها من تلقاء نفسها . . وعاد الطربوش إلى صاحبه الذى كان ينتظره . . أنه عم محمود ساعى كلية الآداب !

«ثم هذه المرة فى كلية الآداب ، لم أرتد الطربوش وإنما «الكرافتة» التى فى لون الطربوش . . وملفوفة حول عنقى . تخنقنى فأحس بحبل من النار فى رأسى كأننى أضع ألف طربوش !

«ولاحظت أننى اشتريت سيارة صغيرة قبل العام الدراسى بأيام . وأحسست أننى دخلت فى الكرافتة وفى السيارة وفى السلك الجامعى فى وقت واحد ! أى أننى بدأت أحقق نبوءة إحسان عبد القدوس ابتداءً من طه حسين الأستاذ . . والعميد والمدير

والوزير بعد ذلك . . ولم أكن قد عرفت « طبوغرافية » شارع شبرا . لم ألاحظ أين يمشى الأتوبيس وأين يمشى الترام . . وأين هى المحطات التى يتوقف عندها الواحد ولا يتوقف الآخر . . وأين عنق الزجاجة التى يحتبس فيه وعنده الأتوبيس والترام والناس . . لم أعرف ذلك كله ولم أكن قد ركبت سيارتى إلا ثلاثة أيام وفى شوارع خالية من الناس . . وإلى جوارى صديق يعلمنى كيف أنظر أمامى ، وكيف أحترس جداً من السيارات ومن المشاة وخصوصاً من المشاة . وكان يذكرنى طول الوقت : « لا تنس أن المشاة حيوانات . . لا تعرف متى سيتوقفون ومتى يهرعون . . يجب أن تتوقع منهم كل شىء وعلى فكرة عرفت فيما بعد أن هذا هو أيضاً رأى المشاة فى سائقى السيارات !

« أى أننى ذاهب مدرساً للفلسفة فى كلية الآداب ، قبل أن أتخرج من مدرسة قيادة السيارات . . ولذلك كان من الواجب أن أضع لافته مكتوباً عليها « تعليم » على ظهر سيارتى . . ونسيت هذه المعانى فى زحمة شارع شبرا . . وبنفس الدرجة من الاستغراق وجدت نفسى ملتصقاً بسيارة أتوبيس وكاد يلتصق بى الترام . . وتوقف المرور وأصبحت « فرجة » !

وكان ذلك بالضبط أمام باب كلية الآداب ، وفى أول يوم من أيام العام الدراسى . والباقى لا أعرفه الآن بوضوح . . وكل ما أذكره هو أن المحصل كمسارى الترام أو الأتوبيس . . أو أحد الكمسارية ، وقد تصادف مروره فى ذلك الوقت ، وقد ركب « رفرف » السيارة ودخلت به إلى الكلية . ودفعت له مبلغ جنيه تعويضاً عما أصابه . ولا أعرف حتى الآن لماذا دفعت ولا من الذى قدر هذا المبلغ ولكن من المؤكد أن رغبتى فى ذلك الوقت هو التخلص من الموقف الحرج بأى ثمن . وكان الثمن جنيهاً ! .

« ولكن الذى لا يقدر بمال هو الذى دفعته بعد ذلك وأنا أواجه الطلبة والطالبات لابد أنهم رأوا الأستاذ الجديد فى أول وأكبر « مطب » . . فضيحة مؤكدة . . ولذلك كان دخولى للكلية مشهوراً . . صارخاً . . قصة . ولابد أن الطلبة قد عرفوا تفاصيلها التى لا أعرفها الآن !

ولا أذكر الآن أننى سمعت أى صوت . أو أى شىء فى الكلية كلها . . كأننى سقطت فى بئر . وحريص على أن أبقى فى هذه البئر حتى لا أرى أحداً ولا يرانى أحد . وكأننى عندما اصطدمت بالسيارة « فعصت » أذنى بين سيارتى والأتوبيس !

« ولا أعتقد أننى رأيت شيئاً بوضوح كأننى أيضاً فقدت عينى . إن نبوءة إحسان عبد القدوس قد بدأت تتحقق أولا بأول !

« وذهبت إلى الغرفة التى سألتى فيها أول دروس فى الفلسفة . . وكلمة « ذهبت » هذه قليلة الحروف وسريعة . ولكن لا أظن أن الطريق كان هكذا قصيراً سريعاً . فقد كنت أخوض فى الطلبة وأصطدم بهم وأتعثر فيهم . . ولابد أن الوقار والأسى والرهبة والخجل علامات تميزنى عن غيرى . . ولا أعتقد أن احداً كان يهتم بهذه العلامات التى تميزنى عن غيرى وذهبت إلى الغرفة ووجدتها ملأى بالطلبة . . أو هكذا تصورت . . واتجهت مباشرة إلى « السبورة » تماماً كما يفعل من يتعلم السباحة . . أنه يقف أمام حافة الحوض . . ويظل يبلبط فى الماء البارد . . كأنه يتدرب فى المياه الضحلة على السباحة فى المياه العميقة . وحرصت على أن أقف إلى جوار « السبورة » وأن أدق السبورة بقطع من « الطباشير » وكان « الطباشير » مثل بطاقة شخصية تدل على أننى لست طالباً . وبذلك يضاف الطباشير إلى بقية الهيئة التى تدل على أننى مدرس : البدلة الجديدة والكرافته ، والسيارة التى تهشمت قبل قليل ، والعبوس على وجهى ، والكتب فى يدى الأخرى . ثم أننى بعد ذلك اتجهت – تشجعت – إلى الباب وأقفلته .

وهنا أدرك الطلبة أننى المدرس الجديد . . ولا أعرف بالضبط ما الذى قلته بعد ذلك ولكن كل ما أذكره هو أننى « أقب وأغطس » على وجه الحوض . . وأحس أحياناً أن الماء يدخل فى فمى – وهذا هو سر احتباس صوتى . . وسر ظهور بعض الفقاقيع فى جو الغرفة . وربما كانت هذه الفقاقيع أمام عينى فقط أو أن عينى هما اللتان تظهران على شكل فقاقيع ثم تعودان خرزتين باردتين جامدتين إلى مكانهما من وجهى – خرزتين تلمعان ولا تريان شيئاً ، مثل عينى الأرنب أو الثعبان . . مجرد عيون زينه . . عيرة . . ديكور .

وبعد عشر سنوات من التدريس أطلعنى أحد تلامذتى على كراسة محاضراتى فى الفلسفة وكانت محاضراتى عن الفلسفة اليونانية وكذلك عن تاريخ الحضارة والمذاهب الفكرية والتطورات الاجتماعية والسياسية والثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر. وبعد ذلك كنت أدرس الفلسفة الوجودية . .

وفرحت بالعثور على هذه المحاضرات ، فقد أردت أن أعرف ما الذى قلته فى أول محاضرة لى فى الجامعة ، ووقفت عند هذه العبارة التى جاءت فى الدقائق الأولى من أول محاضرة لى . . والعبارة تقول : وسوف نقارن معاً بين « سقراط » الفيلسوف اليونانى و«برودين» الموسيقار الروسى . وإذا اتسع الوقت سوف نتساءل عن سر شكوى الموسيقار النمسوى « موتسارت » من لسع البراغيث ، مع أنه لم تكن هناك براغيث .

عبارة غريبة مدهشة . . لا تدل على شيء من الفلسفة . . وإنما تدل على أشياء كثيرة فى نفسى أنا ، يوم أول درس فى أول يوم دراسى .

فلا وجه للشبه بين سقراط وبرودين .

وربما كان الشبه الوحيد هو أن سقراط كان يمشى عارى الصدر حافى القدمين . . ولا بد أننى تمنيت فى ذلك الوقت أن أكون حافى القدمين ، لعلى أهرب بسرعة من هذا الموقف الرهيب وأن أعود إلى البيت ماشياً لا فى سيارة . . ولعلى تمنيت أيضًا أن أكون بلا كرافته مثل سقراط . . وأن تكون المحاضرة فى حوش الكلية ذهابًا وإيابًا كما كان يفعل « سقراط وأرسطو » من قبل .

أما الموسيقار برودين فلا أعرف بالضبط ما الذى جمعه بسقراط . . ربما كان السبب هو أنه فى إحدى الحفلات الموسيقية قد عاد من محطة السكة الحديد بعد أن نسى البنطلون ذهب بالجاكته والكرافته فقد كان من عادته أن يذهب إلى محطة السكة الحديد ، لأن منظر القطار يعجبه . يلهمه ، شكل القطار متربعًا على قضبان من حديد . هذه القضبان كأنها خطة متينة طريق مرسوم بقوة وبوضوح . والبخار يتصاعد من رأس القطار كأنه يفكر . . كأنه يحترق فى أثناء التفكير وقبل أن يتجه إلى تحقيق هدف . . ثم الانتقال من هدف إلى هدف . . ومن محطة إلى محطة . لابد أن إحساساً

كان برأسي فقط . . ولم يكن هناك أى إحساس ببقية جسمي . . أو إحساس برقبتى المخنوقة وعدم إحساس بساقى هو الذى جعلنى أتخيل أننى جئت هذه المحاضرة من غير بنطلون مثل الموسيقار برودين . .

أما القطار فلابد أن يكون سبب تذكرى له أننى من غير خطة ولا هدف . . وأننى أدخن وأحترق على الفاضي . . فأنا قطار بلا قضبان . . أو قضبان بلا محطات . . وإنما قطار « محول » فى كلية الآداب قسم الفلسفة !

ربما كانت هذه الأسباب .

أما الموسيقار « موتسارت » فأنا لا أعرف أبدًا أنه كان يشكو من هرش فى رقبته أو جسمه . ولكن أتذكر أنه يوم أقيم أول مهرجان لموسيقى موتسارت فى مدينة سالزبورج بعد الحرب العالمية الثانية ، كنت ضمن المتفرجين ، وكانت المدينة الصغيرة مزدحمة ولم أجد مكانًا أنام فيه سوى غرفة صغيرة لسيدة زوجها مات فى الحرب . ولابد أن يكون السبب الحقيقى لقبول النوم فى هذه الغرفة أن السيدة ظريفة جميلة وأن لها بنتًا جميلة جدًا فى السابعة من عمرها لم تكد الطفلة ترانى حتى قالت لى « يا أونكل » وهزتنى هذه الكلمة . فلم أسمعها من أحد قبل ذلك أو سمعتها ولم أهتز لها . . وإنما هذه الكلمة ترددت فى مدينة الموسيقار موتسارت . . وكأنها «كورال» ملائكى . .

ووضعت حقيبتى وانتقلت إلى غرفتى .

الغرفة صغيرة . ولكنها نظيفة ، ولم أخف سعادتى . فدعوت السيدة وابنتها إلى عشاء على حسابى . ولا أعتقد أننى ندمت كثيرًا على أننى فعلت ذلك . فلم تكن هذه الطفلة هى الابنه الوحيدة للسيدة . وإنما لها ستة من الأولاد وكان ذلك امتحانًا شاقًا لشهامتى . ونجحت فى صعوبة فى أن أدفع لهؤلاء جميعًا عشر زجاجات بيرة ولحومًا وفاكهة . وفى الليل أحسست بأصوات غريبة فى الغرفة . أنغام طائرة ولكنها ليست موسيقية : أشياء تقفز على الوجه وعلى المخدة . . مباراة فى كرة القدم . الكرة فى حجم البرغوث . . وهذه البراغيث تذكرنى بشارلى شابلن فى فيلم « أضواء المدينة » عندما كان يداعب البراغيث . وينقلها من العلبة إلى « البرنيطة » ولكن لم تكن هناك براغيث فى

الفيلم . أما فى الغرفة فقد امتلأت بالبراغيث . . مؤكد براغيث ! . . وفتحت النور . . ورأيت البراغيث وضحكت وقلت لنفسى : أنها أحفاد البراغيث التى شربت من دم موتسارت .

إذن أصبحت الموسيقى تجرى فى عروقى !

وكدت أقنع نفسى بهذا المعنى لولا أننى رأيت على الحائط سجادة أثرية . . وعلى السجادة منقوش بالألمانية بيت عمر الخيام المشهور :

فما أطال النوم عمرًا ولاقصر فى الأعمار طول السهر

ومعنى ذلك أنه لا داعى للنوم . فلا الهوى أطال العمر . ولا السهر قصره . ونمت برغم ذلك .

ولا بد أن يكون هذا الحادث هو الذى قفز إلى ذاكرتى وأنا فى المحاضرة الأولى ولابد أن يكون سبب استدعاء هذه الذكريات أن الكرافته خنقتنى وأن العرق بدأ يلسعنى . . وأننى – لا شعوريًا – أهرش قفاى والطباشير فى يدى . . ولابد أن تكون عملية الهرش هذه ذات إيقاع موسيقى جعلتنى أتذكر الموسيقار الكبير موتسارت !

لا أعرف بالضبط ما هى الأسباب الحقيقية التى جعلتنى أقول هذه العبارة فى أولى محاضراتى الفلسفية . .

أما كيف انتهت المحاضرة فأنا أصف ذلك بدقة . أحسست أننى أتمدد على زورق كاوتش فى حمام سباحة . . وفجأة انفتحت فى قاع الحمام بالوعة شفطت الماء كله . . فوجدتنى على الأرض !

نسيت أن أقول البالوعة شفطت الطلبة أيضًا .

أو كأننى كنت أمثل على مسرح . . فبعد أن أضيئت أنوار الصالة أطفئت أنوار المسرح . . ونزل الستار . ووراء الستار الكثيف رحت أجفف عرقى وأبلل ريقى . . وأقول لنفسى : تعيش وتأخذ غيرها !

وعشت وأخذت غيرها سبع سنوات . . ولم تكن المحاضرة بعد ذلك إلا صورًا أوضح لما رأيته غامضًا قبل ذلك . . وكنت أقوم أنا بإحراج الطلبة . . كأننى أعين

الطلبة مدرسين. وأتولى أنا دور الطلبة فأحرج هؤلاء المدرسين الجدد !

فالمحاضرة الأولى كالحب الأول. قوى غامض لا ينسى . . وكل الغراميات بعد ذلك تكرار للصورة الأولى !

فالحب الأول كالنقش على الحجر . . والحب الثانى والثالث والرابع كالنقش على الماء الذى يقف فوق الحجر الذى نقشنا عليه حبنا الأول.

* * *

بهذا الأسلوب الطريف والاستطرادات الممتعة سرد لنا « أنيس منصور » بطريقته الفريدة المميزة ذكريات اليوم الأول فى الجامعة.

وبجانب تدريسه للفلسفة الحديثة فى كلية الآداب جامعة عين شمس التى شملت الفلسفة الوجودية وتاريخ الحضارة كان « أنيس » يسهم بمقالاته وترجماته وتحقيقاته فى الصحف والمجلات.

ولكنه استقال من الجامعة فى عام ١٩٥٥ عندما صدر قانون نقابة الصحفيين الذى حرم العمل فى الصحافة على غير المتفرغين لها وقد حاول الدكتور مهدى علام إقناعه بعدم الاستقالة ولكن « أنيس » قال له إنه يستقيل من الجامعة المحدودة العدد بعشرين ألفًا ليلتحق بالجامعة غير محدودة العدد.

وبدأت صفحة جديدة وحاسمة فى حياة « أنيس منصور » الأدبية والصحفية . . والوجدانية !

الفصل الثاني

أنيس منصور صحفياً

بدايته الصحفية

تخرج « أنيس » فى كلية الآداب قسم الفلسفة عام ١٩٤٧ وكان ترتيبه الأول وفى نفس العام ١٩٤٧ بدأ « أنيس منصور » ينشر فى الصفحة الأدبية بجريدة الأساس قصصًا مترجمة ، ثم أصبح المحرر الأدبى للجريدة ، فجمع بين تحرير الصفحة الأدبية وكتابة القصة القصيرة دون أن يظهر اسمه .

وعندما بدأ يكتب قصة قصيرة ، أراد أن يندمج فى الحياة أكثر ، فأصبح يزور الملاهى الليلية بانتظام . . يجلس وحده فى صمت لا يكلم أحدًا . . وبدأ يكتب قصصًا عن الراقصات كل من قرأها اعتقد أنها مغامرات شخصية « لأنيس » ولم يعرفوا أنها من وحى خياله ومن بنات أفكاره !

وبعد فترة انتقل إلى العمل فى مجلة « روزاليوسف » وظل يحرر بها تحت اسم نسائى مستعار هو « سلفانا ماريللى » وتحت هذا التوقيع كتب كثيرًا من الموضوعات حتى أصبح مشهورا عند القراء وبين الصحفيين .

أكثر من هذا ، ففى عدد واحد من روز اليوسف ظهرت إمضاءات جديدة : (أحلام شريف – شريف شريف – منى جعفر) ولم تكن هذه التوقيعات إلا أسماء استعارها أنيس منصور ليعطيه حرية أكثر فى الكتابة والتعبير عن أفكاره الصحفية بصورة أكثر صراحة ووضوحًا وظن الكثيرون أن « سلفانا ماريللى » هى صحفية فرنسية . . وعندما انتقل « أنيس منصور » للعمل فى أخبار اليوم خشى أن يترك اسم سلفانا ماريللى فى روز اليوسف حتى لا يتساءل الناس عن مصيرها ، فقرر قتلها . . فنشر خبرًا قال فيه إن « سلفانا » ماتت فى حادث سيارة !

* * *

وفى جريدة الأهرام ظل أنيس منصور يكتب القصة القصيرة التى كانت تنشرها فى

صفحتها الأخيرة . . وبلغ عددها حوالى ٥٠٠ قصة نشرت كلها بدون إمضاء وهذه القصص لم تجمع فى كتاب حتى الآن ماعدا قصة واحدة نشرت فى مجموعة « هى وغيرها » تحت عنوان « حبيبى » . .

ومن الطريف أن « أنيس منصور » كان هو الذى يحرر الصفحة النسائية بجريدة الأهرام فيما بين عامى ١٩٥٠ و ١٩٥٢ ، حيث حفلت بأحدث أخبار الموضة وأحدث الموديلات ، وكسبت هذه الصفحة ثقة عدد كبير من القارئات[1] .

ولقد عاش أنيس منصور فى مطالع حياته الصحفية مع مذكرات عدد من عظماء التاريخ . . فقام بترجمة مذكرات « روميل » ثعلب الصحراء ونشرها بجريدة الأهرام ونجحت نجاحًا كبيرًا .

وفى أخبار اليوم ترجم مذكرات « دوق وندسور » ملك بريطانيا الذى باع العرش من أجل قلبه ومن أجل حبيبته التى كانت من الشعب !

كما ترجم « أنيس » مذكرات « تيتو » ومذكرات « مستر أتلى » رئيس وزراء بريطانيا ، « وأوتو سكورزيبن » الرجل الذى خطف « موسولينى » دكتاتور إيطاليا .

وأول كتاب أصدره « أنيس منصور » هو « وحدى مع الآخرين » وقد اختار له العنوان الشاعر الراحل « كامل الشناوى » .

وقد خاض « أنيس منصور » العديد من المساجلات الأدبية والمعارك الصحفية الساخنة ، وكانت أول معركة ضارية خاضها عام ١٩٤٨ إلى جانب العقاد مدافعاً عنه ، وهى المعركة التى عرفت باسم « معركة الأدب الهادف » .

ويجب أن نسجل أن « أنيس » تأثر بفكر العقاد ، حيث كان حريصًا على حضور ندوته الأسبوعية كل يوم جمعة بمنزل العقاد ، وقد سجل « أنيس » أفكاره وفلسفته وحكايته مع الأدب فى ضوء العقاد أو مع العقاد من خلال سلسلة مقالاته الممتعة بمجلة أكتوبر خلال عام (١٩٨١) تحت عنوان « فى صالون العقاد : كانت لنا أيام » .

---

(١) حازم فودة / نجوم شارع الصحافة .

والمعركة الثانية كانت فى عام ١٩٥٤ وهى المعركة التى عرفت باسم معركة « الوجودية » ولقد كان هذا الكتاب هو أول كتاب باللغة العربية يتناول هذا المذهب الفلسفى بلغة مبسطة سهلة وقد بيع منه ٥٠ ألف نسخة .

ومن الحكايات الطريفة حول هذه المعركة التى ذكرها الكاتب الصحفى المرحوم إبراهيم البعثى أن السيدة والدة « أنيس منصور » سمعت خطيب مسجد سيدى أبى العلا يدعو قائلا :

« اللّهم اخرب بيت أنيس منصور » !

وكان ذلك على إثر نشره مقالا من المقالات العنيفة التى كتبها دفاعاً عن وجهة نظره .

وقد انزعجت السيدة والدته ، وفى الحال أحضرت سيارة لورى ونقلت العفش من المنزل الذى كانوا يقيمون به قرب سيدى أبى العلا فى بولاق . نقلت العفش دون أن تعرف إلى أين ، وأخيراً وجدت شقة فى شارع ضريح سعد نقلت إليها المنقولات ، ثم اتصلت « بأنيس » فى الجريدة لتبلغه القصة وترجوه أن يوقف هذه المقالات حتى لا يدعو مشايخ المساجد عليه بخراب البيت .

وهكذا كان « أنيس » دائماً صريحاً جريئاً فى التعبير عن أفكاره ومشاعره مما جعله يصطدم بالكثيرين ويخوض الكثير من المعارك الصحفية الضارية .

أسلوبه

إن أعظم ما يتوج كل مميزات أدب « أنيس منصور » وكتاباته هو طلاوة الأسلوب ، فجمال أسلوبه يتوج كل مميزاته ويسير بها فى طريق الجودة والتفوق والامتياز .

وأسلوبهُ أسلوب طلى رشيق سريع . . كما يتسم بالتفصيل والتبسيط والتوسع فى شرح بعض العبارات والجمل لعل ذلك يعود إلى دراسة « أنيس » للفلسفة وما تحتاجه

من تبسيط وإعادة شرح ، فهو يكثر من إيراد عدة معان للفظ الواحد . . وإيراد عدة تفسيرات للمعنى الواحد ، حتى كأنه مدرس يحاول أن يشرح لتلاميذه الجوانب الغامضة فى الدرس وتفسيرها ، حتى يفهم الجميع ما يقوله بسهولة وبساطة !

تأمل هذه العبارات لتدرك أبعاد أسلوبه وسماته :

« القطار يشبه الزمن . . يشبه العمر . . فكلنا نعيش فى وقت واحد . . ولا أحد يعرف متى تجىء المحطة التالية . . متى ينزل . . ولا أين ينزل . . بعد أن ينزل من القطار . . يمضى القطار بالناس لا يتوقف لأن واحداً قد نزل . . مهما كان هذا الواحد طيباً أو شريراً . . شاباً أو عجوزاً . . سواء ركب القطار لأول مرة أو للمرة العشرين .

وتأمل أيضاً تلك العبارات الجميلة المركزة التى تشبه الأسلوب التلغرافى وتؤدى الكثير من المعانى وتعكس فى نفس الوقت فلسفة أنيس منصور وأسلوبه » .

« حب الروح هو فى الواقع حب الروح الكبير والعقل الناضج » .

والفتاة تحب أحياناً الرجل الكبير ، الرجل ذا التجربة ، الرجل الذى يفهم حقيقتها والذى يجعل وزناً كبيراً لمشاعرها . . فإنها تحب الرجل الذى يشعر أنها قطعة من الذهب يجب أن تصان لا قطعة من السكر يجب أن يمتصها فوراً وتذوب ويبحث عن أخرى .

إذن فإن أسلوب « أنيس منصور » بكل خصائصه ومميزاته من أكبر العوامل فى نجاح كتاباته وإقبال الشباب عليها بشغف ولهفة . . وكان بصفة خاصة من أبرز أسباب تفوقه فى أدب الرحلات ذلك اللون الفريد فى أدبنا المعاصر.

أنيس كاتباً صحفياً

عندما سئل « أنيس منصور » عن بدايته الصحفية حين كان يثير كثيراً من القضايا الفكرية والأدبية ويركز الأضواء على غير المألوف فى الفكر والأدب ، فهل كان ذلك راجعاً إلى أنه كان يريد الإثارة الصحفية أم كان يريد أن يفتح أمام قارئه الطريق نحو كل ما هو طريف فى عالم اليوم أجاب « أنيس » بقوله :

يظهر أن هذه بداية مألوفة لأى كاتب فى بداية حياته . . وربما كانت بداية أى طفل أيضًا يريد أن يقول : أنا موجود . . أى أن لى وجودًا مستقلا . . مختلفًا عن غيرى من الناس .

وهذا الإعلان يحتاج إلى ضوضاء . . إلى أصوات تلفت الأذن . . وألوان تلفت العين . . وتجىء هذه العبارات مثل أذرع قوية تشدك من كتفك أو من ذراعك لكى ترى شيئًا جديدًا . . أو قلمًا جديدًا . . وفى أدبنا المصرى أمثلة لذلك . . وفى كل الآداب العالمية أيضًا .

فما الذى لم يفعله العقاد بشوقى ؟ وما الذى لم يفعله طه حسين أيضًا ؟

وما الذى لم يفعله « جوركى وتشيخوف » بالأديب الأمين « تولستوى » ؟

وما الذى لم يقله الشاعر « هينى » فى الشاعر « جيته » ؟

أن أفعل ذلك ومن الضرورى أن أرى – بعين الشباب . . أشياء جديدة طائرة لا تلفت غيرى ولا تهمه .. وأن أتعلق بالجديد لأننى جديد .

وكنت أهاجم بعنف شديد . . وكان الناس يحبون ذلك . . وأذكر أننى هاجمت محمد عبد الوهاب وقابلنى الشاعر الفنان كامل الشناوى وسألنى إن كنت قد رأيت عبد الوهاب فقلت : لا . . لم أره .

وسألنى : ما رأيك . . هل تحب أن تراه ؟

قلت : كنت أتمنى ذلك ؟

وسألنى : وما يمنعك الآن ؟

قلت : إننى هاجمته الأسبوع الماضى . .

فقال لى كامل الشناوى : بل هو الذى يريد أن يراك . .

وهو الذى طلب منى ذلك !

وقابلت عبد الوهاب . . وشعرت بشىء من الحرج والخجل أمام رقته ومجاملته . ومنذ ذلك اليوم وأنا أحسب حساب اليوم الذى سأواجه فيه الناس الذين

واجهتهم . . ومنذ ذلك اليوم أطلت رءوس الناس وعيونهم من بين سطورى ، وأطلت أقلامهم أيضًا .

وفى إحدى المرات صدرت رواية ليحيى حقى اسمها « صح النوم » وأبديت إعجابى بنصفها الأول . . ولم يعجبنى نصفها الثانى . وكتبت أقول : إن يحيى حقى قد صحا فى نصفها الأول .. ونام فى نصفها الثانى .. وصح نومه أيضًا . .

وقابلنى كامل الشناوى أيضًا وقال لى : « أقول لك أنت مثل أب ليس له أولاد . . وكلما رأى طفلا فى الشارع انهال عليه ضربًا . . وسوف يتغير أسلوبك هذا إذا صدر لك كتاب أو يكون لك طفل » !

ودخلت فى نفسى حقيقة أخرى : وهى أن أراعى ظروف تأليف الكتب . وأن أنظر بشىء من العدل وأن ألتمس الأعذار لغيرى حتى يتلمسها غيرى أيضًا .

وعرفت المجاملة ، وعرفت أن المجاملة هى نوع من الادخار . . أى أننى أدخر كلمة طيبة للمستقبل . . فإذا جاملت غيرى جاملنى . . وإذا قدرت غيرى قدرنى . . وإذا احترمت ما ينتجه غيرى احترم غيرى ما أنتجه . .

وانتقلت من مرحلة المجاملة إلى مرحلة حسن التقدير ولكن ليس من الضرورى أن تكون لك قضية مثيرة مقصودًا بها الإثارة فقط . أى الإثارة للإثارة .

فهناك قضايا كثيرة يجب أن تثار وأن يلتفت إليها . . فقد أثرت قضية الاهتمام باللغة العربية ، وقضية المذيعين الذين لا يعرفون كيف ينطقون ، وقضية مادة النحو فى المدارس وضرورة الاهتمام به ، وقضية عالم الروح . . وتحضير الأرواح . . وأثرت قضية الكتب المسروقة فى لبنان . . وأقمت معرضًا موضوعه « اعرف عدوك » ، وأثرته . . وأثرت به الناس .

وقد انتقدنى كثير من الأصدقاء لأننى أقدم كتبًا عجيبة وغريبة فى « أخبار اليوم » وأعرضها شهورًا طويلة مثل : من الحب إلى الزواج . . وتفسير جديد للعنف فى التاريخ . . والإنسان قرد عريان . . وتاريخ الحب فى تاريخ فرنسا . . ونابليون والإسلام ... ، واليهود أغرب شعب فى العالم .. والنساء جنس آخر ..

إلى آخر هذه الكتب التى يرون أنها مثيرة .. ولكن الذى قرأ هذه المقالات الطويلة المرهقة يجد أنها مثيرة .. ، لأنها جديدة .. لأنها منعشة للفكر .. لأنها توقظ الوجدان .. وتفتح نوافذ العقل على هواء جديد .. وآفاق أوسع .

ولذلك يجب ألا نخاف من كلمة مثيرة .. لأن الذى لا يثيرنى لا يساوى أن يلتفت إليه ، وأفكر فيه !

الفصل الثالث

ملامح شخصيته

ملامح نفسيته

إذا حاولنا تحليل شخصية « أنيس منصور » وملامح نفسيته فى ضوء المنهج النفسى ، فإننى أعتقد أن مفتاح شخصيته كما سبق وذكرت هو : « القلق » ، فالقلق هو الذى حرك قلمه ودفعه لأن يطير بين (بلاد الله خلق الله) ، وهو الذى دفعه إلى التجول بين آداب وفلسفات الأمم والشعوب ، ليتحول كل ذلك إلى مؤلفات ممتعة مثيرة تحوى الفلسفة وأدب الرحلات وفلسفة الحب والجمال . . إلخ .

ولعل الأديب الكبير ، « محمود تيمور » ، من أصدق من حلل شخصية « أنيس منصور » ، ووضع يده على ملامحه النفسية والوجدانية والعاطفية ، فكتب تحت عنوان « أنيس منصور وابتسامة الجيوكنـدا » ، يرسم صورة وصفية للسندباد الطائر ، فيقول[1] : « التزمت أخيرًا فى سلسلة الصور الوصفية التى أعالج بها رسم شخصيات الأدباء والمفكرين المعاصرين لى ، أن أجمع فى كل حلقة بين اثنتين من هذه الشخصيات ، صاحباهما تتسع بينهما دائرة المشابهات ، وعلى العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق .

« فلما أمسكت بالقلم لأصور صديقنا « أنيس منصور » حاولت جاهدًا أن أجد له شبيهًا ، فلم يتيسر لى الشبيه ، وحاولت كذلك ما وسعتنى المحاولة أن أجد له نقيضًا ، فعز على أن أوفق إلى النقيض ، فلقد رأيتنى أمام أمرئ ليس من السهل اكتناه أمره ، واجتلاء سره !

« نظرت إليه على أنه من الملائكة ، فلم تنكشف لى شخصيته بهذا الاعتبار ، وعددته من زمرة الشياطين ، فاستبان لى أنى ظالم له ، ذلك لأنه فى الحق مزاج طريف نادر من الملائكية الطاهرة ، والشيطانية الماكرة !

---

(١) المصور / صورة وصفية / ٢٣ يونية ١٩٧٢ .

«أشباح من المتناقضات تتراءى لك فى هذه الشخصية العظيمة، فإذا أنا أفردت صاحبها بالحديث، دون أن أقرنه بغيره، فلأنه نفسه – فى الحق – ذو شخصيتين أو أكثر من شخصيتين!

يتحدث إليك فلا تدرى: أيهزل أم يجد؟

ويعرض عليك الرأى، فتحار فيه: أيصارح أم يداور؟

إنه لغز عصى، وإن هذا اللغز ليتبلور فى نقطة واحدة، هى: ابتسامته!

تلك الابتسامة التى تجمع فى تضاعيفها معالم شخصيته . . . وما أشبهها بجنين فى بطن أمه خلال الأشهر الأولى من تخلقه، فهو على الرغم من صغر حجمه، ودقة تكوينه، يحوى كل العناصر التى يتشكل منها الإنسان المستقبل.

«أنت تواجه هذه الابتسامة . . . كما تواجه ابتسامة الجيوكندا» . . .

مبهوتًا حيران، لا تملك لها تحليلا ولا تعليلا . . . هل هى ابتسامة كاملة الشكل، ناصعة المعنى؟

هل هى شروع فى ابتسامة لا تعرف ما وراءها؟

هل هى خاتمة ابتسامة، فاتك أن تتابع مراحلها، لتستبين مراميها؟

ما لونها؟!

ابتسامة ترحيب هى؟

أم ابتسامة استهزاء؟

أم ابتسامة اللامبالاة؟

أتراها تدل على واحدة من هذه الدلالات؟

أم هى تحوى كل هذه الدلالات مجتمعة فى وقت واحد؟

مهما تطل القول فى التحليل والتعليل، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة:

إن ابتسامة «أنيس منصور» هى «أنيس منصور» نفسه – فى هو – أو قل: هو هى، لا انفصال بينهما ولا اختلاف!

سرّ «أنيس منصور» يكمن خلف ابتسامته، فإذا تفطنت إلى طواياها بدا لك

الرجل بكل ما فيه .

ربما دار بينك وبينه نقاش ، وتفترقان على رد ، ولا تكاد تخطو خطواتك تاركًا إياه ، مستعيداً حديثه إليك ، حتى يتصاعد الدم إلى وجهك ، إذ يغيم الجو من حولك بأصداء هذا الحديث ، وإذا أنت تقول لنفسك :

« شد ما هزأ بي الرجل ، وشد ما نال مني » !

وسرعان ما تقصده مهتاج الخاطر ، لتعتب عليه ، كي يعتذر إليك ، فيلاقيك رابط الجأش ، ساكت النفس ، وتحاول ما استطعت أن تستعيد من ألفاظه ما يعينك على مؤاخذته ، فلا تظفر بما أردت ، وتتراجع عن مطلبك ، وكأنك أنت المعتذر إليه عن تسرعك ، إذ تلوح لك فى ذلك الوقت « ابتسامة الجيوكندا » على وجهه . . !

حتم أنه هزأ بك ، ونال منك . . . وحتم أيضًا أنه لم يفعل ذلك قط . . . ولا غرابة فى أن يجتمع هذان النقيضان فى ابتسامة صديقنا « أنيس منصور » !

تقدم له مقالك ليجيز نشره ، فيقرؤه فى ترحاب ، ثم يقول لك : مقال هائل . . مقال هائل » !

ويثير قوله فيك نوازع الشك واليقين فى آن واحد ، فلا تدرى : أمقالك هائل فى الجودة أم هائل فى السخف ؟ وتتوارد على سمعك جملته الهائلة ، فيعتريك من هولها دوار !

إذا قرأت له مقالا فى تقدير شخص أو تقييم كتاب ، وجدت نفسك فى متاهة ، تسائل نفسك : أمادح هذا الناقد أم قادح ؟

وتجهد عقلك عبثًا فى سبيل الوصول إلى خط فاصل : هل المقال يرفع الشخص أو الكتاب إلى الأوج ؟

أو هو يخسف به الأرض ؟

ولو كنت ممن وهبهم الله تلك الحاسة السادسة التى هى لون من ألوان البصيرة النيرة ، أو الحدس الكاشف ، لوجدت نفسك من عباراته المتلونة أمام جهاز كهربى لأكبر قوة معطلة ، لا يلبث أن يتصدى لحاستك السادسة ، فيلقى عليها بضع

إشعاعات ، فإذا هي ترفع راية التسليم !

يطالعك الفصل الذى يكتبه فى أدب أو فن أو ضرب من ضروب المعرفة ، فتفرغ من مطالعته وقد طاب لك أن تراجع نفسك فيما وعيت : هل كسبت جديداً ؟ هل أفدت شيئًا ؟

ولا يلبث أن يلهيك عن الجواب شعورك بأن وجدانك عامر بما أصبت من المتعة ، حافل بما غمرك من البهجة ، وفى دخيلتك تطلع إلى المزيد .

«أجمع الظن أن «أنيس منصور» خريج الدراسات الفلسفية الجامعية قد استفاد منها أنه ألقى بمذاهبها ونظرياتها وأعلامها جانبًا ، ولم يأبه لها جميعًا ، وللملم شتاته ، متجهًا إلى ينابيع الحياة الفياضة ، فكانت فلسفته إزاءها أن يرتوى بها ، ويروى منها قراءه الأعزاء . . . فلقد ربأ بنفسه أن يكون معلم فلسفات ، وعارض نظريات ، ومحلل مشكلات ، وأبى على نفسه إلا أن يكون صانع مسرات . . إنه « مخرج » لأفلام المباهج الفكرية ، فعمله يحمل من اسمه الأنيس أكبر نصيب .

«من الدارسين من يجعلون قراءاتهم الدراسية كنزهم الثمين ، ومرجعهم الوثيق ، ولكن « أنيس منصور » جعل كل ما قرأه فى دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بدء وانطلاق ، فمضى يحلق فى مطالعاته ، لا يقنع بنوع ، ولا يقف عند حد ، يصوب ويصعد ، تارة يغوص إلى أعماق « أرسطو » وطورًا يعكف على « دلائل الخيرات » ولا ينسى نصيبه حينًا من قصص تباريح الهوى والشباب ، يقرأ المعرفة واللامعرفة ، ويخوض فى المعقول واللامعقول ، يمضى فى ذلك مدفوعًا بالنزعة العارمة إلى تعرف المجهول فى كل جانب من فكر أو أدب أو فن . .

«إن «أنيس منصور» من «قوارض» الكتب والمجلات والنشرات وكل ما خطه قلم على ورق . . يقرأ لك المائتين من الصحائف ، ويحسن هضم ما قرأ ، ثم يعرض عليك خلاصاتها فى سياق رائع . . وهو مرهف الذوق فى الاختيار والعرض ، لا ينتقى لك إلا ما يشغل ذهنك ، ويملأ سمعك ، من موضوعات الساعة وقضايا العصر ، فإذا عرض لك الماضى ، ربط بينه وبين الحاضر ، ونفى عنه جفافه ووحشته ، وأدنى إليك

قطوفًا من أطايب الثقافة والفكر فى القديم والحديث .

ذلك كله ، جعل « أنيس منصور » كاتبًا صحفيًا ، أصيل الثقافة ، رفيع الطراز ، تتسم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوعى الذى يقفك على أكثر من جانب ويدور بك فى أكثر من زاوية . ولا يدعك إلا ملمًا بأشتات الموضوع الذى يعرضه عليك . .

« ولأنيس منصور » أسلوبه الذاتى ، وهو أسلوب تتضح به شخصيته ، وأكبر عناصره تلك الجاذبية التى تجعل قارئه يحرص على أن يتابعه على تواصل الأيام . . كأنه يتابع رسالة موصولة الحلقات ، أو لكأنه يوالى الاستماع لقصص « ألف ليلة وليلة » التى لم يمل « شهريار » الاستماع إليها فى لياليه الطوال . .

« والجاذبية فى أسلوب « أنيس منصور » تريدك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه فيما يتناول من الموضوعات ، وهو فيها يومًا من « الأحرار » ويومًا من « المحافظين » ويومًا من « العمال » ، وأنت فى جميع أحواله يحدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن تقرأ له ، وتقتنع بما يقتنع به ولا تخرج آخر الأمر ، إلا وأنت راض عن نفسك وعنه ، مطمئن إلى موقفك منه ، وإن لم تكن تدرى عن أى شيء رضيت ، وفى أى موقف استقر بك المقام .

«مفتاح الطابع الشخصى لكتابات «أنيس منصور» هو «المفارقات» لا يكاد يخلو منها مقال أو حديث له ، بل إنها هى القالب التقليدى للكلمات اللاذعة أو الباسمة التى يذيل بها أحاديثه ، ويجريها مجرى الحكم والأمثال ، وهو فى هذا الطابع شبيه « أوسكار وايلد » ولابد أنه أعجب به فى هذه الناحية ، ووافقت منه هوى . . وليس من شك فى أن « المفارقات » عنصر خلاب ، وسلاح نفاذ ، إذ هى تقوم على أساس المفاجأة والإثارة ، وتنطوى على التهكم والسخرية والمفاكهة ، وفى هذا ما يشد الانتباه ، ويهز المشاعر . . وذلك ما جعل « أنيس منصور » مفتونًا باتخاذ هذا العنصر الخلاب ، والسلاح النفاذ .

أما لغة « أنيس منصور » فهى جانب آخر من ابتسامته الجيوكندية ! حينًا يطالعك بالفصيح من التعبير ، فيبهرك بما يتخير من اللفظ ، وطورًا يتعمد متظرفًا اتخاذ كلمات

عافية متطرفة ، على حين أن مقابلاتها العربية لاتعزب عنه ولا تستعصى عليه . . مرة تأخذه « الجلالة » اللغوية ، فيستمسك باستعمال كلمة « اللمسات » للتعبير عما يقال له « الرتوش » وحينًا تجنح به نزعة اللامبالاة ، فيجرى قلمه بكلمة « صرماتى » بدلا من كلمة « الإسكاف » .

وأنيس منصور مؤلف كثير الإنجاب . . ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كتبه التى يوالى إصدارها . . وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروعك بطرافتها ، فهو صاحب كتاب «ساعات بلا عقارب» ، وكتاب «وداعا أيها الملل» ، وغيرهما من الكتب التى تحمل لطائف الأسماء .

مواقف طريفة من حياته :

يروى مؤلف كتاب شخصيات عربية معاصرة[1] حكاية طريفة عن انعكاس حياة « أنيس » على كتبه ومؤلفاته ، من ذلك أن هناك ظروف خاصة فى حياته أثرت فيه فعكسها فى أدبه ، وإن كان لم يتبين ذلك إلا بعد طبعها ونشرها بسنوات ، ومثال ذلك كتابه « يسقط الحائط الرابع » ، والاسم يرمز إلى مشاهد المسرح التى دائماً ما يقدمها لنا المؤلفون فى هيئة حجرة أو قاعة ، تبدو جدرانها ناقصة الحائط الرابع ، وهو ما يطل منه المتفرج فى صالة المسرح على الممثلين فوق المسرح .

وفى حياة « أنيس منصور » قصة أليمة ، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بعنوان كتابه « يسقط الحائط الرابع » ففى فترة من فترات عمره كان يعيش مع والدته فى الدور الأول من مسكن يطل على الشارع المطل على النيل عند حى أمبابة ، وفجأة سقط الحائط المطل على الشارع ، وعجز « أنيس منصور » عن الانتقال إلى مسكن آخر لضيق ذات اليد ، فكان ينام فى وقت مبكر ثم يخرج قبل شروق الشمس ، حتى لا يراه الناس وهو نائم فى أثناء مرورهم فى الشارع .

كانت حجرته أشبه بالمسرح . . والجمهور هم المارة فى الشارع . .

---

[1] إبراهيم البعثى / شخصيات عربية معاصرة / ص ٨٣ .

والغريب أن « أنيس منصور » كان يقابل هذه المأساة بالابتسام والسخرية ، وكنا نلتقى فجر كل يوم عند فندق « الفونتانا » ولا يكف « أنيس » عن الضحك وإلقاء النكت دون أن يشير إلى المأساة التى يعيشها ، ولكنها ترسبت فى أعماقه ، حتى بعد أن طبع كتابه « يسقط الحائط الرابع » ، لم يتنبه إلى الصلة بين عنوان الكتاب وبين هذه القصة فى حياته إلا بعد سنوات .

* * *

« ولأنيس منصور » قصص طريفة مع الفن بكل ألوانه ، تعكس ارتباطه الشاعرى بالفنون بكل ألوانها وأنواعها ، « فأنيس منصور » مثلا لم يكن قد دخل سينما قبل أن يتخرج فى الجامعة ولم ير فيلماً ، بل لم يعرف باب سينما ولا فكر فيما يجرى داخلها .

وذات يوم قرر بصفة سرية – أى بينه وبين نفسه – أن يتسلل إلى إحدى دور السينما دون أن يخبر أحداً بذلك ، حتى لا ينكشف أمره ، ويعرف الناس أنه ذاهب إلى السينما لأول مرة فى حياته حسب وهمه !

وفى ذلك الوقت كان محرراً فى جريدة « الأساس » وذهب إلى سينما « ستراند » الصيفى وكان الفيلم هو « غراميات كارمن » بطولة « ريتا هيوارث وجلينى فورد » .

وأحس « أنيس » بدهشة شديدة وفرحة غامرة ونشوة ممتعة لرؤيته لأول فيلم فى حياته . . مما جعله يكتب عن هذا الفيلم بحماس شديد وشرع يستخلص منه معانى فلسفية لا أول لها ولا آخر . . حتى مل الناس كلامه عن هذا الفيلم ولكنه لم يجد فيما يقوله مللا !

فقد رأى فيه كل شىء جديداً رائعاً مثيرًا للدهشة والإعجاب . . الأضواء والأصوات والناس وريتا هيوارث . . تلك الغجرية التى جعلته يقرر – بعد ذلك بخمس سنوات – زيارة كهوف الغجر فى أسبانيا ليرى كيف يعيشون .

ومن السينما تسلل إلى الملاهى الليلية . . كل ليلة يذهب إلى مكان وهو مبهور وخائف فى نفس الوقت من أن يراه أحد . . كان يجلس فى الملاهى الليلية فى المقاعد الأمامية لا يشرب ولا يأكل ، ولا يتصور أبداً أن الناس يذهبون إلى هذه الأماكن

لشيء آخر غير الفرجة . . واستوحى من هذه الجلسات العديد من القصص والقصائد والمواقف المسرحية . . وكم تأثر وبكى أيضًا على أشياء لا يبكى عليها أحد . .

وكلما كان ينظر إلى راقصة ، ويرى الأضواء تتلون على جسمها ، وينظر إلى عينيها يجد شيئًا آخر غير الذى يراه الناس . . ربما كان جسمها مثيرًا ، ولكن كان يتخيل – بشعوره المرهف – أن فى عينيها دموعًا . . وينظر لها على أساس أنها تؤدى دورًا فقط . . أى أنها لا تجد متعة فى هذا العمل الذى تقوم به كل ليلة ، فقد كان يؤكد لنفسه كل ليلة أن هؤلاء الناس يكذبون ليعيشوا . . ويتعرون ويتعذبون بالثمن . . فهذه اللحوم الملونة ستصبح صفراء باهتة آخر الليل . . وستأكلها أفواه مخمورة . . هكذا كان تفكيره ولم تسعده هذه الملاهى . . وإنما ملأت نفسه بالحزن والأسى والمرارة ، وشعر أن هذه أسواق علنية للرقيق الأبيض ، وتوقف عن التردد عليها ، لأنه شعر بنوع من الإحساس بالذنب ، أو الشعور بالخطأ الدفين ، فقد تحول إلى شيء مر على لسانه ، لعله نابع من تربيته الصارمة ، وتكوينه الفكرى ، ونشأته فى وسط دينى ، فقد كان طفلا مخنوقًا مكبوتًا خائفًا دائمًا .. ولابد أن هذا الإحساس بالخوف هو الذى منعه من الشعور بالمتعة فيما يشاهده .. فقد كان يبرر لنفسه ولغيره أنه على الرغم من وجوده فى الكباريه ، نادم على ذلك .. فإنه قرفان مما يرى ومشفق على كل فتاة يراها ..

ثم تردد على المسارح وأدمن مسرح الأوبرا وتعرف هناك على « سليمان نجيب ، وصلاح ذهنى ، والشاعر الأديب عبد الرحمن صدقى » وغيرهم .

وسافر إلى أوربا ورأى مسارح الإغريق فى أثينا ، ورأى مسارح الرومان فى روما ، ووقف ساعات فى مسرح كراكالا ، ورأى مسرح الأوبرا فى باريس ، وقاعة البرت فى لندن ، وتفرج على مهرجانات الموسيقى فى سالزبورج بالنمسا ، وتفرج على مهرجانات الموسيقى فى ميونيخ وهامبورج وبرلين فى ألمانيا .

وأمضى أيامًا فى كهوف وخيام الغجر فى أشبيلية وطليطلة ومدريد بأسبانيا ، ورأى المسرح الصينى فى جاكرتا ، ورأى مسرح الكوكوساى فى طوكيو ، ورأى مسرح السوق الدولية فى هونولولو ، ورأى هوليوود مدينة السينما .

وأصبحت المسارح جزءا من حياته الفكرية ، لابد أن يقرأها وأن يترجم بعضها ، وأن يتفرج عليها ، وانتقل من الفرجة إلى الكتابة عن المسرح وعن الأفلام وعن الموسيقى والغناء .

أما الغناء ، « فلأنيس » معه قصة طريفة تستحق أن تروى . .

فقد كان منذ طفولته المبكرة مفتونًا بكل صوت جميل . . وكان يتتبع الفلاحين فى الحقول . . وكانت وظيفة والده فى ذلك الحين «كمفتش زراعة » تمكنه من استدعاء أى عامل فى الحقل ويطلب إليه أن يغنى . . وكان « أنيس » لا يعرف ما الذى يقوله الفلاح بالضبط ، ولا يعرف كيف يردده ولكن « أنيس » كان يجد سعادة لاحد لها ، واستطاع أن يحفظ عددًا من المواويل الريفية ، وأغانى الأفراح فى محافظات الدقهلية والبحيرة والغربية ، حيث أمضى فيها جميعًا كل سنوات طفولته . .

وبدأ « أنيس » يغنى بصوت مرتفع وشجعه والده على أن يغنى أمامه ، ومعه ، وكان صوت والده جميلا ، خاصة أنه كان شاعرًا فحفظ « أنيس » كل شعره .

وفى تلك السن عرف « أنيس » الخوف . . الخوف من الناس ومن الأمس ومن الموت ومن المرض ومن الفقر . . وقد حدث فى إحدى المرات أن كان « أنيس » يركب « النورج » وكان يجلس إلى جواره شحاذ ريفى ظل يغنى ويغنى « وأنيس » مبهور بغنائه حتى سقط تحت عجلات النورج ، وصرخ «أنيس » فتوقفت الأبقار المرهقة عن الحركة وهرب الشحاذ خوفًا من والد « أنيس » ومن أهل القرية . . وتمزقت ملابس « أنيس » وسالت الدماء من رقبته !

وبعد ذلك بعد أن التحق « أنيس » بمدرسة المنصورة الثانوية واستمع إلى الراديو ، تعلق بصوت الموسيقار محمد عبد الوهاب . . ولم يكتشف إلا فيما بعد أن حبه لعبد الوهاب ، كان أعجابًا بأسلوبه فى التعبير ، ومقدرته على البلاغة فى الأداء .

وحفظ « أنيس » كل أغانى عبد الوهاب ، وأم كلثوم ، ثم عرف بعد ذلك الموسيقى الكلاسيكية ، وعشق الموسيقى الغربية ، ومازال « أنيس » يحب الصوت الجميل ، فى الكلام والغناء والأداء والتمثيل . . فمعظم حواسه فى أذنه !

دروس تعلمها من الحياة

ولكن ما هى الدروس التى تعلمها « أنيس منصور » من تجارب الحياة ؟! فى مطالع رجولته أجمل الدروس التى تعلمها من التجارب التى مر بها ، فماذا قال ؟ قال « أنيس منصور »[1] .

« كانت الحياة بالنسبة لى تجربة كبرى خضتها وحدى بلا رفيق إلا الكتب والسهر ، لم أحس بفورة الشباب إلا بعد أن تخطيت العشرين وأصبح فى عينى جواز المرور إلى الحياة العملية ، وفى رأسى عشرات التجارب التى أحسست بمرارتها ، ولكنها كانت طريقى إلى النجاح » .

وكان نجاحى الدائم فى طفولتى وصباى ، حديث أساتذتى وزملائى وكل زائر يفد إلى مدرستنا بالمنصورة ، كنت دائماً أول فرقتى ، ولم أكن أعرف فى حياتى إلا المدرسة والكتاب والسهر إلى ساعة متأخرة من الليل ، أعد دروس الغد .

وحدث فى هذه الفترة ، وكنت فى السادسة عشرة طالباً بالمدرسة الثانوية أن أحسست بأن هناك من يطاردنى ويتبع خطاى ، وكانت فتاة رأيتها فى أول يوم ولم تلفت نظرى ، وهى دائماً ورائى ، وأدهشنى ذلك ، ولكنى لم أكن أعرف لتصرفها هذا تبريراً .

وفى يوم تبعتنى أيضاً واقتربت منى ، وقبل أن تفتح فمها كنت قد أهويت عليها بصفعة حادة ، وتركتها تبكى دون أن يعنينى ذلك ، ومرت أيام وعرفت أنها جارتى ، وعرفت أكثر أن هذه المطاردة كانت حباً ، وكانت أول معرفتى بالحب ، معرفة فقط ، فلم « أطب » ، فقد كنت « غرقان » لشوشتى فى حب الكتب !

* * *

وتجربتى الثانية كانت أيضاً وأنا مازلت طالباً بالمدارس الثانوية ، كنت فى السنة الرابعة يوم أعلن عمن يرغب فى دراسة مزيد من اللغات فوق الإنجليزية والفرنسية ،

---

(١) الاثنين والدنيا ٦ إبريل ١٩٥٩ .

وكنت الطالب الوحيد الذى تقدم للدراسة ، وبدأت فى دراسة اللغة الألمانية والإيطالية بجانب اللغات المقررة ، بدأت الدراسة بشغف ، ولو أن الكتب وأثمانها الباهظة وقفت حجر عثرة فى طريقى .

ولم أجد من مصروفى الضئيل ما يسد أثمانها ، فبعت كتب المدرسة واشتريت بها كتب الألمانية والإيطالية ، ولن أنسى ما حييت ليالى الشقاء التى عانيتها وأنا أمضى الليل أحفظ درسى حتى أرد كتاب الصديق إليه فى الغد . كم ضاقت الدنيا فى وجهى وأنا أدور على منازل أصدقائى استعير كتبهم ، ولكنها كانت تجربة العمر فى حياتى ، لم أندم قط على ما فعلت فقد أصبحت أتكلم الألمانية والإيطالية كأبنائها ، وشجعنى ذلك على أن أدرس غيرها من اللغات .

لقد علمتنى هذه التجربة أن الحرمان والصبر والعزيمة تحقق دائماً الأمل المنشود .

* * *

وتجربتى فى الجامعة علمتنى كيف أواجه الحياة العملية ، وأعامل من أحتك بهم من الناس .

كنت طالباً فى كلية الآداب ، ومازال حبى للدراسة هو همى الوحيد ، أحببت فى هذه الفترة مستشرقاً ألمانياً كان يدرس الأدب القديم ، أعجبت به . . لست أدرى لماذا ، فقد كنت الطالب الوحيد الذى يقبل على درسه ، والطريف أنه كان لا يلقى محاضرته إلا فى المدرج الكبير ، برغم أنه يعلم أننى الوحيد الذى أحضرها ، فقد كان يصر أن ننتقل من حجرة الدرس الصغيرة إلى المدرج ، وكان صوته يجلجل فى أثناء الشرح وكأن فى المدرج ألف طالب ، يدق بعنف على الدرج أمامه ، ويروح ويغدو منفعلا فى شرحه ، وأنا أقبع وحدى أمامه إلى أن تنتهى المحاضرة ، فأحمل كتبه ورداءه الجامعى إلى أن يصل إلى حجرته .

وانتهى العام وأراد الأستاذ أن يكافئنى على مواظبتى على حضور محاضراته ، فأراد أن يعقد لى امتحاناً شفهياً خاصًّا ، وكم كان أسفه يوم أن علم أننى لست من طلبة القسم الذى يدرس له !

وشد على يدى ومرارة المفاجأة تمترج فى صوته وهو يشكرنى ، وانتهت دراستى وصورة أستاذى الألمانى لازالت عالقة بذهنى ، لقد علمنى أن الترفع عن الطلبة والحاجز الذى أقامه بينه وبينهم ، كانا السبب فى عدم إقبالهم على درسه ، فكانت تجربة علمتنى أن أكون قريباً من طلابى مع احتفاظى باحترامهم ، وعلمتنى أيضًا أن أجعل الأدب – وهو قريب إلى النفس – طريقى إلى تدريس الفلسفة ، فعشقت الأدب ودرسته ، والأدب قريب من الصحافة ، وهذا هو سر حبى لها ثم تفرغى بعد ذلك لها !

* * *

وتجربة شبابى عندما أحسست به ، تجربة ندمت ولم أندم عليها ! وكنت سائحاً أجوب مواطن الجمال فى إيطاليا والتقيت بها ، كانت أيطالية رائعة تخرجت فى الجامعة بعد أن درست الفلسفة ، وأصبحت قريباً منها حتى أننى عرفت كل شىء عن حياتها وتكرر اللقاء أربع سنوات متتالية وحالها لم يتغير ، كانت مخطوبة لقريب لها طيار فقد أحد ذراعيه فى معركة ، أحبها بجنون وأوصى لها بكل ما يملك – وكان ثرياً – عربوناً لحبه ، ولكنها لم تبادله شعوره ، كانت تنفر منه وهى تحس أنها بعيدة عنه بآرائها وميولها .

واعترضت طريقها وأحبتنى ، أحبتنى حباً كاملا لم أشعر به ، كنت أحسبها عابرة سبيل فى حياتى ، كما أنى عابر سبيل فى حياتها ، وفوجئت بها تزورنى وتعرض على حبها وتمنياتها أن تعيش فى القاهرة زوجة لى ، ولم أعرف كيف أتصرف .

واندفعت بنزق سميته وقتها صراحة ، أنبأتها أنه من المستحيل أن أتزوجها ، فأنا أحرص عليها ولاأحب أن تفجع فى حبى ، فلم أحس أننى أطيق أن أكون زوجاً ، وتقبلت ردى فى صمت ، وعادت إلى خطيبها الذى تكرهه ، تزوجته ورحلت عن روما ، وتاهت منى فلم أعثر عليها عندما سافرت برغم استعانتى برجال الشرطة فى البحث عنها . كنت أريد فقط أن أقول لها « متأسف » على وقاحتى . على غلطتى فى رفضى لحبها ، ولكنى لم أجدها ، ومازلت نادماً إلى الآن ، ولكنها تجربة علمتنى أن « الصراحة وقاحة » ولا أقول فى معظم الأحيان ، بل فى كلها . فيجب أن تغلف

الصراحة بغلاف رقيق يخفف من قسوتها .

* * *

والتجربة التى حددت طريق فى الحياة كانت مقلباً لم أعرفه إلا بعد أن « شربته » إلى آخره ، كان ذلك فى عام ١٩٤٧ ، وكنت قد تقدمت لشغل وظيفة مذيع بالإذاعة ، واجتزت الاختبارات الأولية بنجاح ، وبقى الاختبار الأخير حتى أحقق حلمى فى أن يتردد اسمى على أسماع الملايين ، وقبل أن يأتى دورى ، وقف زميل لى فى الامتحان ، وكان محرراً فى الإذاعة ، يلقى إلى ببعض الإرشادات وكانت نصيحته الأولى أن أخفض من صوتى قدر استطاعتى ، لأن حساسية « الميكرفون » سترفع منه ، ونفذت ماأمرنى به ، وسقطت فى الاختبار النهائى ، وكم تألمت يومها ، وعرفت بعد ذلك أن هذه النصيحة لم تكن إلا مقلباً من الناصح ، فقد كان يتوق لشغل وظيفة « مذيع » وكان يخشى منافستى ، ولكنه سقط أيضاً فى الاختبار .

« إننى لاأندم الآن على هذه التجربة بل إننى أشكر صاحب المقلب من حيث لايدرى ، وأشكر الظروف التى دفعته إلى طريقى ، والا لكنت الآن مذيعاً يشغل وقتى عمل متصل ، يبعدنى عن حبيبتى الأولى والأخيرة « الكتب » .

إيمـانه
رحلته من الوجودية إلى طلع البدر علينا

بدأ « أنيس منصور » حياته الفكرية بالتمرد . . وكانت بدايته الفكرية كتاب « الوجودية » التى اتخذها فى مطالع الخمسينيات فلسفته وطريق حياته وهدفه أيضًا . . وقد اتخذها فلسفته فى فترة ضياع وتمزق ومرارة كان يمر بها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ككل جيل هذه الفترة .

والفلسفة الوجودية لاترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود ، ومن ذلك ترى أنها تفقد ميزة المرونة ، ذلك أن الفلسفة التى تجعل الوجود قائمًا على صورة مثالية ، تجعل للمشاكل حلولا لأن الحل هو الرجوع إلى الأصل ، ومحاولة العودة إلى الصورة المثالية للشىء الكائن إذا حدث تحول أو انحراف عن طريق السير نحو استكمال الكائن .

إذن فالوجودية لاتربط الإنسان بغير شخصه : ذاته . . . وجوده ، لاتربطه بفكرة مثالية سابقة أو تقيم له صورة للإنسان الكامل أو الفاضل يجاهد أن يحققها فى نفسه ، فهى بذلك تنحرف عن طريق الفلسفة المثالية ، وعن طريق الأديان كلها إذ تنهض تلك الأديان على أساس التسامى الدائم بالإنسان إلى المثالية . . إلى صورة الله[1] .

فالفلسفة الوجودية هى فلسفة الذات الإنسانية المتفردة دون ارتباط بغيرها من الذوات .

وقد اكتشف « أنيس منصور » بعد فترة استغراقه فى تلك الفلسفة الذاتية الأنانية عقمها وفرديتها وعدميتها بعد أن اكتشف هذا الطائر المنفرد المحصور فى ذاته ، أنه أصبح قلقًا من أجل مصيره فهو مجذوب إلى ذلك المستقبل الغامض الذى اختار بمحض

---

(١) محمد لبيب البوهى / الوجودية والإسلام / ١٩٦٠ / ص ٨ .

إرادته الذاتية أن يطير صوبه ، ولكنه لايعرف أين ومتى وكيف سيجده ، فهدفه الوجودى يسبقه دائماً وهو يطير نحوه . . نحو فكرة ذاتية يسير خلفها دائماً وهو أبداً مطيع مخلص ، ويمكن التعبير عنها بأن أهواء النفس تسبق صاحبها ، ووجوده الذاتى يتابعها لتحقيق أهدافها ، مهما كانت هذه الأهداف المعلقة أمام عينيه على بعد منه ، كلما اقترب منها ابتعدت فتابع صوبها المسير ، ولن يلتقى بها أبداً ولن يعدل عنها[١] .

بعد أن اكتشف « أنيس منصور » ، عقم الوجودية بسبب عدم احتفالها بالإنسانية لتمجيدها للغرائز ومباركتها لها بالإضافة إلى صدامها مع المنطق والعقل والدين ، لأنها تقوم على أسس منهارة تؤدى إلى الانحراف عن الجوهر الإنسانى ، فلا يمكن للإنسان أن يعيش حياته كلها عدواً لله وللعقل ، ولأنها دعوة ليست إيجابية تجعل الناس فى شغل دائم بذواتهم الفردية ، وتحملهم على الحقد على كل عمل جماعى ، فهى إذن فى مجموعها حركة رجعية مدمرة ، ولذلك تراجع عنها « أنيس » ووصف لنا تجربته معها فقال[٢] :

« كانت الوجودية على مقاسى الفكرى » . . ولكن يظهر أنها ضاقت أو تمزقت . . أو كبرت عليها ، أو أنها تحاول أن توقف نموى .

لقد ظهرت الفلسفة الوجودية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية تعبر عن اليأس والقلق والخوف من الموت . . . والخوف أن يضيع الإنسان الفرد فى زحام الجماهير . . . وكانت الوجودية طريق نجاة لرجل غارق وانتشلته بعد ذلك إلى الشاطئ . . . وكان الإيمان بها نوعاً من الامتنان لها .

« وكانت الوجودية تدعو إلى أن يشعر الإنسان بأنه حر . . وحر جداً . . وأن يرفض أن يدوس أى إنسان آخر على طرف حريته . حر فى أن يعيش وفى أن يرفض الحياة . حر فى أن يكون رجلا أو يرفض هذه الرجولة . أن يكون مؤمناً أو كافراً . ولكن هذه المشاعر أوجعت القلب والرأس معاً . ولم تقدم لنا حلولا . وإنما

(١) المرجع السابق / ص ١٤ ، ص ١٢٥ .

(٢) مأمون غريب / أنيس منصور / حياته وأدبه / ص ٩١ .

عرضت علينا خريطة دقيقة للسفر إلى بلاد كثيرة . ولكن لم تسمح لنا بالسفر . عرضت علينا قائمة طعام دقيقة أنيقة ومخيفة أيضًا : ولكن لم تقدم لنا أى طعام . وإنما عمقت عندنا الشعور بالجوع . والشعور بالتخمة ، ولكن لاطعام هناك !

ولابد أن نسمع عن الطعام وأن نراه ، ولاعلى أن نسمع عن الطعام ولانراه ، ولايهم أن نذوقه ، ولكن يظهر أن الفلسفة الوجودية قالت ماعندها . . وقرأنا ماقالته . . وكتبت عنها ولها . . ثم كتبت ضدها . وعن إيمان عميق وربما كنت الوحيد الذى هاجم سارتر عندما جاء إلى القاهرة وجاهر بموقفه المتميز لليهود .

ولما أحس سارتر أن فلسفته قد ارتطمت بالحائط . . حاول أن يتسلق الجدران إلى أكثر المذاهب الفلسفية انتشارًا ورسوخًا : الاشتراكية ! فحاول أن يعقد زواجًا سعيدًا بين الوجودية والماركسية ، بشرط أن تقوم الوجودية بدور المرشد السياحى إلى العالم الاشتراكى ، وينتهز المرشد هذه الفرصة ليقوم بتصحيح بعض المعلومات والمفاهيم الفلسفية . . لكن هذه المحاولة هى تزوير لشهادة الميلاد ومحاولة جديدة لكى تبدو الوجودية أصغر سنًّا وأكثر شبابًا ، وأطول عمرًا أيضًا . . فإذا كانت الوجودية قزمًا والاشتراكية عملاقًا ، فإن القزم يبدو أكثر إذا ركب كتفى العملاق . .

ولكن يبدو أن هذه المحاولة فشلت أيضًا !

ومن المؤكد أن الوجودية هزت عقلى . . وحركتنى وأطلقتنى وأطلعتنى على تجارب نفسية وعقلية كثيرة . ووضعت المرارة على شفتىّ ، واليأس على نفسى . . وأفقدتنى الكثير من نعيم هذه الدنيا .

« وأعتقد أن الوجودية كانت ريشًا فى جناحى . . وأننى غيرت ريشى . . وأننى كنت أفضل الطيران على المشى على الأرض . . ولكننى الآن أمشى على الأرض وأتلمس الجدران والإنسان . . وأتوجه لنفسى وللجميع » .

أى أن « أنيس منصور » اكتشف أنه يشبه البطل الإغريقى « سيزيف » الذى حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجرًا إلى أعلى الجبل . . . فإذا بلغ أعلى الجبل تدحرج الحجر إلى السطح ، فيرفعه من جديد . . وإلى الأبد !

فهو يعلم أن هذا هو مصير . . ويعلم أنه لانهاية لرفع الحجر ، ولانهاية لسقوطه . . ومع ذلك يرفعه ولايتوقف !

فإذا كان « أنيس » قد استغرقته الفلسفة الوجودية فى مطالع شبابه فى فترة تمزق وضياع وحيرة كان يمر بها جيله كله . . جيل مابعد الحرب العالمية الثانية ، فإنه لم يلبث أن أحس أنها لاتناسبه . . فتمرد عليها ورفضها وكان لابد أن يبحث عن البديل . .

وكان البديل هو الطريق الحق . . . طريق الهدى والرحمة والنور والإنسانية !

لقد اتجه « أنيس » إلى الله . . بعد أن قرأ ماكتبه الدكتور « محمد حسين هيكل » عن الرسول الكريم « سيدنا محمد» صلى الله عليه وسلم وماكتبه العقاد . . وماكتبه طه حسين .

كل واحد حاول أن يجد طريقًا مريحًا إلى المعنى الذى يريده . . الدكتور هيكل ، حاول أن يعرض قضيته وأن يدافع عنها . . والعقاد حاول أن يعرض نفسيته وعقليته وأن يجلوها وأن يقنع بها . . وطه حسين حاول أن يجد قصة . . حكاية . . يسهل عليه روايتها ، ويمتع الناس إذا تحدث عنها . . .

ويبقى الرجل كبيرًا عظيمًا لانعرف من أين نأتى إليه . . الطرق إليه كثيرة جدًّا . . ومتشعبة ومتداخلة . . ومضيئة حتى لاتقدر أن تطبق عينيك . . والذى قاله لؤلؤ وماس وأحجار أخرى كريمة . . ولاتعرف كيف تصنع منها عقدًا أو قرطًا أو خاتمًا . . ولاتستطيع أن تدع شيئًا ، ولاتقوى على أن تأخذ كل شئ . . إنه شخصية باهرة . . كيف استطاع كل ذلك وحده . . . كيف واجه الظلام بالنور ، والضلال بالهدى ، والقوة بالحق ، والعذاب بالرحمة ، والهوان بالإيمان !

«كيف هاجر من مكة . . كيف خرج منها ليعود بعد ذلك فاتحًا لها محطمًا أصنامها . . منظمًا فوضاها »(١) .

كان ذلك بداية إيمان أنيس منصور العميق واتجاهه القوى إلى الله . . كان انبهاره بشخصية الرسول وإعجابه بصبره وإيمانه ورسالته الضخمة نقطة التحول فى حياة

---

(١) أنيس منصور / طلع البدر علينا / ص ١٧٠ .

وفكر فيلسوفنا المتمرد ، من الوجودية بعدميتها وفرديتها وأنانيتها إلى نور اليقين والهدى والرحمة .

ويصور لنا « أنيس منصور » فى كتابه النفيس « طلع البدر علينا » ، تجربته مع الإيمان بعد أن طاف طويلا بأودية الشك والحيرة والقلق ، فيقول[1] :

الآن فقط عذرت كل الذين انفتحت لهم (طاقة القدر) ، وأتيحت لهم فرصة العمر أن يطلبوا من الله شيئًا ، ولكن الصدمة الباهرة أفقدتهم القدرة على النطق . أو القدرة على أن يرغبوا فى شيء وأغلقت أمامهم ، وفى وجوههم ، ودونهم (طاقة القدر) ، وأظلم كل شيء ، ولم يتحقق لهم شيء.. لأنهم لم يطلبوا شيئًا .

وعذرت الذين كسبوا المليون جنيه ، ثم ماتوا من شدة الفرحة ، كأنهم خسروها لا كسبوها .

« إنها إذن – المفاجأة التى لاتقوى مشاعرنا على مواجهتها ، أو الوقوف أمامها ، أو الصمود الوجدانى لها » .

إننى أحاول أن أصف شعورى ، وقد تهيأت للحج ، وأحرمت ، وتعريت ، وتجردت ، وأحسست ببرودة النهار والليل ، وخفت من كل أمراض الدنيا ، وأعددت لها كل مااخترعه الطب الحديث ، وعلم النفس القديم .

وأقمت من نفسى درعًا من لحم ودم ، ودرعًا آخر من الإرادة واللاإرادة ، حتى لاأنهار جسميًا ومعنويًا .

إننى كالذى يريد أن يقفز قناة واسعة عميقة ولذلك يحاول أن يتراجع إلى الوراء قبل أن ينطلق فوقها .

ثم يصور لنا فى دقة كيف كان تأثير هذا الإيمان فى نفسيته وحياته وفى فكرة فيقول : « إننى لاأدعو إلى دين جديد . . إنما إلى إحساس جديد بالدين . . كأننى كنت نائمًا وصحوت على ضوء الفجر . أو كنت ساهرًا فامتدت ملايين الأصابع تهدئ كل ماهو نافر ناشز فى رأسى وفى قلبى .

---

(١) أنيس منصور/طلع البدر علينا/١٩٧٥/ص٧ .

ماذا جرى لى ؟ ماالذى جرى فى داخلى ؟ من أين جاء الماء ينساب عذبًا رقيقًا . . أهى الأحجار ذابت ؟ فتحولت مجرى ونهرًا . . أهى الحياة انطلقت ضياءً . . ماالذى أضفته إلى نفسى ؟

«إننى أضفت قلبى إلى عقلى..أضفت نفسى إلى نفسى..لقد انضم مجراى إلى محيط هادئ عميق . . أو إلى الهدوء العميق . . أو الأعماق الهادئة ، أو إلى الشيء الكبير الجليل وراء هذه الأشياء الصغيرة . . إلى هذا الصفاء الدائم .

لكأن شيئًا قد سقط عن عينى أو هما العينان قد سقطتا . .

فأنا أرى بغيرهما أوضح وأعمق وأصدق ، ولاداعى ، إن كل شيء أصبح واضحًا . . وإنما الواضح قليل . . وأنا أحاول أن أجعله كثيرًا . لعل راحتى أن تطول ، ودنياى أن تكون خيرًا للناس وسلاما علينا جميعًا .

إننى فقط أحاول أن أضع أصابعى المرتجفة على الذى أراه بعيدًا ولاألمسه . . والذى ألمسه قريبًا ولست على يقين منه ومنى . .

إننى أتلمس طريقًا طويلا عريضًا عميقًا غريقًا بين قلبى وقلوب الناس وقلب الكون – لعلى ولعلهم » . .

* * *

وبعد ، فإن « أنيس منصور » مر برحلته الطويلة من الوجودية إلى طلع البدر علينا بأشواك وصخور كثيرة حيرته وعذبته وأضنته طويلا ثم اكتشف أخيرًا أن النور الأبدى هو الله ، وأن الإسلام هو أكثر الأديان تجريدًا . . وأن الرسول الكريم هو نبى الرحمة والإنسانية ، جاء برسالته العظيمة السمحاء للبشر كافة ، فكان بحق خاتم الأنبياء والمرسلين !

الفصل الرابع

فيلسوف المرأة الساخر

هل هو عدو المرأة ؟

فى ضوء كتابات « أنيس منصور » الغزيرة عن المرأة وقسوته عليها أحيانًا هل نستطيع أن نستخلص أن له موقفًا محددًا منها ؟ أو بالأصح هل نعتبره عدوًّا وخصمًا للمرأة ؟ .

أو بمعنى أبسط هل نعده من المحترقين بنار المرأة فصب جام غضبه وسخطه عليها وعلى جنسها كله ؟

إذا رجعنا إلى المراحل التى مر بها « أنيس منصور » وتتبعنا مسار حياته ، لم نجد صدمات قوية أو عنيفة من المرأة أو بسببها ، تستحق أن يتخذ منها موقفًا قاسيًا عنيفًا يجعل البعض يطلق عليه لقب « عدو المرأة » ؟

إننى أستطيع أن أستخلص من خلال قراءاتى لكل ماكتبه فى هذا الباب ، ومن تتبعى للمراحل الوجدانية والنفسية والعاطفية التى مر بها أن أقول : إن هذا الموقف من المرأة ، هو موقف فلسفى أكثر منه موقف وجدانى ، يذكرنا بموقف أستاذه العقاد ، وموقف العديد من الفلاسفة والمفكرين الذين وجهوا سهامهم الفلسفية والفكرية إلى المرأة !

« فأنيس منصور » مثلاكان يحب أمه حبًّا عميقًا عارمًا يذكرنا بحب المازنى لأمه كما سبق وذكرنا . . وهو أيضًا لم يتلق صدمات حادة من المرأة أو بسببها . . ولم يعانِ من غدر امرأة ، وتلونها بصورة تجعله يتخذ منها هذا الموقف ، بالعكس فإن حياة أنيس منصور عبارة عن كتاب يقروءه أو رحلات حول العالم يحولها إلى صفحات مقروءة . . . وإذا مر بامرأة أو أكثر فى تلك الرحلات أو فى حياته فهو مجرد عبور فنى يستلهم منه مادة فلسفية أو وجدانية لاأكثر ، ولم نلحظ أن هناك من مرت فى حياته بعمق ، وأثرت فى حياته وفى فلسفته فى الحب والزواج ، اللهم إلا السيدة زوجته التى

تزوجها بعد استقراره النفسى والوجدانى والفلسفى ، على شاطئ الحب والحنان والإيمان !

إن « أنيس منصور » لم يكن عدوًا للمرأة بالمعنى المفهوم ، بل نستطيع أن نقول إنه يتخذ منها موقفًا فلسفيًا أدبيًا ساخرًا لاأكثر.

فيلسوف المرأة الساخر

لقد ابتدع « أنيس منصور » لونًا فريدًا وممتعًا فى أدبنا المعاصر هو مايمكن تسميته بأدب الأقوال اللاذعة . . . وإذا كان هناك مايسمى بالأقوال المأثورة فى أدبنا العربى قديمه وحديثه فإن « أنيس منصور » قد تفوق فى هذا اللون من أدب الأقوال اللاذعة وتفرد به .

وقد استلهم هذا الأدب ، ووجه سهامه اللاذعة إلى المرأة ، أو صخرة سيزيف كما سماها !

وهو فى هذه الأقوال المأثورة ليس مجرد أديب يطلق سهام فلسفته اللاذعة على المرأة لمجرد السخرية والفكاهة فحسب ، بل إنه يضمن تلك الأقوال أفكاره وفلسفته ومواقفه ، وأحيانًا خلاصة تجربته مع المرأة ومع الحب بكل صوره وألوانه وظلاله .

إن هذه الأقوال تعكس فلسفة « أنيس » فى الحب ورأيه فى المرأة بطبيعة الحال ، وإن كانت فى هذه الأقوال بعض القسوة فإنها قسوة يغلفها لون جميل عذب من الفكاهة الحلوة والسخرية المستملحة !

وقد جمع « أنيس منصور » هذه الأقوال فى كتابه الممتع الفريد فى بابه فى أدبنا « قالوا » ، وكتب له مقدمة جميلة حاول فيها أن يشرح لنا سر هجومه على المرأة وقسوته عليها ، وتبريره لمثل هذا العنف الساخر أو القسوة الباسمة ، فكتب تحت عنوان « من الأرض للقمر » يقول[1] :

---

(١) أنيس منصور / قالوا / ط ٤ سنة ١٩٧٢ دار حراء / ص ٥ .

هذه الأقوال التى فى هذا الكتاب ليست إلا نوعًا من (الترتر) الشائك حاولت أن أزين بها جسم المرأة .

أو أنها خيوط من الحرير حاولت أن أشبكها بدبابيس لامعة على جلد المرأة .

وحاولت أيضًا أن أجعلها ملتصقة : فستانًا ممزقًا .

وحاولت أن أقلد المرأة فى حرصها على أن يكون فستانها هو « بشرتها » الثانية .

ونسيت أن « تمزيق » الفستان يوجعها ويؤلمها . . . بجسمها وقلبها وعقلها وطبيعتها ، تتردد ضحكات الكثير من الرجال .

ومن الدموع والضحكات ، ومن الصرخات واللعنات ، نسجت هذا الثوب الشفاف الذى يلسع ولكنه لايحرق . . .

وهذه العبارات تدل على رأى ...

ولاأدعى أن هذا الرأى صواب ، فلايوجد رأى صواب كله . . ولايوجد رأى خطأ كله .

ففيه الكثير من الصدق ، وفيه الكثير من السخرية .

فهذه العبارات ككل الثمار فيها حلاوة وفيها بذور وقشور .

وهى لاترضى المرأة كلها . . ولاتغضبها أيضًا . . فليس من السهل إرضاء المرأة ، وإن كان من السهل جدًا إغضابها » .

إذن فإن « أنيس منصور » يعترف بأن فى هذه العبارات قسوة على المرأة وأنا أرى أنها ليست كلها انعكاسًا لتجاربه مع المرأة ، بل إن فيها بعض ملامح من تلك التجارب بمدها وجزرها ، وفيها أطياف من تلك التجارب بألوانها البيضاء والسوداء والرمادية أحيانًا !

ولكن يغلفها أسلوبه الساخر الحاد الذى يجمع بين الكاريكاتير وعنف المهام الحادة !

وأحيانًا تكون أقواله فى رقة النسيم ، وهمس النجوى ، فما سر هذا التناقض الغريب ، وهذا التغير الحاد مابين الأبيض والأسود فى نظرته إلى المرأة والحب والزواج والجنس ؟

هل هو يعكس شخصية متناقضة غريبة ؟

أو هل يعكس نظرتين متناقضتين لشخصية واحدة مترددة بين الإعجاب والعداوة ؟

ليس هذا صحيحاً . . بل إن ذلك هو الطبيعي جداً . . فإن شخصية الإنسان تجمع دائماً بين كافة الألوان والأطياف . . فمرة يراها بعين الفيلسوف ، ومرة يراها بقلب الشاعر ، ومرة يراها بعقل الحكيم ، ومرة يراها بغريزة الرجل ، فنظرته للمرأة ليست واحدة ، بل هي تتغير حسب الظروف والأحداث والتجارب . . فمرة تكون المرأة بالنسبة لهذا الفيلسوف المتنقل بين الرياض والزهور نسمة ، ومرة تكون سوطاً لاهباً ، فمن هنا تجيء هذه العبارة أحياناً متغيرة بل متناقضة حسب تغير الطقس ، وحسب رضا المرأة أو غضبها . . وحسب تجارب كبار الفلاسفة وموقفهم من المرأة وموقف المرأة منهم !

ولكن كلها يغلب عليها طابع المبالغة والسخرية الحادة .

ولكن أنيس منصور يحاول تبرير ذلك بقوله[1] :

«وهذه العبارات التي في هذا الكتاب هي صورة كاريكاتورية .. » .

فيها مبالغة ولكن لها معنى .

والمبالغة في ملامح المرأة

وفي طبيعة العلاقة التي بينها وبين الرجل

فأنا أحياناً أرى المرأة بعين المرأة

وأحياناً أراها بعين الرجل

وأحياناً أغمض عيني وكأنما لاأريد أن أراها

أو كأنني أريد أن أراها بخيالي

لأنها في خيالي أجمل

ولأنها في واقعها أقل جمالا وأقل صدقاً . . .

---

(١) أنيس منصور / قالوا / ص ٦ .

ولأننا نلمس المرأة فى ظروف – عادة – غير عادية .

ويبرر لنا « أنيس منصور » نظرته الفلسفية أو تبريره الفلسفى لنظرة الأدباء والفلاسفة والمفكرين للمرأة ، وعذابهم الأبدى بالمرأة وقيود المرأة فيقول :

« ومن ضمن محاولات الرجل فى أن يتخلص من المرأة وعذاب المرأة وقيود المرأة : أن يكتب عنها وأن يضربها بالألفاظ الجارحة ، وأن يشنقها فى الموقف الصعبة فى مسرحياته وقصصه .

ولكن المرأة لم تقتلها الكلمات . .

فهذه الكلمات قد عاش بها الرجل ، لأنها هى جوهر الفن

حتى عندما يموت الرجل ، فإن الفن يعيش بعده ، فالفن أطول عمرًا من المرأة . .

ويمضى « أنيس » فى تبريره الفلسفى والفنى للعلاقة بين المرأة والرجل فيقول[1] :

« والرجل لا يدين للمرأة بشىء .. إلا بالنتائج العظيمة التى ترتبت على مقاومته لها ، وتحرره منها ، أى بأعماله الفنية !

ولكن الرجل يعلم ماهو أقسى من هذا ، يعلم أنه لاخلاص من المرأة ..

أو على الأصح يعلم أنه لاخلاص له من رغبته فى أن تكون له امرأة . .

أى لاخلاص من طبيعته . .

إن الرجل يشبه البطل الإغريقى « سيزيف » الذى حكمت عليه الآلهة بأن يرفع حجرًا إلى أعلى الجبل ، فإذا بلغ أعلى الجبل تدحرج الحجر إلى السطح ، فيرفعه من جديد . . . وإلى الأبد !

فهو يعلم أن هذا هو مصيره

ويعلم أنه لانهاية لرفع الحجر ، ولانهاية لسقوطه !

ومع ذلك يرفعه ولايتوقف

إن التاريخ لم يسجل لنا ماالذى قاله « سيزيف » وهو يصعد ويهبط . .

لانعرف كلمة واحدة مما قال . .

---

(١) أنيس منصور / قالوا ط ١٩٧٢ / ص ١٤ .

ولكن من المؤكد أنه كان يلعن الحجر ويلعن القدر . . . ويلعن طبيعته هو ، التى تعاند القدر ، وفى نفس الوقت تستسلم له

ولا أستبعد أن تكون كلمات « سيزيف » مثل هذه الكلمات التى جاءت فى هذا الكتاب !

إننى لم أسمعها منه ولاسمعها أحد

ولكننى أحسست . . .

وعانيت . . .

وعبرت . . .

« وشكرًا لصخرة البطل « سيزيف » : هذه المرأة ! !

قالوا عن المرأة والحب !

برر « أنيس منصور » وحلل سر سخريته المريرة من المرأة :

ذلك اللغز المجهول !

ومن أطراف الآراء التى أفصح بها عن خلاصة رأيه ونظرته وحيرته أمام ما يراه لغزًا مجهولا وهو المرأة ذاتها بكل أطوارها وتلونها ، تلك الأحوال التى روى بعضها عن كبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء ، وجاء بعضها الآخر انعكاسًا لنظرة « أنيس منصور » أو نظريته وفلسفته للمرأة والحب والجنس والزواج !

وهى أقوال تصور فلسفة كاتبنا فى المرأة والحب والزواج والسعادة والملل والعذاب . ومع المرأة !

* الرجل يحب اللعب والخطر . . ولذلك يحب المرأة !
* المرأة كالظل . . . تهرب منه يطاردك . . . تطارده يهرب منك !
* الحب لا يقتل المرأة . .. يقتل الرجل فقط !
* أمل الرجل أن يكون صلبًا كالجليد ، والمرأة أن تسيل وتتبخر كالماء !

* المرأة تجيد كل الفنون . . . ولا تتفوق فى واحد منها !
* الزوجة تريد أن تشترى كل شىء : لتثبت لزوجها أنه عاجز عن شراء أى شىء !
* التمساح يبكى عندما يأكل فقط . . والمرأة تبكى عند كل شىء !
* امرأة تجىء فى موعدها : امرأة مسترجلة !
* المرأة ترى كل شىء حسب قلبها !
* الضمير يولد فى قلب المرأة . . ويموت فى عقل رجل !
* الصداقة عند المرأة : حبيب أو عدو !
* أنت أسوأ رجل فى حياة زوجتك : هذا رأيها !
* الحب يقضى على كثير من الآلام ، لأنه أعظمها !
* الله خلقها غامضة ، ليحاول الرجل فهمها . . ولم يفلح !
* امرأة تقول أنا آسفة . . حالة نادرة ، ولا أصدقها !
* أنا لا أقول إن المرأة ليس لها رأى ، وإنما أقول أن لها رأياً « جديداً » كل يوم !
* الله جعلها جميلة ، والشيطان جعلها مثيرة !
* الكائنات الحية ثلاثة : الإنسان والحيوان . . والحموات !
* مهما كانت عظمتك فليس هذا رأى زوجتك !
* بالكلام يولد الحب ، بالسعادة يعيش ، وبالغيرة يموت !
* بين شفتى المرأة كل ما فى الدنيا من عسل وسم !
* خلق الله الأمهات ، وخلق الشيطان الحموات !
* عاش فى الجنة أعزب ، ونزل إلى الأرض بلا حماة : آدم !
* المرأة تخاف من كل شىء يقبل القسمة على اثنين !
* أعداء المرأة اثنان : الزمن ونفسها !
* نصيحة : لكى تصادق حماتك ، يجب أن تفقد أى أمل فى ذلك !
* المرأة تفتح قلبها بحساب ، وأذنيها بلا حساب !
* لو لم أكن متزوجاً لتمنيت أن أكون متزوجاً — هذه العبارة لم يقلها أحد !

* الطريق إلى النار مرصوف بألسنة النساء !
* انتقل من الخطبة إلى الزواج ، من العش إلى القفص !
* المرأة الحديثة تفهم كل شيء وكل إنسان . . إلا زوجها !
* أن تناقش المرأة معناه أن تناقش الماء والهواء والنار . . ولا نتيجة !
* المرأة تلهمنا أجمل الأحلام التى تحرمنا من تحقيقها !
* جذابة . . كذابة : هذه هى المرأة !
* حبيبتك تريد بعضك ، وخطيبتك معظمك ، وزوجتك كلك !
* بيت الزوجة مسرح : حماتك تقوم فيه بدور المخرج والمؤلف والملقن وأنت تدفع ثمن التذاكر !
* المرأة الجميلة : جنة لعينيك ، جهنم لنفسك ، عفريت لجيبك .
* الصحافة مهمتها البحث عن المتاعب . . وكذلك حماتك !

* * *

وبعد ، فإن هذه الأقوال تفصح عن مدى عمق تجربة « أنيس منصور » مع المرأة ، وتمرسه بالحب وتدل على رجل عركه الحب وتنقل بين رياضه من زهرة إلى زهرة ، مما ألهب أحاسيسه ، وأضرم عواطفه ، وصقل نفسه ، وجعله أشد قدرة على معرفة خبايا المرأة والتوغل إلى أعماقها وفهم أطوارها !

ومما ساعده على ذلك قدرته على دقه الملاحظة وتتبعه للتفاصيل والجزئيات ومشاعر نفس المرأة وتطورات عواطفها المتباينة !

كما أنه استعان فى كسب قضيته – بآراء وأفكار الفلاسفة والمفكرين الذين سبقوه وأكتووا بنار المرأة : ذلك اللغز المجهول أو صخرة البطل سيزيف كما يسميها !

ولكن هل ظل « أنيس منصور » على هذه الآراء الحادة نحو المرأة ؟

وهل ظل يطلق سهام سخريته اللاذاعة ، ومرارة تجاربه المخفقة ، وخلاصة آراء أساتذته أعداء المرأة نحوها ؟

لقد حدثت تطورات وتغيرات وجدانية ونفسية فى شخصية « أنيس منصور » جعلته

أكثر واقعية وأكثر نضجًا وفهمًا للمرأة ورسالتها وقيمتها . خاصة بعد أن تزوج فى مطالع عام ١٩٦٢ ، فأصبحت حياته أكثر استقرارًا وهدوءًا وطمأنينة وزاد إنتاجه الأدبى وأصبح أعمق وأكثر نضجًا .

ونستطيع أن نضع يدنا على ملامح تفكيره ونظرته الجديدة نحو المرأة من هذا المقال بعنوان « هل اختفى الحريم » والذى يشرح فيه نظرته إلى تطور المرأة ككيان مستقل حر ، حيث يقول فيه[1] :

لم يتفق الرجال على الصورة التى يحبون أن يروا فيها المرأة .

هل هى حواء العارية ؟ هل هى إيزيس الأم ؟ هل هى مدام كورى الباحثة ؟

هل هى مارلين مونرو الغانية الجميلة ؟ هل هى حتشبسوت المسترجلة ؟

وموقف الرجل من المرأة فى حياته وفى الحياة العامة ، نعرف ما معنى الحرية عنده .

والرجال فى مواجهة المرأة : إما أعداؤها ، أو خصومها ، أو أنصارها أو عشاقها ، وأعداء المرأة هم الذين لا يرون فى المرأة أية ميزة . ويرون أنها إنسان مختلف ومتخلف أيضًا ، أو أنها « رجل » هزيل ضعيف العقل .

أو أنها ليست من أصل إنسانى ، ويرون أيضًا أنها بتاريخها الذليل ، وتركيبها المعقد ، قد أدت إلى تشويش حياة الرجل ، وإلى تعويقه عن التطور . وأنها ليست إلا جنسًا فقط وإلا حيوانية تمامًا .

والفيلسوف اليونانى « سقراط » هو الذى استطاع أن يترك ظله العميق العنيف على كل الحضارة الغربية ، فقد كان سقراط « رجلا » دميمًا ولم يكن رجلا بالمعنى الحقيقى .

ولأن سقراط كان يرى أن المرأة هى حس فقط ، وجنس فقط ، فقد استبعدها من دنيا الحياة العقلية ، ورأى أن المرأة والجسد والحس شرور يجب أن يتخلص منها الإنسان ، ووراء سقراط وتحت تأثيره الهائل سادت الفلسفة والأدب والمسيحية أيضًا حتى يومنا هذا .

وإذا كانت كلمة (حريم) قد انقرضت من معظم دول العالم ، فإن المعنى نفسه

---

(١) أنيس منصور / من أول نظرة / ط ١٩٧٠ / ص ٩٣ .

لا يزال باقيًا فى عقول كثير من الناس فى بلاد أخرى .

وأمامى كتاب ضخم بعنوان (الحريم) للكاتب الإنجليزى (ب . بنذر) وهو يتسعرض كيف نشأ الحريم فى الدولة العثمانية ، أو على الأصح كيف اشتد سلطان الحريم فى الدولة العثمانية ، حتى كانت النساء هن اللاتى يحكمن أما السلاطين فكانوا غارقين فى الخمر .

ونظام الحريم قديم جدًا ، ولكن كلمة (الحريم) ومعناها فى اللغة العربية الشىء « الحرام » أو الشىء المحرم ، أصبحت خاصة بالدولة العثمانية وحدها . لأنه لم يحدث فى التاريخ أن أصبح مثل هذا العدد الهائل من النساء السجينات فى قصر السلطان ، سجينات فى الظلام والرطوبة والعطور ، وسجينات إرادة السلطان وأغوات السلطان .

وآخر السلاطين العثمانيين هو السلطان عبد الحميد الذى طرد سنة ١٩٠٩ ، وكان يحتفظ بأربعمائة جارية عشيقة ، وبمائتين من الخدم الأغوات السود والبيض ، ولم يعرف العالم الغربى حقيقة (نظام) الحريم إلا فى أوائل هذا القرن ، مع أن نظام الحريم السلطانى كان موجودًا ابتداءً من القرن الخامس عشر فى العاصمة التركية ، فمن أوائل القرن الخامس عشر لم يعد للسلطان زوجة شرعية ، وإنما السلطان كان لا يقامر بالزواج من فتاة قد تنجب له بنتًا ، ولذلك فهو لا يتزوج إلا الجارية التى تنجب له الولد ، فإذا انجبت الولد اتخذت لها لقبًا جديدًا هو (السلطانة الوالدة) وابن السلطانة الوالدة سوف تكون له مئات الجاريات ، والأم هى التى تختار لابنها العشيقات ، مئات العشيقات فإذا أنجبت العشيقة ولدًا ، تحولت إلى سلطانة والدة . فكل السلاطين العثمانيين هم أبناء جاريات .

والذين عشقوا المرأة والذين عادوها ، لم يقدموا لها شيئًا ينفعها فى تحررها من قيود الرجل ، بل إنهم جعلوا هذه القيود والصبر عليها وحب الذل والهوان ضرورة حيويه .

بل إننا نجد فى « ألف ليلة وليلة » دعوة واحدة إلى تحرير المرأة أو الإشفاق عليها ، لأن المرأة متاع لذيذ ، وهذا يكفى ، والملك سليمان عندما حبس فى قصره ألوف النساء لم يسمع منه كلمة حلوة واحدة عن حرية المرأة ، ربما كانت الفتاة (شالوميت) هى

أول امرأة تمردت على استعباد وإذلال الملك سليمان .

وأوضح صورة لالتقاء العشق والعداء للمرأة هى فى صورة (الحريم) ، أى فى جمع أكبر عدد ممكن من العشيقات فى مكان واحد ، وتربيتهن وترويضهن للقاء السيد صاحب الحريم ، سواء كان السيد شيخ قبيلة أو سلطانًا من السلاطين فالسلطان يرى أن المرأة متعة ضرورية لا يستطيع أن يستغنى عنها ، ولكنه فى نفس الوقت لا يحترمها ، ولا يرى لها أى حق ، فهى (شىء) مودع أو ملقى هناك ، وفى حالة انتظار مستمر لإرادة السلطان والذين يرون أن المرأة يجب أن تكون حريمًا ، هم أيضًا الذين يرون أن المرأة يجب أن تكون (هانم) . . أى أنثى أنيقة فى انتظار الجائع دائمًا : زوجها ! والذين يرون أن المرأة لا حقوق لها ، وإنما يجب أن تظل مربوطة فى ذراع زوجها يبيعها ويشتريها . ويشترط عليها أن تعمل أولا تعمل ، أن تبقى أو لا تبقى . وأن يعاقبها كما يريد ، وأن يرميها فى الشارع كما يريد ، وأن يجرجرها فى أقسام البوليس كما يريد ، كل هؤلاء ينظرون للمرأة على أنها حريم . . على أنها جزء من ممتلكات الرجل ، وأنهم بالزواج قد أناروا لها الطريق ، وأطلقوا حريتها بحساب .

ومن بين خصوم المرأة عندنا كان : العقاد ، وتوفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ .

* * *

وأنصار المرأة هم الذين يدفعونها إلى الحريه والعمل ، وإلى تحمل الأخطاء فى تجاربها الجديدة ، فالذى يعمل هو الذى يخطئ ، والذى يعمل هو الحر ، والحر هو الذى يتحمل مسئولية العمل . ومادامت المرأة حرة فلا خوف عليها إذا عملت . ويجب أن نحاسب الرجل إذا أخطأ ، دون أن نكتفى بحساب المرأة وحدها .

ومن أنصار المرأة كل المفكرين العلميين ، والاشتراكيين ، وفى مقدمة المفكرين الرواد طه حسين ، وسلامه موسى ، وإسماعيل مظهر ، ومعظم الأديبات طبعًا .

* * *

أما عشاق المرأة فهم كثيرون جدًا ، منذ أول إنسان قارن بين وجه المرأة والقمر ، حتى الرجل الذى قال : (تعذبنى برضه أحبك)، أو الذى قال «وتجيب خضوعى

حنين ولوعتى بين إيديك » ، حتى « أحمد رامى » ومعظم الشعراء الفنانين . وهم الذين يحرصون على أن تظل المرأة كتلة من اللحم الحى ، عروقها تجرى بالبنزين ، أنفاسها من نار ، والطريق إليها بالدموع والشوك ، وهى التى يجب أن تتعذب وأن تحب العذاب والهوان ، وأن تظل ألعوبة فى يد الرجل وتلعنه .

ولا فرق كبيرًا بين أعداء المرأة وعشاقها . فأعداء المرأة يرونها (شيئًا كريمًا) ، وعشاقها يرونها (شيئًا لذيذًا) ، ولا فرق بين أحمد رامى ، وبين مصطفى صادق الرافعى ، والفيلسوف سقراط .

« وإذا كانت هناك شرور فى المجتمع فليس سببها أن المرأة تركت البيت وذهبت إلى المكتب أو إلى المصنع . وإنما السبب هو أن الرجال لا يزالون مسيطرين على كل شىء ، وأن كوارث الدنيا تنبع وتنمو وتنفجر فى عقول الرجال وأيديهم .

وعشاق المرأة هم الذين يرون فيها ينبوعًا رائعًا للجمال والمتعة ، وأن الحياة بغير المرأة مستحيلة . وأن السماء قد أهدت البشرية حواء وبناتها ، لكى يكون أبناء وأحفاد ، ويكون حب .

بل إن النفس الإنسانية بها كنوز لا يمكن أن تتفتح إلا بأصابع المرأة وإلا باهتمامها ، فالله قد خلق المرأة لكى نحبها أمًّا وزوجة وإبنة . وإذا أقبلت المرأة فالحياة هى الجنة . وإذا ابتعدت فالحياة قطعة من العذاب ، وإذا كان لابد للإنسان أن يختار بين الراحة بغير امرأة والعذاب معها ، فإنه يفضل العذاب معها على الراحة مع عشرات الملايين من الرجال ، وإذا نحن جردنا الأدب والفن من المرأة ، لم يبق بين أيدينا شىء ، والأدباء والفنانون هم أكثر المخلوقات حساسية وأكثرهم إدراكًا للجمال ، وأقدرهم على التعبير وأبرعهم فى التسامى بالحرمان والشوق والحنين .

* * *

وأعداء المرأة فى نفس الوقت أعداء الإنسانية كلها ، وأعداء الحياة ، وهم عادة أناس مشوهون جسمياً وعقلياً أيضًا .

وخصوم المرأة هم أكثر الناس حياءً مع المرأة . وهم ينظرون إليها بعقل . والمرأة لا تحب أن ينظر إليها الإنسان بعقل ، لأنها لا تعرف إلا أن يكون الإنسان : عدوًا أو حبيبًا ولكنها لا تفهم أن يكون الإنسان عدوًا وحبيبًا . أو حبيبًا عدوًا . أو عاشقًا بتحفظ ، أوكارهًا بحساب ، ومع ذلك فقد استفادت المرأة كثيرًا من خصومها.

المرأة هي إما أن تكون أمًا . والأمومة هي العمل الإبداعي الوحيد الذى تنفرد به المرأة . أو الأنثى عمومًا .

والمرأة بطبعها لا تحب أن تستقل بنفسها . وإنما هي تعتمد على الرجل فى كل شيء . وليست لديها أية قدرة على الإبداع والمغامرة ، بل إن الأعمال التى تهم المرأة لم تتفوق فيها .

وعلى الرغم من أن المرأة تبكى بمناسبة ومن غير مناسبة . فلم تخترع المرأة علاجًا للبكاء ، ولم تؤلف مأساة واحدة خالدة ، ولأن تجربة المرأة العملية قصيرة ، فهى لذلك لا تصلح كثيرًا للأعمال خارج البيت ، ومكانها الطبيعى الخطير جدًا هو البيت . هو الأسرة ، هو أن تكون زوجة وأمًا .

أما أنصار المرأة فيرون أن المرأة لا تختلف كثيرًا عن الرجل بل إنها أقوى من الرجل جسميًا . وأقدر على احتمال الألم والمرض .

وهى أطول عمرًا من الرجل ، ولا يوجد أى فارق فى تكوين جسم المرأة ولا فى وظائفها العضوية ، وبقاء المرأة فى البيت تعطيل لطاقة هائلة يمكن أن ينتفع بها الإنسان . ولقد جربت الإنسانية طوال عشرات الألوف من السنين ، كيف تكون حياتها الاجتماعية والخاصة فى ظل سيادة الرجل وسيطرته ، فلماذا لا نجرب اشتراك المرأة مع الرجل فى الحياة الخاصة والعامة .

لماذا لا نجرب دخول العنصر اللطيف فى حياتنا العامة والخاصة ؟

ولماذا لا يكون اشتغال المرأة بنفس الشروط والظروف التى يعمل فيها الرجل ؟

والمجتمع الآن قد علّم المرأة وفتح لها كل الأبواب ، لا يمكن أن يكون المجتمع قد خسر شيئًا ، بهذا العدد الهائل من الأيدى العاملة . . وقد دخلت المرأة فى كل مجالات

العلم والعمل ، والفن والأدب ، والسياسة والإدارة » .

وعن نظرة أنيس إلى قضية المرأة والفنان يقول :

الفنان الحقيق هو ذلك الرجل العجيب الذى يتزوج « الفن » . فهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضًا (امرأة) ؟ . . .

هذا أمر اختلفت فيه الآراء . . ورأيي الشخصى أن هذا مستطاع . ولو أدركت المرأة أن حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغى أن تشابه أية حياة أخرى ، وأن حياتها ستبذل بلا ثمن لرجل بذل حياته هو أيضًا بلا ثمن !

نعم ، يجب أن تفهم زوجة الفنان ، إن كل حياتها ينبغى أن تقدم لزوجها الفنان ، وإن كل رسالتها فى الحياة أن تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها ينتج ويخلق ! . .

زوجة الفنان هى تلك التى تعنى بزوجها ، ولا تطالب زوجها بأن يعنى بها ! ..

هى : التى تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها .

هى : التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقًا بهمومها ! هى ذلك المخلوق الذى يعيش صامتًا صابرًا باسمًا بجوار الفنان طوال العمر ، دون أن يشعر لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ! . .

هى : التى تقف إلى جانبه دائمًا دون أن يفطن إلى أنها موجودة . . إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع الفنان ، هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة ! . . هى التى تستحق بصبرها وتضحيتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه ! . . هى التى تضع فى قلبها هذه الكلمة :

« إنما يعيش الفنان من أجل الفن . وتعيش هى من أجل الفنان » ! . .

أما خصوم المرأة فهم الذين يرون المرأة إنسانًا كالرجل ، لا شك فى هذا ، ولكنها مختلفة عنه فى تكوينها الجسمى والنفسى والتاريخى أيضًا . . وتاريخها القريب هو المسئول عن ضيق كتفيها وضيق أفقها . وإن أعظم عمل تقوم به حث أبنائها على حب المثل

العليا ، لقد كانت تجمعهم كل ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصًا لذيذة مما تطالعه فى أثناء فراغها ، تختاره من بين ذلك النوع الممتلىء بالبطولة الخلقية ، والفضائل الإنسانية ولم يكن أطفالها ، وحدهم هم الذين يلذ لهم هذه القصص ، بل زوجها أيضًا الذى يبكر فى العودة . . حاملا الحلوى ، ليصغى إليها مع الأطفال . . لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك الكلمة . . ولقد كانت المعينة لزوجها فى كل شىء الناصحة له فى كل أمر . . . إذا شذ يومًا عن نصحها ضل !

. . . لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول ، وذاقت معه مرارة الكأس وكان نصيبها ، أكثر من نصيبه . . أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها منه إلا بالقليل . . . وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل ، وتحب أن تحذق كل شىء يقع فى محيط حياتها . . .

لقد أدارت بيتها خير إدارة ، بل أدارت مزرعة زوجها خيراً منه ، يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل ، ولقد شاهدت أولادها يشبون على مبادئ الخلق القويم والرجولة الكاملة التى غرستها فيهم ، ورأت زوجها يختتم حياته السعيدة مرددًا اسمها مع النفس الأخير ، فعلمت أنها أدته على الوجه الأكمل ! . . .

وهذا ليس بالشىء القليل على هذه الأرض ! . . .

الأخرى تلك التى... تريد زوجًا لا كأغلب الرجال ، بل رجلا ذا رسالة عامة شاقة ، يكافح فى سبيل أدائها معرضًا حياته للنجاح والفشل ، وللسلامة والخطر . . . رجلا يعيش بمثل عليا ، يرجو أن ينير بها طريق ليس إلا عقدًا للانتفاع المشترك بين ذكر وأنثى ، وأن الذكر هو الأقوى وهو صاحب الحق ، وأن الأنثى هى الأضعف ، ويجب أن تبقى كذلك ، ويجب ألا تقوى الأنثى لأنها إذا قويت لم يصبح الرجل قويًا ، ومن المفروض أن يبقى الرجل قويًا ، بحق ومن غير حق .

ولكن أكثر الناس عداوة للمرأة هم لا شك عشاقها ، لأنهم ينافقون المرأة ، ولأن المرأة ضعيفه أمام الإطراء أمام الكلمة الحلوة والنظرة الحلوة ، ولا تزال المرأة تفضل

الرجل الذى يكذب عليها ، على الرجل الذى يصارحها ، وإذا استعان الرجال المنافقون بالشعر والموسيقى ، فإن هذا الكذب يذوب فى أعماق المرأة فتحب العذاب والهوان ، وتنسى أن الذى يجبه هو الأداء والغناء والكلام واللحن الموسيقىّ !

أما أعداء المرأة من رجال القانون والفلاسفة فأمرهم سهل ، لأنه يمكن مناقشتهم بالعقل ، فلا موسيقى ولا غناء ولا نفاق ولا كذب ، ولأنها معركة حامية بين رجال ، فهى معركة بالسلاح الأبيض ، وأساس المعركة : هل نحن كرجال نحترم إنسانيتنا أو نحتقرها ؟

. . هل نحن كرجال نرى أن الحرية من حقنا وليست من حق المرأة ؟

هل نحن كرجال نرى أن الكرامة حق للرجل ، والهوان حق للمرأة ؟

إن الذين يرون ربط المرأة بالرجل وتعليقها من كلمة من فم الرجل ، وتحويل المرأة إلى سلعة أو إحدى مستعمرات الرجل ، هم سلاطين عثمانيون يرون أن الرجل هو سلطان ، وأن المرأة هى الحريم ، وأن الحريم ذبيحة تأكل وتشرب وتتعطر ، وتتجمل وتزف كل ليلة إلى فراش السلطان .

أما حياة الحريم فهى انتظار لمشيئة السلطان .

ولكن هناك طريقاً طويلا قبل أن تحظى الجارية بنظرة واحدة من عين السلطان فالجارية تدخل السراى ، والسراى كلمة إيطالية معناها قفص الوحوش . . وفارسية أيضًا ومعناها المكان والسراى بمعناها الإيطالى أقرب إلى طبيعة القصر أو السراى التى تعيش فيها الحريم . . . وبعد أن تدخل السراى تتدرب على أن تكون تلميذة مجتهدة لإحدى العشيقات .

وتتعلم الغسل والطبخ ، وبعد ذلك تصبح عشيقة ، وتنتظر إرادة السلطان . . ولنفرض أن إحدى العشيقات كانت محظوظة لدرجة أن السلطان رآها . وليس من الضرورى أن يكون قد ملأ عينيه منها . . وإنما يكفى أن يرمش أمامها ، وهذا (الترميش) معناه أن هذه الفتاة تتحول فجأة إلى كائن آخر . تدخل الحمامات وترتدى الملابس ، وتغرق فى العطور ، وبعد يوم أو يومين يحملها الأغوات على كرسى ،

ويدخلون بها غرفة السلطان . . ويضعونها أمام السرير ، ويكون السلطان عادة قد تغطى .

وتجيء العشيقة الجديدة وتقترب من الفراش وتأتى من الأصوات والحركات ما يجعل السلطان يصحو . . . وهنا يختفى الأغوات . وفى الصباح المبكر يحملون العشيقة إلى جناحها . . . وتكون كل الأبواب والنوافذ مغلقة على الجانبين . ثم يكتبون فى أحد السجلات تاريخ اللقاء السلطانى ، وينتظرون المولود السعيد . فإذا كان ولداً فهى سلطانة ، وإذا كان هذا هو أول أولاد السلطان فهى الجالسة على العرش إلى جواره .

أما إذا غير السلطان رأيه ، وكان (الترميش) ليس دليلا على إعجابه بها ، وإنما كان سببه أن ذبابة اقتربت من وجهه السلطانى . . فيهجم الأغوات على العشيقة الجديدة ، ويمزقون ملابسها ويلقون بالماء القذر فوقها . . ثم يعيدونها إلى بداية السلم ، أى إلى كنس البلاط ، ومن المؤكد أن هذه المسكينة لن تكون لها فرصة أخرى لكى ترى السلطان إلا ميتا !

ولم يكن أمام الحريم إلا الانتظار . . . وإلا التآمر والتراحم على الطريق إلى السلطان . . . وكن يستخدمن كل الأساليب : الاغتيال والسم والفلوس والهدايا .

ومن أشهر الجاريات واحدة روسية اسمها روكسيلانا ، استطاعت أن تكون سلطانة وزوجة للسلطان سليمان القانونى ، واستطاعت أن تتآمر على إخوة السلطان فقتلهم جميعاً ، وكان عددهم ١٩ أميرًا ، ويقال إنها قتلت السلطان نفسه لكى يبقى ابنها سلطانًا بعد ذلك ، وروكسيلانا هذه هى التى بدأت عصر الحريم .

ولقد بدأت الدولة العثمانية فى القرن الخامس عشر بأن كان للسلطان حريم هائل ، ولكن ابتداءً من هذه السلطانة الجريئة ، أصبح للحريم نفسه سلطان وسيطرة مخيفة ، وعندما يكتشف أحد السلاطين – وهذا يحدث نادرًا – أن هناك مؤامرة ضده ، فإنه يفتك بالحريم . . . وقد حدث أن أمر أحد السلاطين بإغراق كل الحريم فى البسفور ، فوضعت النساء فى « جوالات » ، وألقين فى قاع البوسفور وكان عددهن ٣٠٠ فتاة بين

العشرين والخامسة والثلاثين وقد أغرق السلطان سليم ٢٥٠ امرأة فى ليلة واحدة ، لا لشيء إلا لأنه يريد تغييرًا فى الحريم .

أما دور زوجة السلطان فهو لا يزيد على متابعة العشيقات الأخريات ، والتآمر عليهن ، أو التآمر على السلطان نفسه .

أما إذا رضيت بنصيبها فإنها تشغل وقتها فى الأعمال الخيرية مثل بناء المساجد والمستشفيات .

ونظام الحريم لم يكن هو سبب الانحلال العثمانى ، وإنما كان من مظاهر الانحلال . . . فقد انشغل الرجال بالنساء عن كل قضايا الشعب والدولة ، فالسلاطين قد ولدوا من أمهات جاريات ، وعاشوا فى سجن الحريم ، ولما كبر السلاطين عاشوا مرة أخرى فى الحريم .

فالسلاطين لم يكن لهم حريم فى الحقيقة ، وإنما الحريم هو الذى أنتج السلاطين ، هو الذى أنتج أناسًا يكرهون الحرية ، لأنهم لم يعرفوا كيف يتحررون من عقلية الحريم ، وحياة الحريم ، وهم لا يفهمون حرية الآخرين ولا الأخريات .

فهم رجال من صنع النساء ، من صنع سجينات النساء .

وقد اختفى الحريم فى أوائل هذا القرن . واختفى السلاطين ولم يبق من السراى القديم ، والسراى الجديد إلا القصر المعروف الآن على البوسفور « توب كابى » ولكن لا تزال هناك عقلية الحريم عند بعض الرجال .

إنهم لا يستطيعون أن يعيدوا عصر الحريم ، ولكنهم يستطيعون فقط أن يذكرونا به ، وقد نسيناه ، ولم تبق إلا بقع قليلة على الأرض هى التى تخفى وراء قصورها العالية سجونًا للنساء غارقة فى الخمر والعطر ، ولكن هذه السجون وهذه القصور سوف تتلاشى ، فالحرية أقوى من الشمس ، بل الحرية هى الشمس التى لا تغرب أبدًا .

ومن المؤكد أن عقلية السلاطين هى التى يتعانق فى داخلها : عشق المرأة واحتقارها . . عشق جسدها واحتقار عقلها ، والمرأة حيوان عاقل كالرجل ، واحتقار

العقلية الإنسانية هو احتقار لأعز ما يملك الإنسان ، لأخطر ما يتميز به الإنسان عن الحيوان ، وما يتميز به المواطن الحر عن أبناء الحريات فى عصر السلاطين.

لقد انتهى الحريم ، وانتهى السلطان . . . فلا سلطان إلا لكرامة السلطان !

الفصل الخامس

أنيس منصور وأدب الرحلات

لمحة عن أدب الرحلات فى أدبنا العربى المعاصر

برغم أن أدب الرحلات كان لونًا قديمًا عرفه الأدب العربى ، فإنه تطور وأخذ طابعًا جديدًا هو صورة التعبير النفسى ووصف المشاعر والأحاسيس بعد أن كان أدبًا تسجيليًا تصويريًا بحتًا .

وقد بكرت هذه الرحلات مع بواكير أدبنا العربى المعاصر فى مرحلة اليقظة ، ومنذ عام ١٨٣٠ بدأت رحلة رفاعة الطهطاوى إلى باريس والتى سجلها فى كتابه « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز »[١] :

ومن أبرز تلك الرحلات التى سجلها أصحابها فى كتب :

أحمد زكى باشا	: السفر إلى المؤتمر	(١٨٨٢)
فارس الشدياق	: الواسطة فى أخبار مالطة	(١٨٨٤)
فارس الشدياق	: كشف المخبأ فى فنون أوربا	(١٨٦٦)
حسن توفيق	: الرحلة إلى ألمانيا	(١٨٨٧)
محمد شريف	: رحلة محمد شريف إلى أوربا	(١٨٨٨)
عبد الله فكرى وولده أمين	: إرشاد الألبا	(١٨٨٩)
أحمد زكى باشا	: الدنيا فى باريس	(١٩٠٠)
محمد فريد	: من مصر إلى مصر	(١٩٠٢)
محمد لبيب البتانونى	: الرحلة الحجازية	(١٩١٠)
محمد لبيب البتانونى	: رحلة الأندلس	(١٩٢٨)
أمين الريحانى	: ملوك العرب	
زكى مبارك	: ذكريات باريس	(١٩٣١)

(١) أنور الجندى / أضواء على الأدب العربى المعاصر / ١٩٦٩ / ص ٧٦ .

زكى مبارك	: وحى بغداد	(١٩٣٨)
شكيب أرسلان	: الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية	
شكيب أرسلان	: الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أقدس مطاف	
محمد حسين هيكل	: ولدى	
محمد حسين هيكل	: فى منزل الوحى	
حسين فوزى	: سندباد إلى الغرب	
حسين فوزى	: سندباد عصرى	
أحمد فريد رفاعى	: رحلة إلى اليمن	
إبراهيم المازنى	: رحلة إلى الحجاز	
أحمد عطية الله	: لندن	
عبد الوهاب عزام	: رحلات	
محمد كرد على	: غرائب الغرب	
مؤيد العظم	: رحلة فى بلاد العرب	
طه حسين	: رحلة الربيع	
طه حسين	: فى الصيف	
أحمد عبد المجيد	: سندباد دبلوماسى	
على محمود طه	: حب وحرب	

فى بلاد الله

أتيح « لأنيس منصور » أن يرحل إلى بلاد كثيرة فى القارات الخمس ، وأن يسجل لنا مشاهداته وخواطره عما رآه وما مر به من تجارب خصبة ثرية فى تلك الجولات ، بأسلوب صادق شفاف ، وبذلك أضيف لأدبنا المعاصر لون جديد وفريد من أدب

الرحلات تميز عما سبقه بسمات عديدة .

إن أدب الرحلات من أجمل وأمتع الألوان الأدبية فى مختلف الآداب العالمية .

وأدب الرحلات منذ رحلات السندباد البحرى ، وحتى رحلات ابن بطوطة ، وماركو بولو أدب ملىء بالمتعة والإثارة والجمال .

وأدب الرحلات عند « أنيس منصور » يختلف مثلا عن كتابات الرحالة محمد ثابت ، وأحمد زكى باشا ، وشكيب أرسلان ، ومحمد حسين هيكل ، وعبد الوهاب عزام ، فى أدب الرحلات .

إن كل هؤلاء كتبوا بأسلوب تسجيلى كل ما مر بهم دقيقة بدقيقة بالرغم مما تحتويه كتاباتهم من معلومات جغرافية وتاريخية ثمينة فإنه يدخل فى باب الجغرافيا البشرية أو المشاهدات التسجيلية ، لكنه لم يكن أدب رحلات بالمفهوم الدقيق لهذا المصطلح .

ولا يصح فى الأذهان أن يصبح كل مرتحل ، كاتب رحلات ، ما أن يستقر فى بلده بعد رحلة طال أمدها أو قصر ، حتى يمسك بقلمه ، ويحرر صحائف يعدها للطبع والنشر ، ويضمنها مشاهداته وتحليلاته ، وما رأى من أقوام ، وما قام بينهم من عادات أو طبائع أو تقاليد .

ذلك أن هذا الضرب من الكتابة قد خص الله به طائفة من الكتاب ، توفرت لهم مزايا وصفات خاصة .

وللرحلات أدب فريد فى بابه ، إنه كالمسرح الشامل الذى يضم عدة فنون ، ولم يكن عبثًا تسمية المسرح بأبى الفنون ، لأنه يضم التمثيل والغناء والموسيقى والرسم والأزياء والرقص وفن التنكر ، إلى جانب الحوار الأدبى شعرًا كان أو نثرًا ، مثلما كان الحال فى مسرح شكسبير أو موليير !

كذلك الحال بالنسبة للرحلات التى تحوى الوصف الجميل ، والإحاطة بالتاريخ والجغرافيا ، وبالأدب والفن والغناء والموسيقى ، لدى الدول التى يرحل إليها كاتب الرحلات ، ويسجل فيها مشاهداته من تقدم وحضارة ما يرحل إليه من بلاد ، أو بآخر ما ترمى به إليه عصا التسيار !

رحلات محمد ثابت ومدى تأثر أنيس منصور بها

فى الثلاثينيات من هذا القرن قام الرحالة المصرى المغامر « محمد ثابت » (عميد معهد المعلمين بالزيتون يومئذ) ، بعدة رحلات جريئة فى ربوع العالم ، بإمكانيات متواضعة وفى ظروف صعبة ، فى وقت لم تكن تتوافر فيها وسائل المواصلات الحديثة التى توجد الآن ، حتى أطلقت عليه الصحافة وقتئذ لقب « الرحالة المصرى » ، حيث سجل تلك الرحلات فى ربوع العالم فى سلسلة كتب تحت عنوان « العالم كما رأيته » . كانت كما يلى :

١ - جولة فى ربوع أفريقيا :

ويشمل رحلته فى قارة أفريقيا ، ويتحدث فيه عن عجائب القارة الغامضة ، فى ذلك الحين وغاباتها ، وأسرار البشر فيها ، وطرائف وحوشها : (وفيها وصف رحلاته إلى بلاد المغرب العربى ، والسودان ، وزنجبار ، وكينيا ، وأوغندا ، حتى جنوب أفريقيا) .

٢ - جولة فى ربوع آسيا :

يتحدث فيه عن بدائع الشرق الأقصى ومدهشاته ، ويشمل زيارته للهند ، وسيلان ، وسنغافورة ، والملايو ، واليابان ، والصين ، وهونج كونج .

٣ - جولة فى ربوع الشرق الأدنى :

ويشمل الكتاب وصفاً لزيارته إلى فلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وتركيا ، والعراق ، وإيران ، وأفغانستان ، والحجاز ، وعدن .

٤ – جولة فى ربوع أوربا :

ويشمل وصفاً لزيارته لدول أوربا مثل : إيطاليا ، وفرنسا ، وسويسرا ، وأسبانيا ، وإنجلترا ، وأسكوتلندا ، وأيرلندا ، واليونان ، وتركيا ، ورومانيا ، ويوغسلافيا ، والمجر ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وألمانيا ، وهولندا ، والدنمرك ، والنرويج ، وأيسلندا .

وفى الكتاب وصف لطرائف المدنية الأوربية ومشاهدها ونظمها الاجتماعية العصرية .

٥ – جولة فى ربوع أستراليا :

ويشمل وصفاً وتسجيلا لزيارته لكل من زيلندا ، وفيجى ، وساموا ، وها واى ، وهوليوود ، وكندا ، وأرووردا .

٦ – جولة فى ربوع الدنيا الجديدة الأمريكية :

ويشمل جولته فى ربوع جزائر الكناريا ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وشيلى ، وأكوادور ، وبنما ، والولايات المتحدة ، وأمريكا الشمالية ، وكندا . . إلخ .

ويتحدث عن مدهشات الدنيا الجديدة ، ونفائس بلاد المغرب والأندلس ، لقد كان « محمد ثابت » أول كاتب مصرى يعطى لأدب الرحلات مفهوماً ، فيصف لنا الهدف من تلك الجولات التى قام بها بين ربوع القارات الخمس ، ونظرته إلى أدب الرحلات ، فيقول[1] :

« لقد كانت رغبتى الأكيدة ، يوم بدأت جولاتى فى ربوع الدنيا ، أن أدرس شعوب العالم ، وأتدسس الى الصميم من حياتهم ، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات ، وقد كنت أصدر عقب كل « جولة » كتاباً يضم مشاهداتى عن البلاد التى زرتها .

---

(١) محمد ثابت / جولة فى ربوع أفريقيا / مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ / ص ٤ .

« وكم كان سروري عظيماً أن تهافت أبنائي البررة . وزملائي الكرام على اقتناء هذه الطبعات حتى نفدت » .

وإني لسعيد أن أرى (مصر) تسمو بدراسة الجغرافيا . إلى العناية بوصف الشعوب وحياة الإنسان ، تلك الناحية التي قصدت إليها جولاتي هذه .

« ولقد زادني غبطة مالاحظت من أن كثيرًا من الإخوان تتجه عنايتهم إلى الرحلات ، حتى لقد تحدث إليّ في ذلك غير قليل ممن حضرتهم ، ولعلهم يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم ، حتى نستطيع بجولاتهم أن نزف إلى أبناء هذا الوطن العزيز ، بلغته العربية « كتاب الدنيا » ، يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم ، وأخرى تخلفت ، وعسى أن يكون لنا من هذه أحسن العبر ، ومن تلك أجمل الأثر » .

لقد وضع « محمد ثابت » خمسة عشر كتاباً عن رحلاته وجولاته حول العالم كله ، منها ثلاثة كتب تناول فيها نساء العالم بالبحث والوصف والمقارنة .

لقد كانت مؤلفات الرحلة « محمد ثابت » في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن لونًا متميزًا فريدًا في أدبنا العربي المعاصر ، حيث قدم لنا أدب الرحلات في صورة جديدة مختلفة تمامًا عن أدب الرحلات التسجيلي ، فطبعت هذه المؤلفات عدة طبعات ، وأقبل عليها القراء إقبالا كبيرًا .

وأرى أن محمد ثابت قد أحدث نقطة تحول في أدب الرحلات شكلا وموضوعًا حيث أنه تغلغل في الحياة الاجتماعية للدول التي زارها وأطلع على الكثير من خفاياها ، واستعان بثقافته التاريخية والجغرافية في إعطاء جرعات ثقافية كبيرة للقارئ العربي في ذلك الوقت بأسلوب شيق طريف ، ومن الغريب أنه قد وقف حياته ، وقصر جهوده على هذا اللون الفريد من الأدب النابض بالصدق والحرارة .

وأستطيع أن أقول إن « أنيس منصور » قد تأثر إلى حد كبير بهذا الرحالة المصري المغامر الذي قام بتلك الرحلات العجيبة بأبسط الإمكانات ، وفي ظروف صعبة مختلفة تمامًا عن الآن .

إن « محمد ثابت » الرحالة المصرى ، قد قدم لنا فى تلك الجولات العالم من خلال رؤيته وفى ضوء نظرته لرحالة مغامر ، يتطلع لرؤية الغريب والمثير والجديد من خلال تلك الجولات المتصلة فى فترة انتقال من عصر إلى عصر ، فرأى مشاهد تذكره ببدء الخليقة ، وشاهد مظاهر الحضارة الحديثة فى بداية مطالعها فى الثلاثينات من هذا القرن ، فسجل ما رآه فى هذه السلسلة الممتعة من مؤلفاته النفيسة ، وشرح لنا نظريته أو نظرته فى حبه للرحلات ، وهيامه بالمغامرة ، ورؤية بلاد العالم وشعوب العالم ، فقال [١] :

«لعل أشهى ما تتوق إليه نفسى وأمتع ما يطمئن له جنانى جولات أقوم بها فى مختلف البلاد ، لا فرق عندى بين سهل وحزن ، وبدو وحضر ، أجوس خلالها منقبًا فى غير ملل برغم أنى أركب فى سبيل ذلك الصعب ، وأحتمل الألم ، وكأنى أستشعر بهذه اللذة الكاملة التى لا أبتغى عنها عوضًا .

والحق أن فى الرحلات التى أُغرمت بها منذ الصبا – لخير مجدد لنشاط الجسم ومضاء العزم ، إلى حفز فى الهمم ، وتقويم فى الخلق ، واعتماد على النفس .

«وها أنا أقص فيما يلى نبأ رحلتين جبت فيهما كثيرا من أرجاء أوربا ، قمت بأولاهما فى صيف عام ١٩٢٦ ، برفقة زميلين فاضلين هما الأستاذ «على الأهوانى ، والأستاذ عبد الرحمن السيد» ، وقد حللنا بلادًا عدة من إيطاليا ، وفرنسا ، وسويسرا ، وإنجلترا . وفى رحلتى الثانية فى صيف سنة ١٩٣٠ ، لم أوفق إلى زميل ، فاعتزمت القيام بها وحيدًا ، وكنت فيها أمضى عزمًا إذ قطعت ما يناهز سبعة عشر ألف كيلو متر بين بر وبحر ، وحللت أربع عشرة دولة ، وكأنى رأيت فى عزلتى مشجعًا لى على توخى الاقتصاد والجرأة ، كنت إذا حللت بلدًا ، أودعت حقائبى مكتب الأمانات ، وخرجت أختلف إلى الفنادق حتى أهتدى إلى ما يروقنى فى غير توريط ولا إعنات ، ثم ألجأ إلى دار كتب أتصفح ، ما بها من مصورات «كرتات» عن المدينة ، وأناقش صاحب المكتبة فيها جميعًا كى أتفهمها ، أبتاع منها ما أستملحه ، وأستزيد بخريطة

(١) محمد ثابت / جولة فى ربوع أوربا / مكتبة النهضة المصرية (ط٣) ١٩٤٨ / ص ٣ .

يدوية للمدينة أتصفحها بإمعان . بعد أن أعين موضع المكتبة والنزل فيها . وكنت على خططها أسير دون أن ألجأ إلى بوليس أو دليل . ولقد كان فى ذلك عون لى على تفقد أحياء المدينة فى أيام قليلة .

وقد كنت طوال جوالاتى أحاول درس البلاد التى حللتها من الوجهة الجغرافية والاجتماعية ما استطعت إلى ذلك سبيلا . وكانت مصر العزيزة ماثلة أمامى دائماً : أحدث القوم عنها وأشيد بذكرها فى جميع البلدان » .

فمفهوم أدب الرحلات عند الرحالة « محمد ثابت » . مفهوم واضح وقريب من المفهوم الصحيح . وليس مجرد تسجيل أو سرد معلومات تاريخية وجغرافية . بل تتضمن كتبه : الفكاهة ، والظرف والطرفة . والمعلومة التاريخية ، والوصف التفصيلى . وتصوير مشاعر النفس والعلاقات الإنسانية . وهو الاتجاه الذى طوره « أنيس منصور » فى مؤلفاته فى هذا المجال . وأضاف إليه وجعله أدبًا مكتملا ناضجًا . يعد بالمفهوم المعاصر من أجمل وأمتع أدب الرحلات فى أدبنا العربى .

أضواء على شخصية محمد ثابت ورحلاته

وقد كتبت مجلة الاثنين تصف الرحالة محمد ثابت بقولها[١] :

« عالم مجاهد طموح متحرر . . رحل إلى جميع دول العالم ، فكان أول رائد للرحالة المصريين . . وكتب عما شاهده فى كل مكان ، فكانت مؤلفاته صورة حية للدول التى زارها . . وكان سفيراً لمصر فى أنحاء العالم ، فكان لها نموذجًا طيبًا ممتازًا . . وهو الآن يضع خبرته وتجاربه وثقافته الواسعه فى إعداد الشباب منذ أن ولى إدارة النشاط الاجتماعى والرياضى بوزارة المعارف .

وعندما سئل محمد ثابت عن سر هوايته للرحلات وكيف بدأت عنده هذه الهواية قال :

---

(١) الاثنين والدنيا / ١٩٥٣/٩/٢١ / اسألوا أهل الفكر.

« أحببت الرياضة منذ الطفولة ورحت أطلبها وأمارسها فى كل مكان لأن ذلك قد صادف هوى فى نفسى ، ولما ترعرعت وجدتنى مدفوعاً بطبعى إلى الأسفار ، فأخذت أجوب البلاد شرقاً وغرباً ، وأتوغل فى بحارها وسهولها حباً للاستطلاع ، ولا أذكر أننى أحجمت مرة عن ارتياد مكان حدثتنى النفس بارتياده .

وخرجت من هذا كله بتجارب عديدة شجعتنى على القيام برحلات خارج البلاد وأظننى قد طفت بجميع أرجاء الدنيا إرضاءً لمطامحى فى هذه الهواية — وقد بدأت رحلاتى المتواضعة فى سن الثانية عشرة من عمرى وأنا إذ ذاك طالب بالمدرسة السعيدية وكانت الرحلة على ظهر هجين من « الجيزة » إلى « سقارة » .

ومن المصادفات المحرجة التى صادفها فى حياته ما رواه عن رحلته إلى أمريكا الجنوبية عام ١٩٣٦ ، فعندما وصلت به الباخرة إلى « بوينس أيرس » عاصمة الأرجنتين واستعرض الطبيب المسافرين للتأكد من خلوهم من الأمراض المعدية ، اعترض الرحالة « محمد ثابت » ولم يسمح له بالنزول من الباخرة بدعوى أنه مصاب بالرمد الحبيبى فأسقط فى يده لأن معنى هذا أن يعود على ظهر الباخرة من حيث آتى ! . . فلم يتمالك أن أخرج من جيبه خطاب توصية كان وزير « شيلى » المفوض فى مصر قد أرسله لأخيه وزير المعارف هناك يوصيه بالرحالة « محمد ثابت » خيراً ، فقدمه للطبيب فقرأه وعندئذ أحنى رأسه مرحباً ، وأمر بخروجه فوراً .

وقد خرج الرحالة « محمد ثابت » من رحلاته الكثيرة حول العالم بانطباعات معينة عن أبرز الصفات فى تلك الشعوب ، فقال : « من الصفات البارزة فى الأمريكيين « حب الألفة » ، وفى الإنجليز « الترفع » ، وفى الألمان « حب النظام » وفى الفرنسيين « الذوق الفنى » ، وفى اليابانيين « الأدب والتكتم » ، وفى الصين « الصبر والجلد » ، وفى الهنود « التدين » ، وفى الزنوج « البساطة » .

ومن رأى الرحالة « محمد ثابت » أن اللغتين الإنجليزية والفرنسية هما أكثر اللغات نفعاً للرحالة . . فكلما كان الرحالة ملماً بلغة البلاد التى يرتادها ، كانت استفادته من رحلته حقيقية واقعة ، وقد أعانته رحلاته حول العالم على تعلم اللغات الإيطالية ،

والإسبانية ، والفارسية ، والسواحلية ، بين زنوج شرق أفريقيا ، بالإضافة إلى إلمامه باللغتين الإنجليزية والفرنسية .

ومن الطريف فى رحلات « محمد ثابت » أن زوجته قد صحبته فى الكثير من رحلاته تلك . فكانت تنظم بنفسها الكثير من هذه الرحلات ، مع أنها لم تكن تعنى بشىء من ذلك ، ويعترف بأنه قد وجد فى زوجته أكبر العون فى تشجيعه للقيام بتلك الرحلات .

ولكن بمن تأثر الرحالة « محمد ثابت » فى حياته من الشخصيات الفذة فى تاريخ الإنسانية يقول[1] :

القراءة غذاء العقل والروح ، ما فى ذلك شك . . وقد أولعت بالقراءة ، وأعتقد أنى قد تأثرت أكثر ما تأثرت بأولئك الرحالة الذين كتبوا كثيرًا فى هذا الباب ، وأخص بالذكر منهم « ابن بطوطه » . . . فلقد كان لرحلاته التى بلغت مشارف الصين أثر عميق فى نفسى ، وخاصة عقب زيارتى لبلاد الصين نفسها .

وعن أغرب المفاجآت التى صادفها فى رحلاته يقول[2] :

«كنت فى رحلة فى جنوب أفريقيا ، ووصلت إلى مدينة «كمبالا» على بحيرة « فيكتوريا نيانزا » ، وكمبالا هى العاصمة التجارية لأوغندا ، وتسدها الغابات الكثيفة من كل جانب ، وتتخللها بعض الطرق الضيقة المعبدة لمرور الناس . وحاولت أن انتقل من تل « كاسوبى » إلى تل « الكبكا » لزيارة ملك أوغندا ، وهو من الزنوج — فدفعنى الغرور إلى أن أشق طريقى على الأقدام وسط الغابات بعيدًا عن الطريق المعبد ، وبدأت فى الثالثة بعد الظهر ، فلم تكد تمضى ساعة حتى كان الظلام يحيط بى ، والأصوات الغريبة الموحشة تفزعنى ، وكثافة الغابة تأخذ كل مجهودى ووقتى فى تنحيتها لأخطو خطوة واحدة إلى الأمام ، وجسمت لى مادة الجغرافيا الموت الذى ينتظرنى بفضل الحيوانات المتوحشة ، مما دفعنى إلى العودة من حيث أتيت ، بعد أن شاب رأسى وتلقيت درسًا قاسيًا هو ألا أكون مغرورًا أو أحمق .

---

(١) مجلة الاثنين والدنيا / ١٩٥٣/٩/٢١ / اسألوا أهل الفكر .

(٢) مجلة الاثنين والدنيا / ١٩٥٤/٧/١٢ .

الرحالة الفنان

ولكن ما هى خلاصة تجارب وانطباعات « محمد ثابت » الرحالة عن بيوت العالم من الداخل ، وكيفية معيشة أهل كل بلد زاره وراء الجدران؟

لقد قدم « محمد ثابت » هذه النظرة الموضوعية الفاحصة لحياة كل بلد وعاداتهم وتقاليدهم من خلال رؤيته للبيوت وما تحويه من خفايا وأسرار ، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن « محمد ثابت » لم يكن مجرد رحالة عابر ، يصف ويسجل تسجيلا جامداً ، ويصور مجرد مشاهد وانطباعات عابرة ، إنما هو رحالة فنان يصف لنا مشاهد كاملة ، ويصور لنا لوحات كاملة بكل ظلالها وألوانها ، وبكل ما فيها من بقع وأطياف وزوايا .

فماذا قال « محمد ثابت » عن عادات وتقاليد شعوب العالم من خلال بيوتهم من الداخل ؟ قال « محمد ثابت »[1] :

حرصت خلال رحلاتى العديدة – على أن أدخل بيتاً فى كل بلد أزوره ، لأرى ما تخفيه الجدران عن عينى ، لأن الحياة خارج المنازل فيها الكثير من التصنع ، أما فى داخلها ، فإن أصحابها يطلقون أنفسهم على سجيتها . . وإنك تستطيع أن تحكم على درجة رقى أى شعب من شعوب العالم ، إذا ما ألقيت نظرة على بيت أحد أبناء هذا الشعب .

البيت الفرنسى ، فندق !

وقد زرت بيتاً فرنسياً فى باريس ، واستطعت أن أدرك أنه ليس بيتاً بالمعنى الصحيح ، بل هو أقرب إلى الفندق ، يأوى إليه رواده بضع ساعات مع الفجر ، للنوم . . .

---

(١) مجلة الاثنين والدنيا ١٩٥٤/٦/٧ .

وشعرت أن الفرنسية الباريسية ليست لها فى بيتها مملكة ، بل هى ملكة الشارع والمقهى والملهى . . . وحياتها كلها خارج منزلها ، فهى ليست سيدة بيت ، ولا يمكن أن تكونها ، لأنها تتناول أغلب وجبات الطعام فى المطاعم مع زوجها ، وتقصد بعد ذلك إلى أماكن اللهو تعرض ملابسها و « تسريحة » شعرها ، ثم إلى سهرة صاخبة لا تنتهى إلا مع الصباح .

وزرت بعد ذلك بيتاً فرنسيًا ريفيًا . فدهشت للتناقض الغريب بينه وبين البيت الباريسى ، فالمرأة الريفية سيدة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . وهى فى هذا تشبه إلى حد كبير المرأة الريفية المصرية ، فهى تصنع خبزها بيدها ، كما تصنع المربى ، والخل ، والعطور ، وتحرص على أعشاب حديقتها كى تعد منها وقودًا يابسًا ، ثم هى تعصر فى بيتها النبيذ والخمور .

البيت الإسبانى ، جامع !

ويسترعى التفاتك فى البيت الإسبانى ، نظام مبانيه . . . فهندسته لا تزال عربية الطراز ، فمدخل البيت يكسوه « القيشانى » الملون البديع ، ويلتوى على نفسه كى يحجب داخل المنزل عن أنظار المارة ، ويتوسطه فناء رئيسى مكشوف تطل عليه أغلب الحجرات .

ولا يزال الطابع الشرقى يسم المنزل الإسبانى ، فالمرأة تلزم البيت كثيرًا وقلما تغادره إلا لعمل هام ، وهى تصحب أطفالها معها حتى فى حفلات مصارعة الثيران . . وقد تسبب عدم خروج الإسبانية من منزلها . وقلة حركتها أن أصبحت أقرب إلى الامتلاء ، وهى تعد « أسمن » امرأة فى أوربا ، وأكثر نسائها حشمة ووقارًا .

البيت الألمانى ، حديقة !

وعندما تطوف بالبيت الألمانى تشعر بفقر الشعب ، ولكنك تلحظ فى يسر مادى ، ما يتمتع به هذا البيت من نظام ونظافة ، وما يبدو فيه من حسن تناسق واقتصاد ، وعلى الرغم من أهوال الحرب الأخيرة ، فلا يزال مستوى البيت الألمانى مرتفعاً . . . كما أن الطفل الألمانى أوفر أطفال العالم حظًا من اهتمام الأمم ورعايتها .

وتحضرنى قصة طويلة سمعتها أخيراً ، فإن الروسيين عندما دخلوا ألمانيا الشرقية وجدوا الأمهات يبدأن تعليم أولادهن الكلام والكتابة بعبارة تقليدية هى : أنا أحب ألمانيا — أنت تحب ألمانيا — نحن نحب ألمانيا » فحولها الروس إلى عبارة جديدة ، « أنا أحب الكفته — أنت تحب الكفتة — نحن نحب الكفتة » .

والمرأة الألمانية فى بيتها شديدة الاقتصاد والتقتير ، وهى تعمل دون انقطاع وبهذا يسرع إليها الهرم ، ولذلك قيل إن الألمانية إما آنسة أو سيدة عجوز .

وأكثر جهات منزلها استئثاراً بعنايتها الحديقة — إن وجدت — ثم غرفة الأطفال ، وتقضى معهم أغلب وقتها ، وهى تعنى بهم أكثر من عنايتها بزوجها .

البيت الهولندى ، مطبخ !

ولقد أدهشنى كثيراً نظافة البيت الهولندى ، فقد بولغ فيها إلى حد الخيال ، يهولك بريق جوانبه ، ولمعان أثاثه ، وشدة التأنق فى تنسيقه ، فهو يعد أجمل وأنظف بيت فى أوربا . . على الرغم من أن ربة البيت — أى السيدة الهولندية — لا تهتم كثيراً بملابسها وتلحظ عليها إهمالها فى هندامها الشخصى .

والسيدة الهولندية تأكل خمس مرات فى اليوم ، على أن يكون الطعام دسماً ولذيذاً ، فهى أكولة شرهة ، وهى تعتبر النحافة عيباً كبيراً ، ولذلك تبدو بغته متفخة الوجه ، منبعجة الجسم . . .

ومهما تكن رتبة الفتاة الاجتماعية ، فواجب عليها أن تتعلم على يد أمها فنون الطبخ ، وتدبير المنزل ، والعناية بالأطفال ، لأنها ستصير فيما بعد زوجة وربة بيت .

البيت الأمريكى ، الكهربائى !

وزرت البيت الأمريكى ، وأحسست أن الكهرباء هى ربة هذا البيت وسيدته ، فالأدوات الكهربائية تغسل الملابس ، وتنظف الأبسطة ، وتكنس الأرض ، وتصنع الثلج ، وتعد القهوة . . حتى فى المنازل الريفية !

وهكذا احتلت الكهرباء عرش مملكة البيت ، فمكنت للمرأة وقت فراغ طويلا بعد العمل ، تقضى أغلبه فى القراءة فى أثناء النهار ، وفى حفلات الرقص ليلا . .

والأمريكية تقرأ أكثر من زوجها ، لذلك يخشى البعض زوال الحياة الزوجية السعيدة بسبب الفرق الشاسع بين عقلية الزوجة والزوج ، نتيجة لذلك !

أما الحفلات فهم يسرفون فى إقامتها إسرافًا غريبًا ، فهى تقطع أغلب ليلهم ، وينفقون عليها أموالا طائلة ، وقد تصل نفقات حفلة واحدة إلى خمسين ألف دولار !

وأكثر ما أدهشنى فى أمريكا شدة طاعة الآباء لأبنائهم !

البيت اليابانى ، حمام !

وفى الشرق دخلت بيوتًا يابانية ، وهندية . . . ولعل أطرف ما شاهدته فى البيت اليابانى ذلك الأثاث البسيط الجميل النظيف ، وأغلبه مصنوع من القش ، والبيت نفسه مبنى من الخشب . . وهم يولون « الحمام » اهتمامًا خاصًا ، وتستحم اليابانية عدة مرات فى اليوم الواحد ، وإذا زارهم ضيف غريب فلابد من دخوله إلى الحمام » !

أدب الرحلات
بين محمد ثابت وأنيس منصور

نستطيع أن نستخلص بعد هذا الحديث المطول عن أدب الرحلات عند « محمد ثابت » ، أنه كان رائداً لهذا الأدب فى مصر بشكله الناضج ، وصورته المتكاملة ، وقد استطاع أن يضيف ثروة أدبية خصبة لهذا اللون من ألوان الأدب الإنسانى الخالد ، ساعده على ذلك إجادته للغات ، وإلمامه الواسع بجغرافية دول العالم وتاريخها ، بالإضافه إلى حبه للرحلات والتجوال وشغفه بالمغامرات .

وقد تميزت كتاباته عن الدول والشعوب التى زارها بسمات واضحة محددة ، تلمس فيها عمق ثقافته ، ودقة ملاحظته ، وروحه المرحة ، وروح المغامرة والمخاطرة لديه بصورة نجدها أيضاً عند رحالتنا المغامر : « أنيس منصور » فى رحلاته حول العالم !

وإن خير تطبيق لهذا التقارب الفكرى والروحى بين الرحالتين ، وتشابه منهجهما الفنى فى أدب الرحلات ، وفى تسجيل انطباعاتهما ومشاهداتهما فى (بلاد الله خلق الله) ، هذا النموذج الذى يمثل رحلة كل منهما فى مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواى ، إحدى الولايات الخمسين بالولايات المتحدة الأمريكية !

وهاتان الرحلتان ، الفرق بينهما أكثر من عشرين عاماً ، حيث كانت رحلة « محمد ثابت » حوالى عام ١٩٣٦ ، ورحلة « أنيس منصور » فى الخمسينات !

إن قراءة رحلة كل منهما تفصح عن منهجه وطريقته وأسلوبه فى تسجيل المشاهد التى رآها ، والانطباعات التى خرج منها من رحلته ، والملاحظات التى استرعت انتباهه !

والآن إلى رحلة كل منهما إلى هونولولو .

أولا : رحلة محمد ثابت إلى هاواى

سجل الرحالة محمد ثابت مشاهداته فى جزر هاواى ومدينة هونولولو ضمن رحلته التى قام بها فى ربوع أستراليا عام ١٩٣٦ ، وقد بهرته هونولولو حتى أطلق عليها « جنة الباسفيك وجوهرة المحيط الهادى » ، فكتب يصف تلك الرحلة فقال[١] :

« ثم كان يوم الاثنين ٣ أغسطس حين بدت فى باكورة الصباح الرُّبا لجزائر هاواى ، وهى سلسلة من جزائر أكبرها اثنتا عشرة ، من بينها ثمان مأهولة بالسكان ، وأكبرها الجنوبية التى تسمى « هاواى » والتى بدا منها قبس بركان كاليه Kilauea الثائر مقر الآلهة فى زعمهم ، وأخيرًا أشرفنا على جزيرة (Oahu) كثيرة الذُّرا وأهمها موناكايا (١٣٧٨٤ قدمًا) ، وموناالوا (١٣٦٧٥ قدماً) ، وفى جانب منها دخلنا ميناء هونولولو فى قوس ضيق المدخل ، وكانت تقوم فى تلك المياه مظاهرة بحرية لقطع الأسطول الأمريكى ، إذ الجزائر تعد أمنع القواعد البحرية فى المحيط ، وهى تسمى بحق « جبل طارق الباسفيك » .

استعرضنا الطبيب ثم تقدمت الباخرة من الرصيف وكانت شرفاته وجوانبه تغص بجموع المستقبلين تتوسطهم الموسيقى الرسمية التى تعزف استقبالا لكل باخرة ووداعاً لها ، وتلك عادة اتبعت منذ عهد مليكهم ، « كاميها حيها » الخامس سنة ١٨٧٢ ، وكان برج الميناء الشاهق الأنيق يشرف علينا تعلوه ساعة كبيرة وتزين جوانبه الأربعة كلمة (Aloha) (ألوها) – كتبت بالخط الكبير ومعناها مرحباً أو وداعاً ، وما كادت الباخرة تقف حتى هاجم المستقبلون أحبابهم وبيد كل منهم مجموعة عقود من الزهر مختلف ألوانه فى جمال لا يحد ، وأخذوا يحلون بتلك العقود أعناق أصحابهم ، وكان باعة هذه العقود وغالبهم من الفتيات ينتشرون فى جميع الطرق المؤدية إلى الميناء فى كثرة تلفت النظر ، وتسمع نداءهن فى كل مكان . وزهاء مائتى نفس مهنتهم إعداد تلك

---

(١) محمد ثابت / جولة فى ربوع أستراليا / ١٩٣٦ / ص ١٢٧ .

العقود ويسمونها (Leis) فى هونولولو ، ولا يقل ما يباع منها سنوياً عن ٦٦٠ ألفاً بسعر شلن لكل واحد ، هذا خلاف ما يباع فى الجزائر الأخرى ، ولا يقل ما يلبس هناك عن مليون عقد فى السنة ، وتلك من أجمل الظواهر التى تسترعى نظرك وأنت تسير بينهم ، وبعضهم رجالا ونساءً يلبس عشرة عقود كبيرة فى ألوان مختلفة .

استأجرنا سيارة بخمسة عشر ريالا – وكنا خمسة أشخاص – لتطوف بنا البلد وتستوعب الجزيرة كلها ، وأخذنا نشق شوارع البلدة وكأننا نسير فى إحدى كبريات مدن أمريكا تماماً ، فالمبانى رشيقة ، ومعروضات الحوانيت جذابة – وحركة المرور وبخاصة السيارات ، تسد الطرق سداً حتى صعب علينا استخدام آلة التصوير فيها ، وجماهير المارة فى الطرق كثيفة متعددة الأجناس ، فإلى جانب الوطنيين ذوى الشعر الأسود المرسل ، والسحن المفلطحة ، واللون الأسمر والعيون الكبيرة ، والقامات الطويلة ، رأينا عدداً غالباً من اليابانيين فى أرديتهم الفضفاضة ، ثم البرتغاليين ، ثم الصينيين والفيليبيين بسحنهم العجيبة ، وقليل من الهنود فى جسومهم الناحلة ، ثم الكوريين فى أكمامهم المتنفخة ، هذا إلى الأمريكيين والغرباء من سائر سائحى العالم ، فكأنها بلدة عالمية فيها ترى أحدث أزياء باريس تسير جنباً لجنب إلى جوار الأردية القومية ذات الذؤابات من العشب ، وتشاهد ملاعب الجولف والبولو إلى جوار اللعب بالزوارق انزلاقاً على حافة الأمواج ، وتلك أحب صنوف اللعب عند الوطنيين ، فهى بلدة بولينيزية تعيش فى جو أمريكى بلغ من المدنية شأواً ، فالحياة البولينيزية الفطرية تظلها أحدث المدنيات وأرقاها . ومجموع ذاك الخليط فى جزيرة oahu (وتعنى الكلمة : مكان الاجتماع) هذه ٢٠١,٦١٠ وفوق ، نصفهم فى هونولولو وحدها ، واليابانيون يفوقون ثمانين ألفاً .

أما سائر الجزائر كلها فنحو ٣٨٠,٢١١ نفساً ، ثم مررنا ببعض المعابد اليابانية والبوذية ، وكثير من الكنائس ، ثم وصلنا بعد ميلين إلى أجمل شطوط الجزيرة ويسمى (waikiki beach) ، هنا انفسحت مدرجات الرمال النقية إلى مد البصر ، وأقيمت «الفيلات» الأنيقة واكتظ الشاطئ بالمستحمين وبالمقاهى والنزل الفاخرة ،

ومن بينها نزل (surfing) الذى بلغ من الوجاهة والامتداد حدًّا كبيرًا جلسنا إلى الشاطئ لنرى أعجوبة الرياضة البحرية هناك ويسمونها (waikiki) ترى الفتيان والفتيات يمتطى كل منهم زورقاً نحيلا أو لوحاً من خشب مدبب الأطراف ثم يحركه برجليه وهو واقف عليه فيجرى الزورق ويعلو ويهبط وفق تكسر الموج على الشطوط هناك فى سرعة وخفة حركة لم أر لها نظيراً ، وهو خلال ذلك يميل ويجلس وينام ثم يعود واقفاً والزورق يجرى فى اهتزاز مخيف ويساعد على تعاقب الأمواج الخفيفة كثرة شطوط المرجان ، وتلك لعبة ملوكهم منذ القدم يتعلقون بها إلى حد المخاطرة .

أخذنا نسير بعيداً عن المدينة ونوغل فى ريف الجزيرة وكنا نمر ببيوت فاخرة ذات حدائق منسقة قيل لنا بأنها مصايف أكبر ممولى أمريكا « المليونيرز » وأشهر نجوم السينما فى هوليوود يفدون إليها لتمضية فصل الصيف كل عام ، أما القرى فقليلة نادرة السكان بيوتها خشبية صغيرة أو أخصاص مجدولة من العشب وألياف النرجيل ، وكانت مخاريط البراكين الخامدة تحوطنا من كل جانب ، فحول هونولولو وحدها عشرون فوهة بركانية خامدة . وكانت الطرق المرصوفة تلتوى بنا حول تلك البحار صعوداً وهبوطاً فى وعورة مخيفة ثم وقفنا إلى جوار صخرة (Bali) الشاهقة المدببة ، فبدا منظر الأودية الخضراء من دونها رائعاً ، ولم نستطع الوقوف بها طويلا لشدة عصف الريح التى كادت تلقى بنا جميعاً ، وتلك البقعة لا تهدأ عواصفها أبداً ، وهى أشد بقاع الجزائر عنفاً فى هوائها ، ومن جانب تلك الصخرة هاجم أحد ملوكهم Kamehameha عدوه Oahu وألقى به وبجنوده إلى أسفلها مسافة ٦٠٠ قدم فماتوا جميعًا .

أما عن ثروة الجزيرة بزهورها المختلفة ، فذلك لم أشاهده فى ناحية أخرى من الكرة الأرضية ، فيكاد يُرى الشجر والعشب كله مزهراً وفى أشكال ساحرة ورائحة عبقة وألوان لا آخر لها ، وأظهر تلك الزهور جميعاً الهبسكى ، ويعدونه الزهر الرسمى ، وهو رمز الجزيرة ، ولا تقل أنواعه المختلفة الألوان عن ٢٥٠٠ نوع ، وتكاد تجدها جميعاً فى حديقة أحد الهواة اسمه Kooper يدير فندقاً على بعد ٣٠ ميلا من هونولولو ، والنبات

يزهر طول العام وتبقى الزهرة يوماً واحداً ، لذلك تقطع كل مساء لتخلى مكانها لزهرة أخرى فى الصباح .

ومن أعجب الزهور « عباد القمر » فى كأس أصفر كبير تراه ذابلا منكمشا فى النهار فإذا ما غابت الشمس وحل الظلام أو انتشر ضوء القمر قام وتفتح ويسمونه (Cereus) . فلا تكاد تقع العين على مكان يخلو من تلك الزهور المنوعة الجميلة ، لذلك لم أعجب لانتشار عادة لبس عقود الزهر حتى بين طبقة العمال ، وهم يفلحون الأرض أو يرصفون الطرق ، حتى أضحى عقد الزهر شعاراً لتلك البلاد ، ورمزاً للوداع والاستقبال . ومن أجمل ما استهوى أنظارنا مشهد حقول الأناناس تنتشر إلى الأفق ، فوق أرض مموجة وفى تخطيط هندسى بديع . والنبات يبدو كالصبار يتوسطه كوز مصفر محبب من الثمر تزين قمته ذؤابة مورقة وقد تزن الثمرة الواحدة ١٢ رطلا . ومن تلك المزارع عشرون ألف فدان فى تلك الجزيرة وهو أجود أنواع العالم حلاوة وطراوة وحجماً ، ويتطلب عناءً كبيراً فى زرعه فبعد زرع البذور يشتل ، ثم يرش بالسائل المطهر ، ثم يلف فى ورق لحمايته وهو صغير ، على أنه لا يتطلب ريًا ، بل ينمو على مياه الأمطار ، وأول ثمره يظهر بعد ١٨ – ٢٤ شهرًا ، ثم تقطف الثمرة الأولى فتخلفها الثانية بعد ١٢ شهراً ، ثم الثالثة فى السنة الرابعة ، ثم ينزع من جذوره وتزرع الأرض خضروات ، ثم يعاد زرعه من جديد ، وهو يزكو فوق المرتفعات المموجة . ويعد ثانى حاصلات الجزيرة بعد قصب السكر ، وكنت أرى عربات سكة الحديد تجرى وسط الحقول لتنقل الثمار إلى المصانع ، وقد زرنا أكبر مصانع الدنيا للأناناس وهو فى هونولولو نفسها ، فكان الثمر يقشر بآلات ، ثم يجرى على أشرطة ليمر أمام الفتيات اللاتى كن يلتقطن ما تخلف فيه من زوائد القشر ، ثم يرتبن القطع حسب النوع والحجم ، ثم تساق القطع إلى المخرطة لتقطيعها ثم تمر على فريق آخر من الفتيات لوضعها فى العلب ثم تدفع العلب إلى معمل العصير والسكر لرشه (بالشربات) من عصيره مع قليل من السكر ، ثم يعقم وتقفل العلب وتشحن .

وهونولولو أكبر جهات العالم تصديرًا له ، ومن أظرف مااسترعى أنظارنا فوق

المصنع ، شكل ثمرة أناناس هائلة تبلغ عشرات الأمتار طولا فى لونها البرتقالى المحبب ، وذؤابتها الخضراء ، وتلك هى مستودع المياه اللازمة للمصنع أقيمت على علو شاهق لتمده بالماء من جهة ، ولتقوم إعلاناً على إنتاج المصنع من جهة أخرى ، وهى أعلى شيء يراه المرء إذا حل بالمدينة ، وكانت حقول قصب السكر تملأ المنخفضات إلى الآفاق وكانت أعواده بالغة الطول لكن عقده قصير وهو ينضج هناك فى ١٨ شهرًا ، ويحصد فى كل شهر تقريباً فترى القصب الناشيء الصغير فى جانب والناضج الكبير فى الآخر ، لا يجدد زرعه إلا كل ٨ — ١٤ سنة ومصانعه هائلة . وهناك فرع كيميائى تحليلى خاص به ملحق بالجامعة ، والأبحاث تتقدم سراعاً ، ففى كل عام يصلون إلى تحسين نوع القصب وعصيره واستئصال آفاته بنجاح ليس له نظير فى أى جهة من الدنيا ، ولقد اقترح أحد أساتذة الجامعة هناك ، إيفاد بعض الطلبة المصريين إلى هذا الفرع كما يفعل الأمريكيون ما دام القصب والسكر يهم مصر اقتصادياً ويغل فدان القصب سبعة أطنان من السكر غير المكرر . وتعد هاواى ثالثة بلاد العالم إنتاجاً للسكر بعد «كوبا» التى تمتاز بخصب تربتها «وجاوه» برخص الأجور فيها ، وقد بلغ إنتاج الجزيرة من السكر والأناناس مائة مليون ريال فى العام .

والعامل فى مزارع القصب يتقاضى ريالا كل يوم ، ويزود بالمسكن والطعام والأطباء فوق ذلك ، ومما عجبت له طريقتهم فى إشعال النار مساءً فى حقول القصب إذا ما نضج وفى باكورة صباح اليوم التالى ، ترى الأعواد قائمة وقد احترقت أطرافها وأوراقها وبذلك يوفرون على أنفسهم عناء تقشيرها . وفى جهات كثيرة كنا نمر بمزارع هائلة للموز ، ويحصون من أنواعه هناك خمسين ، وبعض العراجين يزن خمسين رطلا ويحوى ٣٠٠ موزة . وهناك نحو عشرين نوعاً ينمو برياً ، ويفضله الأهالى لأنه لذيذ الطعم عطر الرائحة . ولا يزيد عمر الشجرة على سنة ونصف ثم تقطع وتغرس فسائلها من جديد ، وقد يصل طول الشجرة اثنى عشر متراً ومن أغرب النباتات التـارو Taro الذى يبدو نبته كالقلقاس ، تقلع جذوره وتغلى ثم تؤكل كالبطاطا ، أو تسحق فى شكل معجون لإعداد طعامهم القومى المحبوب المسمى Poi وقد أكلته فألفيته منفرًا

وكأنه الفالوذج الهزاز ، المرق بنفسجى اللون فى شىء من السمرة وفى غير حلاوة ، أما شجر البوبوز فنى كل مكان يحمل وسقه من أكواز خضراء كالشمام وهو يثمر طوال العام ، ويقدمونه فى الإفطار وهو حلو لذيذ وله أثر كبير فى تنشيط الهضم .

« لبثنا ننتقل فى تلك الجنة الساحرة ، ونمر بشواطئ تلك الجزيرة البديعة ، وكان القوم يصيدون السمك فى كثير من تلك النواحى بحرابهم ، فينسل الشاب بين صخور الشاطئ وما أسرع ما تراه يلقى بحربته الطويلة فى الماء ويخرج وقد علقت بها سمكة كبيرة ، وكثير منهم يصيدون السمك ليلا على المشاعل فيمسك الواحد منهم بشعلة نار وراء ظهره ويسير وسط الماء فتجتذب تلك الشعلة السمك فيقرب منه ، وعندئذ يعمل فيه جرابه قنصاً وصيداً ، ومن السمك ما يزن ٣٠٠ رطل ومن أغرب أنواعه Sword fish بأنفه الذى يمتد مترًا وكأنه الحربة ذات المنشارين .

وفى مكان من الشاطئ رأينا شبه نافورات تتفجر من البحر ويعلو ماؤها ورشاشها أمتاراً فى الجو وتلك ظاهرة يسمونها نافورة البحر blow holes فإذا دفع الموج الماء تحت الصخر المثقب البركانى تفجر الماء منه عالياً .

عدنا آخر النهار إلى المدينة وأخذنا نتجول فى أحيائها الغاصة بالناس سيراً على الأقدام وكان « الهوائيون » أهل البلاد يسيرون بوجوههم التى تحكى وجوه الماورى إلا أنهم أقل جمالا وأكثر سمرة . . وأجسادهم ممتلئة وتبدو عليهم علامات الصحة لجودة مناخ بلادهم ، وبساطة معيشتهم فى المأكل والملبس والمسكن ، فأخص طعامهم السمك وجذور التارو (البوى Poi) ، ثم الفاكهة الإستوائية ، ومن آدابهم فى المائدة أنه لا يصح الحديث فى موضوع مادى ، وإلا عُدَّ ذلك محرماً منكراً tapu ، ويجب قصر الحديث على ما يدخل السرور على النفس . وعند الجلوس إلى المائدة تقدم آنية البوى ، وهى سلطانية يغمس كل منهم أصابعه فيها ويتناول بعض بندق Kukui مع الملح وبعض أعشاب البحر ، ثم يأكل قطعة من قديد السمك ، وكلما تناول الرجل « إصبعاً » من البوى تناول النساء اثنين . وعلى الضيف أن يقول بين آن وآخر (he oho) أى ما ألذ هذا !

وجل ملبسهم من قشور الشجر خصوصا شجرة tapa التى إذا ما بلغت بين ٣ – ٤ أمتار قطعت ثم حاول النساء سلخ قشرها فى قطعة واحدة ، ثم يصقل ظاهرها بالأصداف وتعطن فى النهر وتدق ، ثم تجفف ، وكثيراً ما ترى القطعة الواحدة تفوق « ملاءة السرير » كبراً ، وإذا دهن بزيت النرجيل أضحى « ووتر بروف » ، وهو متين جداً لكنه غير قابل للغسيل ، ولرداءة رائحته يستخدمون مسحوق خشب الصندل .

وشكل الملابس يحكى ملاءات الهنود ويسمونها Holuku وهم يفضلون السير عراة الرءوس والأقدام ويحبون التحلى بالعقود والخواتم نساءً ورجالا .

وأردية الملوك والوجهاء عباءة يكسوها الريش الثمين بشكل فنى جميل . وفراشهم من الحصر ، ووسائدهم من خشب أو حجر ، وغطاؤهم من لحاء الشجر (شجرة tapa) يبدو كالورق أو الجلد ، وأوانيهم من القرع يصقلونه ثم يزين بالنقوش الجميلة فلا يفترق عن الفخار أو الخزف الثمين ، ولا تزال ترى طريقتهم الأولى فى إشعال النار بحك قطعتين من خشب إحداهما غضة ناعمة بها حفرة ، والأخرى صلبة ، وبالاحتكاك العنيف يتفحم محراب الخشب ثم يشتعل ، وكانوا يحفظونها زمناً طويلا بإشعال طرف حبل من شجر tapa فلا يطفأ أياماً ، وكنا نرى تلك الحبال تعلق على أبواب الحوانيت يشعل القوم منها سجائرهم .

ومن معتقداتهم أن الزعماء مبعوثون من عند الله لذلك يجب تقديسهم فلا يصح لأحد الوقوف إذا مر زعيم أو ذكر اسمه بل يجب الركوع ، ولا يجوز استخدام المجرى الذى يستقى منه الزعماء ، ولا الطعام الذى يأكلونه .

والزعماء هم ملاك الأرض وصيد البحر ومجهود الناس وعملهم ، والملك يوزع ذلك على الزعماء ، وهؤلاء على اتباعهم فى شبه نظام إقطاعى ، وكان للنساء مركز منحط ، فلم يبح لهن الأكل مع الرجال ، ولا طبخ طعامهن فى إناء واحد مع طعام الرجال ، ولا تدخل المرأة المعابد ، ولا تأكل الموز ولا النرجيل ، فكل ذلك كان محرماً (tabu) وقد حدث مرة أنهم رأوا أميرتين تأكلان الموز فحكم على مربيتهن بالقتل .

ولغتهم عجيبة أيضاً فلا تزيد حروفها على اثنى عشر هى (briklmno puw) والحروف المتحركة تنطق جميعاً ، ومن الكلمات الشائعة التى يستخدمها حتى كبار سراة الأمريكيين فى وسط حديثهم ما يأتى : (نعم ea – مرحباً أو وداعاً aloha – كلا aole – تعال هنا hele mai – غضبان كدر hulu موسيقى mele – حسن maikai – كيف حالك ipeheaoe – أسرع wikiwiki

ومنطقهم عذب موسيقى ، وعلى جانب كبير من البلاغة الشعرية ، وهم مولعون بالموسيقى حتى أضحت أنغامهم المشجية أحب ما يسمعه الأمريكان أنفسهم ، وكنا نسمعها طول الطريق ، وكنت أطرب لسماعها لأن فيها شيئاً كبيراً من الحنان والعاطفة الفطرية ، وقد حضرنا رقصة hula وأغنية ukulele ونحن فى فندق شط waikiki فكانت ساحرة ، والراقصة بدت فى تمويج الجسم فى ثنيات عدة وتحريك الأيدى والذراع حركات ثعبانية ، لتحكى حركات الموج وأوراق النخيل إذا ما داعبتها الرياح .

بلاد يشعر المرء فيها بالسعادة الكاملة إذيستمتع بكل شىء ، ويرى القوم فيها هائمين يسيرون مرحين وهم يغنون ويرقصون ويزينون أعناقهم بعقود الزهر الجميل وهم حفاة – وإذا جاع أحدهم أو عطش . تسلق شجرة النرجيل وألقى بثمرها إلى الأرض واستمد منه غذاءً وشراباً ، والجو حوله ممتع موحد طول العام ، فسنتهم شهر من شهور الربيع مداه ٣٦٥ يوماً والسماء مشمسة تلطفها الرياح التجارية البليلة ، وترسل عليها مطراً متقطعاً ينزل غالبه ليلا . والهواء خال من الأتربة والأوساخ ، فلا تكاد تعرف الجزيرة الأمراض قط ، ويزين سماءهم (قوس قزح) حتى فى ضوء القمر .

وليس فى لغتهم كلمة تعبر عن معنى « الجو » ، وكثير منهم على جانب عظيم من الثقافة ، فالتعليم هناك ذو مستوى عال منذ زمن بعيد ، فلقد بدأت المدارس هناك عملها قبل أن تبدأ فى كالفورنيا نفسها ، وكان سراة كالفورنيا يبعثون بأبنائهم لتلقى العلم فيها ، وجامعة هونولولو عظيمة راقية ، وكثير من طلاب أمريكا يحضرون دروس الصيف فيها ، ليجمعوا بين العلم والاستمتاع بعطلة الصيف .

هذه حال تلك الجزائر التى تهوى أعماق البحر حولها إلى ٦٠٠٠ متر ، والتى كشفها الأسبان سنة (١٥٥٥) وأخفوا خبرها ، حتى جاء كوك سنة (١٧٧٨) وسماها « ساندوتش » ، على اسم صديق له ، ولما رآه الأهالى خالوه « إلها » ، فسجدوا له وقدموا له القرابين ، لكن كثرة طلب الغذاء لإطعام رجال كوك وسوء سلوكهم مع الأهالى ، وعدم احترامهم لعقائد الناس ، أدى إلى نزاع ، فتقدم رئيس وطنى وطعن كوك بأحد الخناجر التى قدمها كوك له هدية فخر قتيلا ، ويقوم نصب تذكارى له هناك — فقام بعده أحد ضباطه « فانكوفر » وبذل جهوداً كبيرة فى مصادقة الناس وأقنع الملك « كاميها ميها » ببطلان الأصنام وإلغاء المحظورات (tabus) لأنها كانت مصدر مظالم تقع على أيدى القسس . ولقد طلب الأهالى حماية بريطانيا ، لكن إنجلترا كانت إذ ذاك مشغولة عنهم بشئونها ، فتقدم الأمريكان ونشروا التعليم والتبشير ، فقام الناس بثورة سنة ١٨٩٣ خلعت على أثرها آخر ملكاتهم (ihnokalani) فنادى الناس بأمريكا ورفع العلم الأمريكى ، فأعلنت الجمهورية ، وفى عام ١٨٩٨ طلبوا الانضمام للولايات المتحدة خشية أن تحتلها اليابان التى بدأت تحشر أبناءها هناك وتجعلها لها قاعدة بحرية ، ولقد طمع الروس فى تملكها ، وكانت تجارة خشب الصندل أهم الموارد هى وزيت الحوت ، الذى كان يصطاد بكثرة حولها ، لكن تلك التجارة قد اضمحلت وحلت الزراعة محلها ، خصوصاً لما أن نشط استخراج الذهب من كاليفورنيا ، واحتاج نزلاؤها إلى استيراد الغذاء من هاواى من غلال وخضر ، ثم شجع الصينيون زراعة قصب السكر والأرز ، ثم تشعبت منتجاتها حتى أضحت إلى ما ترى اليوم .

عدنا إلى الباخرة فبدا الرصيف مائجاً بالمودعين وبائعات الزهور والعقود ، وقد لبس كل من المسافرين والمودعين عشرات العقود البديعة ، وقد ركب الباخرة فى الدرجة الثانية من هونولولو ١٤٠ مسافراً يعودون إلى أمريكا بعد تمضية عطلة الصيف ، وبدأت موسيقى الوداع تعزف ، وأشرطة الورق الملون تصل ما بين فريق المسافرين والمودعين . ثم أخذت الباخرة تتنحى عن الميناء تدريجيًّا حتى غابت تلك المتعة عن الأنظار ، وكان

آخر ما يرى هو برج الميناء وعليه كلمة « Aloha – ألوها » تودعنا ، وخرجنا إلى عرض المحيط ونحن آسفون أن برحنا « جنة الباسفيك » ، أو « جوهرة المحيط » كما يسمونها غالباً . عندئذ أخذ المسافرون والمسافرات يلقون بعقود الزهور الجميلة إلى المحيط حتى لم يخلفوا معهم منها شيئاً لأن ذلك فأل حسن يؤكد لهم عودتهم لزيارة الجزيرة مرات أخرى ، وكنت ألبس من تلك العقود اثنين لم تسغ لى نفسى أن ألقى بهما إلى اليم ، لكنى لم أنج من لومهم فكلما مرت بى آنسة قالت : ألا تريد أن تعود إلى زيارة هونولولو ثانية ، فأقول : بلى ، فتلك أمنيتى . فتقول : سارع بإلقاء عقودك إلى البحر . ولما أن غلبتنى كثرتهن ألقيت بالعقدين على الرغم منى ، ولعل الأمل كبير فى العودة إلى هونولولو يعوضنى عما فقدت من تلك العقود البديعة .

وبسبب وفرة الزهور كثر النحل جداً ، حتى إننا كنا نسمع طنين النحل فى كل مكان .

ولقد علمنا أن النحل هناك يغل مليونين من أرطال العسل سنوياً ، وقد رووا أن كل عشرين ألف نحلة تحمل رطلا من الرحيق ، وهذا يصبح ربع رطل من العسل وشهر يونيه هو شهر العسل « عندهم ، والشمع الذى يتخذ منه ، أحسن الأنواع العالمية وأكثرها مقاومة للأنصهار » ، وعدنا إلى المحيط الهادى نشق مياهه الوديعة يومين ثم أعقبهما آخرين بدا خلالها البحر على غير ما عهدناه ، إذ ظل مضطرباً حتى أعيى الكثير من المسافرين . وفى يوم السبت ٩ أغسطس دخلنا ميناء (سان بيدرو) ، وهو ثغر لوس أنجلس وكان شاطئ كاليفورنيا الصخرى قد بدا إزاءنا منذ المساء .

ثانياً : رحلة أنيس منصور إلى هاواى

أما رحلة « أنيس منصور » إلى جزر هاواى ، فقد قام بها فى الخمسينات من هذا القرن ، وقد سجل انطباعاته ومشاعره ومشاهداته بأسلوبه الساخر الطريف ، ولم يكن مجرد وصاف أو مسجل أو مصور سينمائى يعكس ما رآه كما هو ، بل كان كالفنان الماهر

الذى يضيف الكثير من الرتوش والزوايا والطرائف ، لتبدو لوحته أكثر جمالا وطرافة وعذوبة ، يصف « أنيس » بداية رحلته وهو فى الطائرة المتجهه إلى جزر هاواى فيقول : (١)

«كان الليل طويلا جدًّا ولم تشرق الشمس إلا فى ساعة متأخرة كأنها هى الأخرى قد راحت عليها نومة . . والطائرة بدأت تهتز كأنها تتساقط من التعب . . ومن النافذة كان ماء المحيط الهادى أزرق قاتماً . . كشكل المياه حول جزيرة كابرى . . أو حول جزيرة سيلان . . أو مرسى مطروح . . أزرق داكن .

وتحت الماء توجد صخور بنية اللون . . هذه الصخور هى بقايا جزر غمرها المحيط إنها مئات الجزر ويسمونها « الهاديات » نسبة إلى المحيط الهادى ، فكل هذه المنطقة بركانية . . وكل الجزر الموجودة هنا هى جبال بركانية . وقد أغرقت المياه الأودية التى حولها ولم تبق إلا القمم .

وقبل جزر هاواى نبهنا الطيار إلى أننا بعد لحظات سنكون فوق الأجزاء الشمالية لجزر هاواى . . وكادت أرواحنا تطير تسبق الطائرة إلى سماء هذه الجزر .

وأخيراً ظهرت كتل بنية اللون ، وفيها بعض البقع الخضراء . . وأحياناً تظهر خطوط لامعة أيضاً . . وكأننا نرى وجه القمر . . ويبدو أن كل هذه الجزر صغيرة ، ولكن شكل الجزر يبدو كشكل طفل مولود الآن . . كتلة من اللحم الأحمر ليس له ملامح الأب أو الأم ، ليست له ملامح الصورة الرائعة التى فى خيالنا عن جزر هاواى ... وسحر هاواى ولياليها وأغانيها .. وبصراحة ليس لها ملامح بنات هاواى .. !

ولم أتعجل الحكم على هذه الجزر . . وانتظرت حتى تنزل الطائرة إلى الأرض . . وبعد لحظات أعلن الطيار أننا نرى تحتنا ميناء « بيرل هاربور » التاريخية . . وهى تاريخية لأن اليابانيين أغرقوا فيها الأسطول الأمريكى ، وبدأت معارك الحرب الثانية فى الشرق الأقصى . . وبعدها قفز اليابانيون إلى الفلبين ، والهند الصينية ، وأندونسيا ، وهددوا

(١) أنيس منصور / حول العالم فى ٢٠٠ يوم / ط ١٩٧٤ / ص ٥٠٥

أستراليا ، وإلى جوار (بيرل هاربور) – ومعناها ميناء اللؤلؤ – أعلن أنه توجد مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواى هى الولاية الخمسون فى الولايات المتحدة . . فقد انضمت إليها منذ سنوات قليلة ، وهى أحسن « فترينة » لأمريكا فى الشرق الأقصى كله .

ونزلت الطائرة إلى ميناء هونولولو الدولى . المطار كبير ومخطط ونظيف جداً . . وبه عدد كبير من الطائرات النفاثة الحربية والمدنية . . وهى تنزل وتصعد كل لحظة بصورة مذهلة . . !

ولم نكد نخرج من الطائرة حتى أحسست بحرارة الجو . . الدنيا حر هنا . . كشهر مايو فى القاهرة . . وأخذت أنزع ملابسى . . البالطو والجاكته والبلوفر . . ولم أتمكن من تشمير القميص فتحته ملابس لها أكمام طويلة ، وفى السيارة أكملت نزع ملابسى . . !

الوجوه كلها أمريكية . . القمصان ذات الورد والأبقار والجواميس والأسماك . . القمصان من كل الألوان وكل المقاسات . . القمصان الواسعة جداً والبنطلونات الضيقة جداً . . واللبان والسجائر والسيجارات !

ودخلنا الجمرك فى طوابير ، لنرى أحد ضباط الهجرة قد رسم على ذراعه عروساً . . لابد أنها تشبه فتاة كان يحبها . . أو ربما ولد وهذا الرسم على ذراعه ، فهو رسم طبيعى لونه أزرق فى لون الورق أو فى لون عينيه . . أو يمكن « وحمة » ! .

ولم يستغرق الكشف على شهاداتنا الطبية ضد الجدرى والكوليرا وجوازات السفر سوى دقائق معدودة ، وأمام باب المطار وجدنا الشيالين من أبناء هاواى ولكنهم أمريكيون أكثر من الأمريكان : « الخناقة » فى الكلام ، الاستخفاف فى الحركة ، الكثير من القترحة . . تقدم واحد منهم وسألنى إن كنت أريد سيارة تاكس أو سيارة كبيرة لنقل حقائبى . . فوافقت على تاكسى وطلبت إليه أن يحضر حقائبى . . فقال ما معناه أنه « ريس » هنا . . ولكنه مع ذلك سينقل حقائبى . .

ومع ذلك « هذه كلفتنى نصف جنيه بقشيش » وجاء التاكسى « كاديلاك »

فخم . . أما السيارة الكبيرة التى كان يريدنى أن أركبها فهى كاديلاك أيضاً ، ولها ستة أبواب . .

ورأيت فتيات سمراوات يرتدين ملابس هاواى . . » وملابس هاواى تشبه جلاليب الفلاحات عندنا : واسعة ولها سفرة عالية ، وحول أعناق الفتيات عقود من الورد ، وقد ظننت أن أحد هذه العقود سيلتف حول عنقى . . وقد أمعنت فى الظن فتخيلت أن هذه هى التقاليد . . وهكذا قالت لنا كتب الدعاية . . ولكن الفتاة سألت عن السيد جارسون وحرمه . . وتقدمت منى وقالت « مستر جارسون » . . ؟

فقلت : أيوه . وتقدمت الفتاة ووضعت إكليل الورد حول عنقى ، ثم طبعت قبلة على خدى ! . . وأنا أضحك ، وهى سعيدة لأنها لم تنتظر طويلا لكى تجدنى . . ثم سألتنى عن السيدة حرمى ، فأشرت إلى الراكب الذى يمشى ورائى . . ولم تسمعنى وأنا أقول لها إنها تخلفت فى طوكيو وأرسلت أخاها !

وغضبت وسحبت العقد من رقبتى وراحت تبحث عن مستر جارسون وحرمه !

وفى السيارة سألت السائق عن الحياة فى جزر هاواى ، وعن بنات هاواى ولاحظت أن السائق دهش جداً لهذه الأسئلة . وسألته عن سكان هاواى الأصليين وأين نجدهم !

وعرفت أن الطائرة التى سافرت من طوكيو يوم الخميس فى الساعة الثالثة مساء وصلت إلى هونولولو حوالى الساعة الثالثة من مساء يوم الخميس نفسه .

فبدلا من أن تصل يوم الجمعة وصلت يوم الخميس . . فجزر هاواى متقدمة فى الزمن خمس ساعات عن اليابان — يحسن أن تسأل أحد علماء الجغرافيا أو الفلك ، فنحن هنا نقع على خط طول ١٥٨ غرب جرينتش ، والقاهرة على خط طول ٣٠ شرق جرينتش ، والفرق بين البلدين الآن هو ١٢ ساعة !

يعنى لقد تقدمنا فى الزمن خمس ساعات . . . ولكن عرفت أننا تأخرنا فى الوصول إلى هذه الجزر حوالى خمسين سنة . فأهل هاواى الذين كنت أتوقع أن أراهم عراة حفاة ينسجون ملابسهم من أوراق الموز ، ويركبون الزوارق المصنوعة من جذوع

الأوراق ، ويضعون الورود الكبيرة فى الشعر ، وبنات هاواى اللاتى قال عنهن جيمس كوك – الذى اكتشف هذه الجزر – لا يعرفن إلا فناً واحداً هو الاستسلام للرجل !

هؤلاء الرجال والنساء لا وجود لهم الآن . . لقد اختفوا منذ خمسين سنة على الأقل !

أما الآن فكل الناس يلبسون البدل والأحذية . . ومعظمهم يضيق بالأحذية الضيقة فيضع فى قدميه سيارات فاخرة من أحدث طراز . . فأنا لم أر أحداً يمشى فى الطريق والموضة هنا هى قيادة السيارات وأنت عريان إلا من مايوه صغير . . أما السيدات فيقدن السيارات بالمايوه . . والمايوه مضغوط جداً ، فهو مختصر جداً . . وربما كان السبب هو الاقتصاد فى استخدام الأقمشة الثقيلة !

وعند الفندق انحرفت السيارة ودخلت فى بوابة مكتوب عليها كلمة « ألوها » . . ومعناها أهلا . . . وكلمة « ألوها » مكتوبة على كل سيارة . . وانطلقت إلى جراش تحت . . . وبالجراش سيارات لم نرها قبل ذلك . . . فكلها موديل العام القادم . . . كل السيارات جديدة ، والسيارة الأمريكية قد ملأت الجراش والشوارع هنا ونزل السائق ووضع الحقائب على الأرض وسألته : كم ؟ فقال : « خمسة دولارات » . . . يعنى جنيهين لكى ينقلنى من المطار إلى المدينة . . والمسافة لا تزيد على خمسة كيلو مترات . . . أعطيته الدولارات الخمس وأنا مذهول من وقوفه أمامى . . إنه ينتظر « البقشيش » . . . ولا أعرف ماذا أعطيه . . فأعطيته نصف جنيه !

الفندق أنيق جداً . . واتجهت إلى الغرفة . . إنها واسعة طولها عشرة أمتار وعرضها سبعة أمتار . . وأرضها مفروشة بحصيرة جميلة مصنوعة من ليف النخيل . . وبالغرفة مقاعد ومكاتب ولها شرفة تطل على البحر . . تطل على خليج وبكيكى – لا تخلط بين هذه الكلمة وبين كلمة وكويكى التى معناها بلغة هاواى : بسرعة !

أما إيجار الغرفة فهو تسعة جنيهات فى اليوم . . لا فطور ولا غداء ولا عشاء . . مصيبة سوداء !

وفى المطعم عرفت أنه لا توجد هنا فنادق درجة أولى ودرجة ثانية . . وإنما الفنادق

هنا هكذا . . درجة أولى ، ودرجة أولى ممتازة ، ودرجة أولى خاصة . . ثم الفيلات !

وفى المطعم جلست خائفاً متحسراً لا أدرى ماذا أصنع : أنا ميت من الجوع . . فالأكل فى الطائرة يوجع البطن . . إنه خليط من السكر والملح ، وكل الأكل بارد . . الصلصة عليها سكر ، الليمون منقوع فى العسل ، الزيتون مزروع فى المربى .. اللبن مثلج .. الشاى بارد !

وجاءت الجرسونة اليابانية – هنا ٤٠٪ من السكان الأصليين يابانيون – فطلبت منها قطعة من اللحم المشوى وبعض الشوربة الساخنة والسلطة الخضراء . . وبلاش شاى وبلاش قهوة وبلاش فاكهة . والناس حولى يأكلون كميات كبيرة من الطعام والسلاطات والفواكه . . فلابد أنهم سيدفعون مبالغ خيالية . . وبعد الأكل طلبت من الجرسونة : « الحساب من فضلك » فكتبت ورقة وطلبت منى أن أدفع هناك . . وأشارت إلىّ حيث تقف فتاة أمريكية عملاقة . . ونظرت فى الورقة وكاد يغمى على . . تصّوروا أن هذا الطبق التافه كلفنى ثلاثة جنيهات . . قطعة من اللحم وإلى جوارها بعض البرسيم والأعشاب بثلاثة جنيهات !

كاد عقلى يطير منى . . وبدأت أفكر فى الهرب من هذا الفندق . . وبدأت أسأل عن بيوت يابانية أو صينية . . وأعاود النوم على الأرض كما كنت أنام فى اليابان . . مأساة ! . .

ألا يوجد فى هذه البلاد فقراء ؟ ألا يوجد أناس متوسطو الحال ؟ أليس بين الأمريكان واحد ليس مليونيراً ؟

فتذكرت الناس الجالسين إلى جوارى والمبالغ التى سيدفعونها . . .

لقد طلبوا نصف خروف أو نصف بقرة وعشرات من زجاجات البيرة والنبيذ وأكواباً من الفواكه وبراميل من القهوة . . مع أن أشكالهم لا تدل على أنهم من الأغنياء ... ويبدو أن الأمريكان لا يهتمون بمظهرهم كثيرًا فأنت لا تعرف الفرق بين الغنى والفقير أو بين الكبير والصغير .

ومن شرفة غرفتى . . نعم غرفتى فليس أمامى إلا أن أملأ صدرى بالهواء النقى جدًّا ،

وأملأ عيني بالوجوه الحلوة التي تتناول العشاء في ضوء المشاعل ، وإلا أن أشاهد بنات هاواي يرقصن حافيات على رمال الشاطئ ، وعلى نقر الطبول وعويل الجيتار . . . من شرفة غرفتي جلست أشرب الدنيا وآكلها مجاناً ، وأمصمص شفتي وأنا أتطلع إلى بنات هاواي !

وبنت هاواي ترقص هنا بمايوه قطعتين ، ووراء إذنها وردة كبيرة وحول رقبتها عقد من الورد ، والأمريكان جالسون على الرمل يصفقون . وفي جانب آخر من البلاج أرى أشباح شبان في عناق طويل . وأرى الأشباح تتقارب وتتعانق ويصبح الشبحان شبحاً واحداً ، ويختفي الشبح على الرمل ، ثم يختفي الظل ، ويصبح حفرة في الرمل . . يدوسها الناس . . .وتتكرر عملية الأجسام التي تتحول إلى أشباح ثم إلى حفر في الرمل وإلى صمت . . ثم إلى حسرات – أقصد نفسي !

وفي اليوم التالي أكتشفت أماكن أرخص . . ولكنها لا يمكن أن تكون كاليابان الغالية أو الفليبين الغالية جداً . . . إنها طبعاً أغلى بزمان !

«وحمام ساخن، ونومة حتى الصباح، وبعض الموسيقى، وبعض الصحف، وكوب من اللبن الدافىء . والمشاعل على الشاطىء والوجوه السعيدة . . كل هذا أعاد إليّ روحي . . وفي ساعة مبكرة فتحت النافذة على شمس جديدة تنسحب على مثل المشمع الأزرق الذي ينسحب إلى الشاطئ كأنه يريد أن يسمع ما يقوله المستحمون . . .

هذه جزر هاواي . . أجمل جزر رأيتها حتى الآن . . أجمل من كابري . . وأجمل من صقلية ومن قبرص ومن سيلان ومن سنغافورة ومن بالي ومن هونج كونج . . جزر هاواي تضم أكثر من ١٢ جزيرة صغيرة ، ولكن أشهرها جزيرة ماواي ، وجزيرة أواهو وفيها هونولولو عاصمة ولاية هاواي كلها . وجزيرة ماوائي ، وجزيرة كاوائي ، وجزيرة نيهاو ، وجزيرة مولوكائي ، وجزيرة لانائي . . وهم هنا ينطقونها بالهمزة فيسمونها : هاوائي أو هافائي . . ويضعون هذه الهمزة على الحروف اللاتينية كما نضعها في العربية . . ومن الغريب أنهم يسمونها ، (همزة) أيضاً . . ولا يعرفون من أين جاءتهم

هذه الكلمة . . وقد لاحظت وجود كلمات عربية فى لغتهم مثل : كاهن وحكيم وحب وحبلى وواهنة وقوى . .

وكلمة (ألوها) هنا ، تجدها فى كل مكان ومعناها : أهلا أو وداعاً . .

أو معناها : نزلت أهلا أو تركت أهلا .

وهناك شركات طيران اسمها شركات طيران أهلا وشركات ملاحة أهلا . .

وجزر هاوائى عدد سكانها نصف مليون . . وسكان جزر هاوائى معظمهم من الجنس الأصفر الذى ينتمى إليه سكان اليابان والصين والفلبين ، والباقى ينتمى إلى الجنس الأبيض أو القوقازى .

وعندما اكتشفت هذه الجزر سنة ١٧٧٨ كان عدد الهوائيين حوالى ٥٠ ألفاً . . وبعد اكتشاف هذه الجزر مات معظم هذا العدد بسبب مرض الحضارة الحديثة – لاحياء فى العلم : أمراض الحضارة هى الزهرى والسيلان ! ولم يبق الآن من هؤلاء الهوائيين سوى عشرة آلاف . . وهذه الآلاف لا يمكن أن تجدها إلا فى الجزر البعيدة المقفلة .

أما أبناء هاوائى فهم الآن أمريكيون . . وأحياناً يبالغون فى (أمركتهم) لدرجة أنهم يسخرون من الأمريكيين . . أما الأمريكان فيسكتون أو يضحكون . . فليس فى أمريكا أمريكى واحد إلا الهنود الحمر ، أما الباقون فقد جاء معظمهم من أوربا . . فكلهم أجانب مثل أهل هاوائى ، ولم أسمع واحداً يقول إنه أمريكى إلا (المحدثون) ، أى الأمريكان الجدد ، أما الأمريكان القدامى فهم يقولون إنهم من إنجلترا وفرنسا أو ايرلندا ! .

وجزر هاوائى هذه قد عرفت الأمريكان منذ وقت طويل ، منذ حوالى ١٨٠ سنة عندما بدأ رجال التبشير ينزلون إلى هذه البلاد واحداً بعد واحد ، وكانوا يدعون إلى المسيحية . . ويفتحون الطريق أمام الدول الكبرى لكى تستعمر هذه الجزر . ليس هذا إلا رأى الكاتب الأمريكى جيمس متشنر فى كتابه الأخير عن (هاواى) وبه ألفا صفحة ، وربح فيه ثلاثة ملايين دولار !

وبعد رجال الدين جاء رجال الأعمال واحداً بعد واحد . . ورجال الأعمال هم الذين أتوا بالعمال اليابانيين والصينيين . . وقد ظلت هاوائى مجموعة من (العزب) أو (الإقطاعيات) لأصحاب الأعمال الأمريكان . . ولا يزال هناك حتى الآن جزر كاملة تملكها عائلات ولا يدخلها أحد . . فجزيرة (نيهاو) تملكها عائلة واحدة ولا يمكن دخولها إلا بإذن خاص . . وعدد سكان هذه الجزيرة حوالى ٢٠٠ نسمه . . وغرض هذه العائلة أن تبقى الحياة فى هذه الجزيرة كما كانت من مئات السنين . . فعلى الرغم من أن بهذه الجزيرة أحد الآلات لزراعة القصب واستخلاص السكر . . وزراعة الأناناس ووضعه فى العلب ، فإن الحياة فيها بدائية .

وهناك جزيرة أخرى تملكها إحدى الشركات هى جزيرة لانائى ، وجزر هاوائى تزرع القصب والأناناس وتبيع منه سنوياً ما يعادل ٣٠٠ مليون دولار . . وهناك زراعات وصناعات أخرى أدت إلى رصف الشوارع . . وكثرة الخطوط الجوية والملاحية والمطارات والموانئ . . . والمحطات التجارية هنا مليئة بالبضائع الأمريكية . وكل الناس هنا يعملون وكلهم يرتدون الملابس النظيفة ولا تجد فى الشوارع إلا عدداً قليلا جداً من المشاة . . والأتوبيسات هنا فخمة ، وثمن التذكرة بين محطة وأخرى ٢٠ سنتاً أى ما يساوى ثمانية قروش !

وهذه مطاعم يابانية وصينية وكورية . . وصناعات يابانية أيضاً . . والمنافسة بين أمريكا واليابان على أشدها . ويبدو أن الصناعات اليابانية أدق وأصغر وأرخص وأكثر.

الفندق الذى أنزل به تنعقد به لجان كل يوم . . لجان كثيرة . . هذه لجنة تحسين العاصمة . . وهذه لجنة عمل أنفاق تحت الأرض . . ولجنة بناء برلمان . . ولجنة تحسين المطار الدولى وتخفيف ضغط الطائرات النفاثة التى تزعج العاصمة ، فالطائرات النفاثة الحربية والمدنية تنزل وتطلع بمعدل طائرة كل خمس دقائق ليلا ونهاراً !

والديانة هنا هى المسيحية ، وإن كان بعض الصينيين واليابانيين لا يزالون يتمسكون بالديانة البوذية . . ولكن عددهم قليل جداً .

* * *

وعندما جاء جيمس كوك الرحالة الإنجليزى الذى اكتشف هذه الجزر ، واكتشف أستراليا أيضاً ، ظنه الهاوائيون أحد الآلهة . . فهو طويل أبيض اللون أصفر الشعر أزرق العينين . . وظنوا أن سفينته هى جزيرة عائمة . . وظنوا أن ساريات السفينة أشجار فى هذه الجزيرة . وعندما نزل كوك فى جزيرة هاوائى ، أقبل عليه الناس ساجدين راكعين . . وأدرك كوك أنه إله فأمعن فى إظهار المعجزات فأمسك سيجارة وأشعلها وراح يطلق الدخان من فمه والناس فى ذهول . . ثم أخفى يديه فى جيب الجاكته فظن الناس أنه يستطيع أن يضع يديه فى أحشائه ويخرجها دون أن يموت . ثم أن معه عصاً ينطلق منها دخان ولهب ولها دوى مروع . . وخروا ساجدين لهذه العصا السحرية ، وكانت تلك العصا نوع من البنادق القديمة !

وكانت الديانة هنا تحدث الناس عن اليوم الذى ستبعث فيه الآلهه بمن يزور الجزيرة ويخلصها من لعنات الآلهة (بيله) آلهة النيران والبراكين ، التى تزور جزر المحيط الهادى الواحد بعد الأخرى . ثم تستقر آخر الأمر فى جزيرة هاوائى حيث تنطلق النيران من براكينها . . وعندما هبط كوك أيقن الناس أن هذا هو الإله المنتظر !

ويظهر أن كوك كان مستبداً قاسياً ، فأحس الناس أنه لا يختلف كثيراً عن الآلهة القساة ، ويظهر أن الناس — حتى البدائيين — لا يتحملون القسوة ولو من الآلهة . وفى مرة تشاجروا معه وجرحوه . . وسالت الدماء من (كوك) وكانوا يعتقدون أن كوك لا يمكن أن يصيبه أحد أو يقتله أحد . . ومنذ تلك اللحظة وهم ينظرون إلى كوك على أنه غريب وأنه يريد أن يستولى على أراضيهم . . وقد حدث أن سرق بعض بحارة كوك زورقاً من ملك هاوائى ، وهنا هجم أحد الهوائيين على كوك وقتله . . ودفن كوك فى جزيرة هاوائى .

وقد أطلق كوك على جزر هاوائى اسم جزر (ساندوتش) متيمناً بالإيرل (ساندويتش) أميرال البحرية البريطانية فى ذلك الوقت . . والإيرل ساندويتش هو أول من وضع اللحم والأرز فى رغيف . . فأطلق على هذا النوع من الطعام اسم (ساندويتش) . . .

وغيرت الجزر اسمها ، وأصبحت هاوائى . . ونسى الناس من هو (ساندويتش) وإن كانوا يأكلونه كل يوم !

وقد حاولت كل الدول الكبرى أن تستولى على هذه الجزر الجميلة ذات الموقع العسكرى الخطير . . حاولت بريطانيا ثلاث مرات ، وفرنسا مرتين ، والاتحاد السوفيتى مرة . وليس للاتحاد السوفيتى هنا إلا قلعة اسمها روسيا وحاولت أن أرى هذه القلعة فلم أجد إلا الاسم .

وكانت جزر هاواى مجموعة من الممالك المستقله . . ثم توحدت تحت ملك واحد هو الملك كاميها ميها الأول . . وتوالى بعده الملوك والملكات . . ولكن رجال الأعمال الأمريكيين استطاعوا أن يمهدوا الطريق إلى رأس المال والنفوذ الأمريكى حتى تحولت هذه الجزر إلى أرض تابعه لأمريكا فى أواخر القرن الماضى . . ثم استقلت واعترفت باستقلالها وصار لها حاكم أمريكى . . وبعد ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٥٨ أعلن قبولها عضواً فى الولايات المتحدة فكانت الولاية الخمسين . . وعلى أثر انضمام هذه الولاية لأمريكا أعلنت بعض الاحزاب فى الفلبين رغبتها فى الانضمام لأمريكا باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ جزر الفلبين من التمزق والانحلال والفساد . . ولكن أمريكا هى الأخرى لها وجهات نظر فى الفلبين . .

والحياة هنا فى جزيرة (أواهو) وعاصمتها هونولولو . . هادئة جداً ليس بها حوادث . . والنظرة للصحف المحلية تجعلك تشعر أنك فى عزلة تامة عن العالم كله . . لا حوادث ولا قتل ولا جرائم ولا ضرائب . . كل شىء هادىء ناعم . . وأعلى الأصوات هو صوت أمواج البحر . .

ونحن ننام والنوافذ مفتوحة وبلا غطاء ، والأضواء فى غرفتى وفى كل الغرف مغطاة خافته كأصوات الناس . . وكل شىء عليه فلتر . . كل شىء نظيف . . كل شىء نقى . . الرمل أصفر فى لون حبات الرمان ولون شفاه الفتيات هنا . . وأشجار جوز الهند أوراقها مدلاة كضفائر الفتيات الصغار . . والهواء يضرب الوجوه فى خفة كأنه فستان هاوائى واسع ، والقبعات من سعف النخيل . . وكل فندق له حمام سباحة ، برغم أن

كل الفنادق تطل على المحيط . . وأمام الفنادق توجد زوارق هاوانى المزدوجة .

وتوجد عشرات الألعاب المسلية . . فهناك مثلا جمعية غريبة ولكن الإقبال عليها هائل . . وهى جمعية (جمع محار القواقع) ، ولها مواعيد ، ولها رحلات وسيارات وطائرات . .

وهناك جمعية أخرى لصيد الحشرات الغريبه . . وكل شيء هنا يقابله الناس باهتمام ، برغم أنه يبدو سخيفاً .

والناس جاءوا إلى هذه الجزر وفى نيتهم شيء واحد : أن يستريحوا على الآخر ، فى الغرفة المجاورة لى عريس وعروس ، وفى الغرفة التى فى آخر الممر عريس وعروس . . وكل يوم يتغير الورد ، ليتمشى مع لون الفستان . كل يوم وفى الصباح يتمدد الناس فى البلكونات أو على الشاطئ . . ويسبحون ويغوصون تحت الماء . . وفى الليل تضاء المشاعل وفى ضوء المشاعل يجلس الناس فى هدوء تام ، ويأكلون ثم يترلون إلى الشاطئ وهنا تنتظرهم فرق الموسيقى الهاوائية . . والرقصة التقليدية هنا هى رقصة (الهولا) ، وهى رقصة سهلة قريبه من البوليرو . . أو (الفوكس تروت) السريعة . . وفتاة واحدة ترقص وتتلوى فى مكانها وقد ارتدت فستاناً من قطعتين وعرت وسطها كما تفعل السيدات المحتشمات جداً فى الهند ، ثم عرت ساقيها وصدرها وبدأت ترقص ويصاحبها ثلاثة من الموسيقيين ، واحد منهم يغنى بلغة هاواى الغريبة . . فكل حروف هذه اللغة عددها ١٢ قطعة هى : هـ . ك . ل . م . ن . ب . ف ، والخمسة الحروف الباقية هى عبارة عن الضمة والكسرة والفتحة والسكون والشّدة . . ولابد من وجود المشاعل فى أثناء هذه الرقصة ، فهذه الرقصة لها قصة تاريخية ، فقد حدث أن شعرت الآلهة (بيله) آلهة النيران والبراكين بكثير من الملل والقرف ، ويقال إن هذه الآلهة تشعر بالملل عندما لا تجد ما تعمله ، ويقال إنها تشعر بهذا الملل عندما تشعل النيران فى براكين كل هذه الجزر . ولم تجد (بيله) شيئاً تتسلى به . . .

لم تجد (بيله) ما تعمله . كان شعورها مثل شعور الإمبراطور كاليجولا الطاغية الرومانى ، الذى لم يكن يحزنه فى الدنيا كلها غير شيء واحد ، هو أن الآلهة لم تخلق

للإنسان سوى عنق واحد . وكان يتمنى أن يكون للإنسان أكثر من عنق لكى يجد عدداً كافياً من الرءوس التى تروى ظمأه إلى الدماء . . ولم تجد هذه الآلهة سوى أختها الصغرى ، فطلبت إليها أن تسليها فرقصت لها أختها (رقصة الهولا) . . ويقال إن الأخت الكبرى قتلت أختها الصغرى بعد ذلك . . . فالرقصة لم تعجبها ولم تدخل السرور على نفسها . . فأعادت الأخت الرقصة مرة ومرة ولكن الأخت الكبرى لم تنشرح ، فقتلت أختها ، ورقصة (الهولا) هى فى الواقع صلاة على روح الأخت الطيبة التى أرادت أن تُسلى أختها الشريرة التى تتنفس النار والدخان من كل بركان .

* * *

وأحياناً يذهب الناس هنا إلى المطاعم عند السوق الدولية . . وهذه السوق الدولية يحاول أصحاب المطاعم أن يقدموا فيها الطعام والسلع من كل بلد فى العالم . . فقد عثرت على محل لبيع السجائر . . عنده سجائر من القاهرة ، ويقول أنه يحصل على هذه السجائر من شريك له فى أمريكا . . وهذا الشريك له شريك آخر فى تركيا ، وفى قلب السوق الدولية يوجد شبه مسرح ، وعلى هذ المسرح تتوالى الفرق الغنائية الموسيقية ، وتعرض فنون الرقص والغناء الغريب فى كل الجزر الجنوبية ، أو فى جزر الهاديات ، أو جزر المحيط الهادى . . وهذه الحفلات تقام مجاناً . . وفى نفسى أقول : آدى الدعاية والا بلاش .

ولابد أن الذى يقوم بهذه الدعاية هو إحدى شركات السياحة أو أحد المطاعم ، أو أحد المسارح . . ولكن لا تمضى لحظات على الرقصة الأولى والثانية حتى تعرف من الذى يقدم هذه الحفلات . . إنها إحدى شركات الطيران التى تدعو الناس لزيارة الجزر الأخرى . . حيث الحياة أجمل وأروع . . وكل شىء هنا تستغله الشركات للدعاية لشىء ما .

فمنذ أيام انفجر بركان فى جزيرة هاواى ، وكان البركان خامداً منذ خمس سنوات . . هذا البركان أدى إلى انفجار محطة الإذاعة — وأقصد محطات الإذاعة . هذه المحطات قد سخرت كل شىء للدعاية لزيارة البركان بأساليب عجيبة . . فمثلا يقرأ

المذيع نشرة الأخبار فى أقل من دقيقة . . ونشرة الأخبار هنا كل نصف ساعة ، ولا تكاد تنتهى النشرة حتى ينطلق مذيع آخر قائلا : البركان انفجر . . إن أروع منظر تراه فى حياتك هو من نافذة شركة خطوط أهلا . . ثم أغنية بعد ذلك . . ومذيع ثالث يقول . . لا شىء يقى العين من شر البركان إلا منظار زجاجى ماركة كذا . . وأغنية . . وصوت مذيع رابع ينطلق كالمدفع قائلا : بعد عودتك من البركان الذى درجة حرارته ١٨٠٠ مئوية حسب آخر تقارير العلماء فى المرصد ، بعد هذه العودة يجب أن تأخذ حماماً دافئاً ، وعلماء النفس يقولون إن النوم هو الشىء الوحيد الذى يريحك ، وإذا لم تتمكن من النوم فعليك بأقراص كذا . . وأغنية . . ومذيع خامس أوسادس يقول : الساعة الآن التاسعة بتوقيت البركان والساعة ماركة كذا . . وقد انقضى على انفجار البركان أكثر من ٢٠٠ ساعة وثلاث دقائق . . وأغنية . . ثم مذيع يقول : ماذا تصنع لو انفجر البركان تحت نافذتك لا تحاول أن يفكر .. أنا أقول لك الحل ! .. ضع اذنك على مخدة ماركة كذا . . لمدة ٢٤ ساعة كل يوم . . هذه هى (جزيرة أواهو) التى عاصمتها هونولولو ، الحياة فيها هادئة جداً . . ناعمة جداً . . المطاعم كلها موسيقى وغناء ورقص كل يوم . . فكل يوم عيد هنا . . كل يوم ربيع . . وكل الناس هنا معهم فلوس وأغنياء . . ولا يشكون من الأسعار مثلى ، ولا يضعون أيديهم على معدتهم أو قلوبهم قبل وبعد الأكل ثلاث مرات يومياً .

وعندما زار الأديب الأمريكى « مارك توين » هذه الجزر منذ مائة سنة قال : هذه الجزر هى أجمل سفن ألقت مراسيها فى هذا المحيط .

ولم يكن « مارك توين » قد رأى الجزر الأخرى ليقول إنها أجمل جزر ألقت عندها السفن مراسيها ، وألقت عندها الطائرات سلالمها فى هذا المحيط وفى أى محيط آخر .

موسيقى وغناء بلا توقف !

«هذه الجزيرة التى أعيش فيها الآن ليست لها مواعيد للرقص أو الغناء.. فالرقص والغناء يبدآن من الساعة التاسعة صباحًا أو قبل ذلك لاأعرف ، ويظلان طول النهار وطول الليل . . وبعد نهاية الرقص تظل الإذاعة تغنى حتّى اليوم التالى . . ولاأحد يعرف إن كان الذى يسمعه فى الشارع أو البلكونة هو صوت الناس فى الميكرفون ، أو من غير ميكرفون . . والإذاعة هنا تعمل ٢٤ ساعة . وعيبها أنها تكرر أغانيها فى اليوم ثلاث وأربع مرات . وهذا هو أحد عيوب الاستماع إلى إذاعة واحدة فقط . . أو الاستماع إليها !

فنى الدور الذى أقيم فيه توجد حفلة لجمعية اسمها جمعية (المتفائلين) وأصدقاء الطفل . . وفى الدور الذى يعلو هذا الدور توجد حفلة أخرى لبعض شركات الطيران وفى الدور الذى فوقه توجد حفلة مدرسة (وكيكى) الثانوية . .

وفى حديقة السطح توجد حفلة غداء لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس . . هذا فى الغداء . . أو بين الفطور والغداء . . وفى العشاء ينتهى برنامج الحفلات وتبدأ حفلات الشكر . . فالذين دعوا لهذه الحفلات يشكرون الذين وجهوا لهم الدعوة .

ثم حفلات الأزياء . . والورود . . ويسمون الورود هنا اللؤلؤ . . ربما لأنها ليست نادرة . . فاللؤلؤ عندهم مثل أم الخلول عندنا ، لاعدد له !

ثم الموسيقى هاوائية ورقص هاوائى وتصفيق وصلوات هادئة . . وحتّى بعض الأحيان يشكرون الله فى نفس واحد . . طبعًا يجب أن يشكروه على ماأعطاهم من هواء وأرض وفواكه ومصانع . . وأمريكا !

وفى ساعة متأخرة قليلا من الليل يبدأ الغناء على الشاطىء الرملى . . يبدأ عادة بأن يتحرك أحد الموسيقيين من أبناء هاواى وفى يده جيتار ، ويمر بأصابعه على الجيتار تحت نوافذ الفندق ، وكأنه روميو تحت شباك جولييت ، ويظل كذلك يلعب بأصابعه

ويلعب بلسانه . . لأن الأغانى كلها هنا تلاعب باللسان والأسنان . . وبين الحين والحين يقول : هؤ . . . هؤ . . . وهى نوع من الزغطة الغنائية . . وكأن (فلة) قد وقفت فى حلقه وكأن لسانه مربوط بها . ويحاول هو أن يقتلعها مستعيناً بضغط الهواء إلى الخارج . . ولكن لافائدة فيظل طول الليل يحاول بتشجيع الناس له . . إلى أن تطل عليه من النافذة أية فتاة فى مايوه . . وكل الفتيات هنا بالمايوه – وتبتسم وتطلب منه أن يعيد الأغنية – والتقاليد تقضى فى مثل هذه الحالة أن يعيد من الأغنية ولو جملة واحدة . . ويمضى إلى مكان آخر فهو يتفاءل بالفتيات الحسان اللاتى يقابلنه فى أول الليل . . والتقاليد تقضى بأن تنزل الفتيات من الشرفات ويمشين وراء هذا الموسيقار المتجول .

وهى طريقة لطيفة للإعلان عن مكان حفلة ستقام هذه الليلة . . وفى مكان على الشاطئ يتجمع الموسيقيون والراقصات ويتناقشون بصورة غنائية أو مجرد مناقشة باللغة الإنجليزية أو باللغة الهاوائية ، وبعد ذلك يمشون فى الشوارع إلى أماكن كثيرة جداً فى نفس مدينة هونولولو . وفى هذه المدينة تجد ماهو أغرب ، فالغناء والرقص فى كل مطعم . . فى كل بار . . فى كل حانة . . وهذا يحدث كل يوم وكل ليلة . . فليس فى هذه الجزيرة أية مواسم للسياحة أو للغناء أو للرقص . . كل سنة من فصل واحد . . وكل يوم من حفلة واحدة غنائية أو راقصة .

وهذا يضايقنا نحن الأجانب بعض الشىء . . فى الصباح عندما نجلس إلى المائدة ، وتضع على كل مائدة شيئاً نحجزها به . . كجريدة أو جاكتة أو مفتاح الغرفة . . ثم نذهب ونملأ أطباقنا ببعض الفواكه وعصير الطماطم وكلها مثلجة ونجلس ونرفع رءوسنا إلى أعلى لنبتلع هذه المثلجات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نحاول أن نلفت نظر الجرسونة إلينا . . ولكنها مشغولة جداً . . فهنا حفلة على اليمين ، وحفلة ثانية على الشمال . والحفلات التى فوق قد استعارت بعض الجرسونات وبعض الثلج . . ونحن لانريد – يعنى أنا وغيرى . . إلا بعض الشاى الساخن أو حتى القهوة . أى شىء ساخن . . وفى كل المرات لاتنظر إلينا الجرسونة أو تتجاوزنا كأننا لم نحضر أو كأننا قمنا من

وقت طويل . وأخيرًا تلتفت إلينا الجرسونة وتكتب الحساب وتتركه وتتركنا وفى الورقة مكتوب (إننا شربنا الشاى) .

وأحاول أن أقنعها بفنجان واحد . . ولاداعى للدورق الذى تملؤه بالشاى الساخن ، وأخيرًا تطلب منى أن أذهب إلى غرفتى وأطلب الشاى بالتليفون . .

وفعلا أذهب إلى غرفتى وأنزع ملابسى ، وأمسك الصحيفة الصباحية وأتمدد فى الفراش عريانًا كأى شاب رياضى ، أو كأى أمريكى مولود فى هاواى وأمـد يدى إلى التليفون وأقول : أريد بعض الشاى من فضلك .

واسمع من الناحية الأخرى من الخط (رد ما) لاأفهمه . . فأحاول أن أستوضح عاملة التليفون إن كانت قد قالت شيئًا له معنى وفاتنى أن أفهمه . ولكنها تصر على أن الذى قالته له معنى . وأنها ستحاول أن تجد لى فنجان الشاى . . وأقرأ الصحيفة مرة واثنين ، وأقلب فى بعض الكتب والنشرات ، وأدون بعض الملاحظات ، وقبل أن أرتدى ملابسى يرن جرس التليفون وأسمع أن هناك محاولات جادة لكى أحصل على فنجان الشاى ، وقبل أن أعلن لها عن عدولى عن الشاى ، تقفل عاملة التليفون السماعة . وقبل أن أقفلها ببضع لحظات أستمع إلى بعض الموسيقى فى راديو مجاور لها ، أو فى حفلة مجاورة أو فى غرفة مجاورة . . كل شىء هنا موسيقى ورقص فى كل مكان

وأنزل وأبقى فى الخارج ساعات أشرب فيها الشاى . . وأتناول غذائى . . وعندما أعود أجد الشاى فى غرفتى . . وألمسه بيدى فأجده قد برد وإلى جواره ورقة يجب أن أوقعها . . وأنظر فى الورقة فأجد أن فنجان الشاى ثمنه خمسون قرشًا ، ويدق جرس التليفون و (أزوم) أنا . . ويكون المتحدث جرسون البوفيه وسألنى إن كنت قد وقعت على الورقة الموجودة مع فنجان الشاى . . وأسكت لأستمع إليه وهو يغنى فأقول : الله . .

ويسألنى : ماهذا ؟ فأقول . . مبسوط . . ويستوضحنى بصوته الشجى ويقول : تقصد . . آلوها . . ومعناها مرحبًا ومعناها وداعًا . .

أقصد أهلا يابلاد الموسيقى والرقص . . ووداعًا يافلوس !

أنيس وثابت فى الميزان

ولكن ماالفرق بين رحلات « محمد ثابت » ورحلات « أنيس منصور » ؟ وما مكانة كل منهما فى أدب الرحلات فى أدبنا المعاصر؟

أستطيع أن أقول إن أدب « محمد ثابت » فى أدب الرحلات يعتبر أدب تسجيل ووصف ملىء بالمعلومات المفيدة والمشاهدات الممتعة .

وأدب « أنيس منصور » فى أدب الرحلات يعتبر مشاهد ومواقف ملىء بالطرفة والنكتة واللمحة والفلسفة . أى أدب حى مفعم بالحيوية والعذوبة يحوى تصويرًا للمشاعر والأحاسيس من خلال المشاهد والوقائع .

فرحلات « محمد ثابت » تعد من الأدب التسجيلى الوصفى

ورحلات « أنيس منصور » تعد من أدب المواقف والمشاعر ، فهى أكثر صقلا ونضجًا وعمقًا .

ولكن يبقى أن نذكر « لمحمد ثابت » فضل الرائد والأستاذ الذى قام بجولاته حول العالم ، فى وقت كانت فيه وسائل المواصلات محدودة وقاصرة ، ولم تكن متوافرة كما هو الآن ، كما أن النظرة إلى هذا اللون من الأدب لم تكن عميقة ومنصفة .

مفهوم أنيس منصور لأدب الرحلات

ولكن ماهو مفهوم « أنيس منصور » لأدب الرحلات ، وماهى نظرته أو نظريته لهذا اللون من ألوان الأدب ، وتصنيفه للرحالين ، واتجاهاتهم وأذواقهم ورأيه فيهم بكل صراحة ، يقول أنيس »[1] :

« هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

---

(١) أنيس منصور أعجب الرحلات فى التاريخ / المكتب المصرى الحديث ١٩٧٣ / ص ٣ – ٤ .

– أن تسافر . .

–وأن تقرأ الكتب . .

– وأن تقرأ كتب الرحلات .

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف.. يريد أن يفهم . . يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . .

والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد ، وبين أن تسافر لتعرف الناس

والذى يسافر كثيراً يعرف الكثيرين ، ولكنه يصادق القليلين . .

والمثل الإغريقى يقول : إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب . .

أى عشب الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضرورى أن ينبت العشب على الحجر . . ليس ضرورياً . . يكفى أن الحجر يتحرك ويتنقل ويذهب هنا ، ويصطدم هناك . . ولكنه يمضى ويسجل فى أعماقه هذه الفوارق العريضة العميقة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أى ماالذى فعلته الشعوب فى تاريخها . . وبتاريخها أيضًا . .

المهم أن يتحرك . .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى ، هو فيلسوف والذى يروح ويجىء ولايقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى !

وفى الصفحات الأولى من ملحمة « الإلياذة » نجد الشاعر الأعمى « هوميروس » يتحدث عن البطل فيقول : إنما راح وصارع وتعذب وانتصر وسجل مارأى ليعود ويقول للناس شيئًا جديدًا مثيرًا ممتعًا !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا ، لم يتغير منهم شىء . . وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شىء ، ولم يتسلل إليها شىء . . والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصانًا !

وعندما شكا أحد تلامذة «سقراط» من أن السفر لم يفده ولم يغيره ، قال له

« سقراط » : من الطبيعى ألا يفيدك السفر شيئًا لأنك سافرت مع نفسك !

فالطبيعى جدًّا أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيدًا عن بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه المجهول الذى يتحدانا ونتحداه . . إنها متعة المعرفة والخوف منها معًا . . ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرهبة . . من الشجاعة والخوف . . ولكن الإنسان يفضل دائمًا أن يعرف المجهول مهما كان الثمن . . وكثيرًا مادفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون أكثر . . ولابد أن تعاستهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا ماالذى رأوه . .

« ولأنيس منصور » رأى فى كتب الرحلات وفى الذين يقومون بهذه الرحلات ، يفصح عنه فى هذه السطور الصريحة[1] :

«أما كتب الرحلات فهى أعماق للآخرين.. وأعماقنا نحن أيضًا.. وأعماق هذه الدنيا . . ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى نقوم بها فى رحلات الآخرين . . نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ، نرتمى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معًا . . وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة . . أن نفعل مثلهم . . نسافر مثلهم ونكتب مثلهم . . وننفع بلادنا فى النهاية . .

ولاخوف إذا سافرنا . . ولاخوف إذا قصرت رحلاتنا . . ولاضرر إذا لم ننجح كما نريد . .

وإنما المهم أن نروح ونجىء . . أن نرى ونروى . . أن نعيش ونثبر . . أن ننتفع وننفع . .

ولا أزال أذكر ما قاله الحريرى فى كتاب « المقامات » :

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذى يهوى به المطر

فإن رددت فما فى الرد منقصة عليك ، قد رد موسى قبل والخضر

ونحن فى عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى . .

---

(١) أنيس منصور / أعجب الرحلات فى التاريخ / المكتب المصرى الحديث ١٩٧٣ / ص ٩ - ١٠ .

وإذا كنا لانعرف الكثير من هذه الكواكب ، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية . . فأمريكا وروسيا ، لاتسمحان إلا بالقليل من المعلومات . . وحتى لو سمحت الدولتان ، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ، ولذلك لايعرفون كيف يصفون . . حتى الجملة الوحيده التى قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض . . فلما رددها أخطأ فى النحو ! .

ولكن المسافر ، يجب أن يكون قادراً على الاحتمال ، وقادراً على الملاحظة . وقادراً على أن يروى بعد ذلك . وأن يكون ممتعاً . . وهناك عشرات سافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجديدة . . وأساءوا فهم مارأوا . . ويرعوا فى فهم مارأوا . . ولكنهم دائماً يستحقون الإعجاب . ويستحقون أن نلتفت إليهم وأن نتعلم منهم . . وأن نلاحقهم جرياً وراءهم بأقدامنا وعقولنا وخيالنا . .

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صياداً يرحل من مكان إلى مكان ، ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب ، أن يسافر فى بلاده ليعرفها . . وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره . . وليضيف إلى تاريخ بلاده . . تجارب الآخرين . . فليس أروع من السفر . . وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرون على ذلك » .

ولقد كان نتاج ذلك فى أدب الرحلات الكتب التالية :

١ – حول العالم فى ٢٠٠ يوم

٢ – بلاد الله خلق الله

٣ – غريب فى بلاد غريبة

٤ – أعجب الرحلات فى التاريخ

وأرى أن نتوقف لبعض الوقت أمام بعض هذه الكتب لنتعرف على أبعادها وقيمتها الفنية ومكانتها بين أدب الرحلات .

حول العالم فى ٢٠٠ يوم

صدر هذا الكتاب لأول مرة عام ١٩٦٣ ، وأحدث صدوره صدى كبيرًا فى الأوساط الأدبية والصحفية ، ووزع توزيعًا ضخمًا حتى أصبح أكثر الكتب توزيعًا بشهادة منظمة اليونيسكو ، حيث طبع عدة طبعات نفدت كلها .

وقد أثار الكتاب إعجاب « الدكتور طه حسين » يومئذ ، فكتب مقالا فى صحيفة « أخبار اليوم » سجل فيه مدى متعته بقراءة هذا الكتاب ، ومما قاله فى هذا المقال :

« هذا كتاب ممتع حقًّا تقرؤه فلاتنقص متعتك بل تزيد كلما تقدمت فى قراءته » .

«ومع أنه من الكتب الطوال جدًّا فميزته الكبرى هى أنك حين تقرؤه لاتحتاج إلى راحة وإنما تود لوتستطيع أن تمضى فيه حتى تبلغ آخره فى مجلس واحد ، لأنك تجد فيه المتعة والراحة والسلوى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع .

ومن المحقق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة .

«من يدرى ، لعلها أن تمتاز عنها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو الروح خفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزيد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التى يسجلها فى كتابه .

«وإنما هو يمضى فى الكتابة مع اليسر والإسماح ، مرسلا نفسه على سجيتها ، مطلقًا لقلمه الحرية فى الجد والهزل وفيما يشق ومايسهل ، لايتكلف الفصحى ولايتعمد العامية . وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجتين .

«وهو لا يقصد إلى أن يبهرج ولا إلى أن يغرب عليك فى لفظ أومعنى ، وإنما يستجيب لطبعه ، ويظفر بإرضاء الطباع السمحة التى تكره التكلف والتحذلق والاسفاف .

«وقد أخذت فى قراءته ذات يوم فكان أشد ماأضيق به العوارض التى تعرض

---

(١) د. طه حسين / أخبار اليوم أغسطس ١٩٦٦ .

فتصرفك عما أنت فيه على كرهك لهذا والضجر به . والإحساس الذى لايفارقك فى أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد مايشهد ، وتسمع مايسمع ، وتجد مايجد من ألم أو لذة ومن سخط أو رضا ، تسافر معه وتقيم حين يقيم مع أنك لاتبرح مكانك ، وإنما هى براعة الكاتب وإسماحه يستأثران بك ، ويخيلان إليك أنك تلزمه فى حركته وسكونه ، كأنك ظل له لاتفارقه .

« وأشهد بأنى وجدت هذا الشعور منذ أخذت فى قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه » .

* * *

ويصف « أنيس منصور » تجربته التى ضمنها هذا الكتاب المثير الممتع فيقول[1] :

« لقد كان العالم كتابًا كبيرًا عريضًا طويلاً غنيًّا بألفاظه ومعانيه .. كنت أقرأ بعقلى وقلبى ، وأقلب الصفحات بيدى ورجلى . . وكنت أضع حقيبتى الوحيدة فى مهب الطائرات والعواصف .

وأنا لاأدعى أننى ألممت بكل شىء .. ولارأيت كل شىء .. ولاحتى رتبت هذا الكلام ، وإنما نشرته كما كتبته . . . بنفس الانطلاق والسرعة والمرح . . . فقد كان المرح والسخرية هما « التعويض » الوحيد الذى كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة .

« فقد كنت مسافرًا وحيدًا ... فى يدى حقيبة بها ملابس قليلة جدًّا ، وكلما بليت الملابس ألقيتها واشتريت غيرها ..

« وقد مللت السؤال الذى لا يتغير فى جمارك العالم كله : هل هذه كل أمتعتك؟

فأهز رأسى قائلا : نعم .

ويسألوننى : نعم .

ويكون ردى : أريد أن أكون خفيفًا . . فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة ، وقلبًا ثقيلاً أيضاً !

---

(١) أنيس منصور / حول العالم فى ٢٠٠ يوم / المقدمة .

«وقد جاءت فصول هذا الكتاب صورة لأفكارى ومتاعبى ومشاكلى...

فقد كتبت هذه الفصول ، جالسًا مقرفصًا.. فى سريرى ، هربًا من البعوض ، وأحيانًا خوفًا من الأفاعى والعقارب . وكتبتها تحت أشجار الموز ، وكتبتها فى ظلال جوز الهند ، وعلى منضدة أستأجرتها من حديقة الدومين فى مدينة سيلنى ، وكتبتها على مصابيح الجيشا فى كيوتو ، وسجلتها وأنا مريض ، وسجلتها وأنا خائف من الطريق الطويل الذى لم يمش فيه أحد قبلى .

وكنت أتفاهم بكل اللغات التى أعرفها ، وكنت أتفاهم بالإشارة ، وكنت أتفاهم عن طريق التراجمة ، وعن طريق تراجمة للترجمة .

ثم يقول « أنيس منصور » فى مقدمة الطبعة الثانية :

« ولو طلبت منى أيها القارئ أن ألقى قلمى الآن وأدور حول العالم من جديد ، نفس الطريق ، ونفس الأمراض ، ونفس المخاوف ، فإننى لن أتردد . . فليس فى الدنيا أروع من السفر وذكريات السفر ، وليس أروع من أن يستمتع بقراءتها بعد ذلك كل الذين لم يسافروا ، وكل الذين يحلمون ببلاد بعيدة جديدة .

ومن الأدباء الذين أعجبوا بهذا الكتاب وترك لديهم أعمق الأثر وأبلغه الأديب الكبير « محمود تيمور » الذى قال عنه [١] :

«لا ريب أن كتاب «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» من خير ما أنتج «أنيس منصور» . . ولعل إيثارى له يرجع إلى شغفى بالرحلات وكتب الرحلات ، حتى أنى أقحمت نفسى فى هذا الميدان ، بما كتبته فى وصف بعض السفرات التى قمت بها فيما وراء البحار . . .

«وكاتب الرحلات الناجح لابد أن تتوافر له ألمعية الملاحظة ، ورهافة الفطنة ، وسرعة الالتقاط ، والقدرة على استبانة الملامح والمعالم ، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة ، وما يتصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع الاجتماعية التى لا تخلو من غرابة . . وكل هذه المؤهلات تستجمع للأستاذ « أنيس منصور » وهو يضرب

---

(١) المصور / صورة وصفية / ٢٣ يونية ١٩٧٢ .

بعصاه الأرض ، ويشع نظراته هنا وهنالك ، فتخترق الزوايا والخبايا . . .

وفى هذا الكتاب تتجلى روح الظرف والمنادمة ، وفيه أوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات فى أسلوب كثير التوابل .

ولى مع هذا الكتاب قصة :

اشتريته ، استعظمت حجمه ، فتهيبت أن أشرع فى قراءته ، كما استعظمت من قبل « الإلياذة والأوديسة » ، متهيباً أن أمضى فى قراءتهما بادئ ذى بدئ ، وتركت كتاب « أنيس منصور » على مكتبى أخالسه النظر بين يوم ويوم ، لا أمد إليه يداً . . رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام ، وأكثر من سمائة صفحة من القطع الكبير . .

وساعة وجدتنى أتملى بعض صحائفه ، وأنظر فيما صور من صور ، وبغتة ألفيتنى كأنما تهبط بى طائرة حوامة « هليكوبتر » فى هونج كونج . . .

وسرعان ما طوتنى زحمة الناس فى أسواقها وطرقاتها ، أتطلع إلى مبانيها الشواهق ، وأجوب دروبها الملأى بغرائب السلع ، ثم أعطف على نواديها الليلية ذات الطابع البراق . . ووقعت عينى على هذه الفقرة :

الصينى رجل متفوق فى عمله ، يفكر بيديه ، ويتفلسف بمعدته ، لذلك الأدب هزيل عنده . . والموسيقى تدل على براعة الصينيين فى شىء واحد ، هو أنهم استطاعوا أن يحبسوا عشرات القطط والفيران فى آلاتهم الموسيقيه ، « فالبيانو » صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ، ضد « عرسة » كاسرة . . . أما القيثارة فهى تشبه أفعى قد تكومت على صدر أحد « الحواه » تنتظر عصفوراً أطلقه أحد المتفرجين . . أما بقية الأصوات الموسيقية ، فهى تشبه ضرب الحلل بالملاعق . . ثم ضرب المستمعين بالجزم ! !

ومضيت أقرأ . . واندمجت فى القراءة . . وكل جارحة فى جسدى تبتسم .

وأقبلت على اليابان . . . وأنست ببنات الجيشا . . وهبطت أمريكا . . وزرت هوليوود . . وتركت مدينة السينما والهواة والشباب . . ونسيت نفسى . . حتى أيقظتنى

الصفحة الأخيرة من الكتاب فإذا بى لم أقرأ إلا شطر الكتاب الثانى ، فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة ، لأستكمل قراءة الرحلة .

ولقد أعادت رحلة « أنيس منصور » إلى ذاكرتى كتاب « جول فيرن » المسمى « الطواف حول الأرض فى ثمانين يومًا » . . . والشىء الباعث على الحيرة هنا : كيف استطاع « جول فيرن » إتمام طوافه فى هذه المدة القصيرة ، وهو يتخذ وسائل المواصلات القديمة ، من بواخر بدائية إلى فيلة بطيئة الخطا ، إلى نعال غليظة تعوق السير – على حين استنفدت رحلة « أنيس منصور » أكثر من ضعف هذه المدة – وهو الذى كان لا يترك فى تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى ! . .

إن هذا حقًّا لغز ، وما أحسب أن حله بالأمر اليسير !

«ليس كتاب «أنيس منصور» المحتوى على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون ، فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة . سواء أكانت فى آفاق الأرض المحدودة ، أم كانت فى العوالم الفكرية التى ليس لها من حدود » .

أعجب الرحلات فى التاريخ

يعد أدب الرحلات من أكثر ألوان الفنون الأدبية إثارة ومتعة .

ولقد أتيح « لأنيس منصور » أن يرحل إلى بلاد كثيرة فى القارات الخمس ، وأن يسجل لنا مشاهداته وخواطره عما رآه وعما مر به من تجارب خصبة ثرية فى تلك الجولات بأسلوب صادق شفاف .

وقد اكتسب « أنيس منصور » مكانة خاصة متميزة فى أدب الرحلات ، بحيث عد من أعلامه وكبار رواده المعاصرين ولما كان « أنيس منصور » أحد كبار الرحالة المعاصرين أو السندباد العصرى ، فقد أراد أن يسجل تجارب الذين سبقوه فى هذا المجال ، فكان كتابه « أعجب الرحلات فى التاريخ » ، تسجيلاً ممتعًا ومثيرًا لتلك الرحلات الجريئة التى قام بها رواد الرحلات فى التاريخ القديم والمعاصر شرقًا

وغربًا . فماذا قال عنهم ؟[1] .

« إن كثيرين رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ « هيرودت » جاء إلى مصر وعاد ورأى العجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى فى مهرجان الألعاب الأولمبية . . و « الإسكندر الأكبر » جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الآلهات أن ينفرد بها . . وهمست فى أذنه بسر الكون .

والقائد « هانيبال » أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطًا إلى روما . . حتى يقضى على كل رومانى وحتى يمسك فى يديه مصير مدينة روما إلى الأبد .

والرحالة الإيطالى « ماركو بولو » . . أهانته فتاة يحبها . . فأقسم ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه عشرات الفتيات الجميلات . . ويرفضهن جميعًا وعاد ولم يجد الفتيات . . . ولم يحزن على ذلك . . فالذى رآه أروع وأصدق !

و « ابن بطوطه » هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها . . . وعاد ليروى ما حدث له فى عشرين عامًا من الذاكرة والرحالة « ابن جبير » الكنانى الأندلسى الشاطبى قد تعب كثيرًا من رحلاته فى الشرق الأوسط . . . ولكنه فى النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله على ذلك .

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة . . ولو خيرناهم فى أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . . فهم يريدون أن يستمروا . . . أن يمضوا حتى نهاية الرحلة . . . أو نهاية الحياة . . .

وفى كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . . وكيف حدث . . ولكنى قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية .

ويقال إن « هيرودت » المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هربًا من البوليس . . فقد اتهموه بالاشتراك فى مؤامرة . . . وقد حاول « هيرودت » أن يجعل لرحلته إلى مصر معنى نفسيًا أو فلسفيًا . . مع أنه ليس إلا مجرمًا هاربًا ، حاول أن يستفيد من منفاه !

ولابد أن صاحب هذا الرأى لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر والمعرفة . . .

---

(١) أنيس منصور / أعجب الرحلات فى التاريخ / ١٩٧٢ / ص ٤

فلابد أن يكون هناك سبب . . . فالغرض من السفر هو أن يخفف الإنسان من عذابه . . . أن يلقى بهمومه على الشواطئ الجديدة . . . ويرميها على الوجوه الجديدة . . .

هذا المعنى أيضًا نجده فى الصفحة الأولى من « ألف ليلة وليلة » . . . فهذه الليالى هى شكل أدبى لكى يروى لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر . . وعادات غريبة فى بلاد غريبة . . . وليس صحيحًا أن هذه الليالى كانت بسبب خيانة زوجة « الملك شهريار » أو زوجة أخيه « الملك شاه زمان » . . — كما يقول « أنيس » — فألف ليلة تبدأ بأن « الملك شهريار » قد اشتاق لأخيه الأصغر « شاه زمان » . . وطلب إليه أن يجىء لزيارته وأعد الملك الأصغر خيامه وخيوله . . وفى آخر لحظة تذكر شيئًا — وكان لابد أن يتذكر هذا الشىء — وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعى خادم زنجى . . فقتل الاثنين . . وسافر حزينًا إلى أخيه « شهريار » . . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . . وتصادف — ولابد أن يتصادف طبعًا — أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج . . . وتبادلوا عناقها جميعًا . . وكانت صدمة . .

وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبته هو أهون من مصيبة أخيه . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . . وقرر أن يرى بعينه . . . وتوارى ورأى — مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والخيبة واليأس تنبع قصص « ألف ليلة وليلة » ، فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال ، أو أن هذه هى حال الدنيا . . أو حال دنياهما فقط !

وتحت إحدى الأشجار ، وجد الأخوان فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا . . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر . . وإلا أيقظت العفريت . . واقتربا منها . . وعانقاها ، الواحد بعد الآخر . . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتمًا . . . قد أخذتها جميعًا من أناس عانقوها الواحد

بعد الآخر ، فى حين كان العفريت نائماً على ساقها . . وخلع كل منهما خاتمه . . وأعطاه للفتاة !

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين : إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذى تفعله المرأة مع أى إنسان ؟!

وعاد « شهريار » إلى بيته وقتل الزوجة وخدامها . . . وراح كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها . . . حتى جاءت « شهر زاد » تروى أكثر من مائتى قصة فى « ألف ليلة وليلة » وتروى له عجائب الدنيا لكى ينساها . .. لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات .

أما المعنى العام لهذه الليالى كلها فقد جاء فى صفحاتها الأولى هكذا :

لاتأمنن إلى النساء ولاتثق بعهودهن
فرضاؤهن وسخطهن معلق بصدورهن
يبدين ودا كاذبًا والغدر حشو ثيابهن
بحديث يوسف فاعتبر متحذرًا من كيدهن
أو ماترى إبليس أخرج آدمًا من أجلهن ؟!

والذى حدث للملكين ليس إلا « حيلة » أدبية لاستدراج القارئ . . وبعد ذلك تتحول الليالى إلى مغامرات فى البر والبحر وبين الناس . . وفيها شعر وخيال وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية !

وكثير من النوادر العجيبة التى دخلت فى عالم الخيال ، قد أعاد روايتها « ابن بطوطة » فى رحلته . . . فهو يحدثنا عن الأحجار التى سقطت من السماء . . . وعن النساء اللائى لهن ثدى واحد . . . وعن العفاريت التى تحكم جزر المالديف فى المحيط الهندى . . .

وكل صاحب رحلة يروى ماشاهد على طريقته وبأسلوبه . . ولكن من الضرورى أن يكون صادقًا . . . وأن يضع الصدق فى براويز فنية . . . والذى يقرأ « رحلات جليفر » للكاتب الساخر الكبير « سويفت » يجد هذه العبارة فى نهاية الكتاب : « لو كان الأمر بيدى لأصدرت قانونًا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العزيز أن يقول الحق

ولاشىء إلا الحق قبل أن ينشر مارأى وماسمع » !

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت فى نهاية رحلات لأساس لها من الواقع ، وإنما هى خيال الأديب الكبير الساخر !

ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لايصدقون مايقوله الرحالة المغامرون . . . ولايحبون شاعرية المسافر الذى بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب الى أرض غريبة ، وإنما أن يعود الى بلده ليقول . . . لعل أحداً ينتفع بما قرأ » .

ماذا يحوى أعجب الرحلات فى التاريخ ؟

ولكن ماهو المحتوى والمضمون لكتاب أعجب الرحلات فى التاريخ ؟ وماذا تضمن من معلومات وسير وأخبار لرواد الرحلات شرقًا وغربًا ؟ وماذا رأوا ؟ وأين ذهبوا ؟ وماذا كتبوا وسجلوا عن انطباعاتهم ومشاهداتهم فى بقاع المعمورة ؟

إن أجمل تحليل لهذا الكتاب الممتع وأعمقه ذلك المقال الجيد الذى كتبه الناقد « علاء الدين وحيد » ، واستعرض فيه محتويات هذا السفر النفيس بأسلوبه التحليلى الموضوعى ونظرته النافذة ، واستخلص فيه فلسفة « أنيس منصور » فى أدب الرحلات والكتابة عن رواد أدب الرحلات .

فماذا قال الناقد عن هذا الكتاب الرائع ؟

يقول علاء الدين وحيد[١] :

هذا الكتاب (أعجب الرحلات فى التاريخ) الذى وضعه « أنيس منصور » وظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٧٢ ، كان يجب أن يبدأ به صاحبه عالم رحلاته قبل أن يغادر حدود بلاده ويسافر خارجها سنة ١٩٦١ . . لأنه حصيلة قراءاته بين جدران حجرته فى مكتبة الرحلات ، ولكن صاحبنا لم يفعل إلا مؤخرًا كما نرى . وهذا كله

---

(١) مجلة الكاتب / فبراير ١٩٧٨ / ص ٧٦ - ٩١ .

يشكل الظاهرة التى تثير الانتباه فى هواية « أنيس منصور » للرحلات ، فهو قد تنفسها وقام بها قبل أن يشير إليها ، أو يعرف عنه هذا الحب فى كتاباته . وكانت مقالاته المتتالية (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) ، التى نشرت فى أيام متقاربة شهوراً طويلة فى أكثر من صحيفة – قبل أن تجمع فى كتب – هى البداية لهذا الجانب الهام فى أدبه . وهكذا جاء كتابه أعجب الرحلات فى التاريخ ، الذى تناول دنيا الرحلات والرحالة فى القديم والحديث ، بعد أن تنقل صاحبه سنوات طويلة بين أرجاء العالم شرقًا وغربًا ، وكتب ماشاهده وماعاشه فى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) ، اليمن ذلك المجهول ، بلاد الله خلق الله ، أطيب تحياتى من موسكو .

و (أعجب الرحلات فى التاريخ) هو خلاصة قراءات كثيرة طالعها « أنيس منصور » فى عالم الرحلات وزيارة إلى إيران قام بها فى أكتوبر سنة ١٩٧١ بمناسبة الاحتفال بمرور ٢٥ قرنًا على إنشاء كوروش للإمبراطورية الفارسية . وكتبها فى ٥٥ فصلا . . يقدم كل فصل عرضًا لكتاب باللغة الأجنبية المختلفة التى يجيدها أديبنا وباللغة العربية . .

والرسالة سواء قديمًا أو حديثًا ، تعنى المغامرة المحفوفة بالمخاطر ومعاناة قسوة الطبيعة والأرض والإنسان أيضًا . وهذه الرحلات التى يقدمها هذا الكتاب الضخم (٧٢٨ صفحة من القطع الكبيرة) فى طبعته الرابعة التى صدرت فى العام الماضى (سنة ١٩٧٧) تحتشد أيضًا بكل هذه الأهوال التى تعرض للرحالة ، فمازل للمجهول برغم التقدم والتطور خطره . ولايزال فى العالم الكثير من البقاع التى لم تكتشف جيداً أو لم تكتشف على الإطلاق حتى اليوم .

يبدأ « أنيس منصور » كتابه بهذه الكلمات :

هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

– أن تسافر . .

– وأن تقرأ الكتب . .

– وأن تقرأ كتب الرحلات . .

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . . يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو البحر . . والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم .

وفى المقدمة التى حملت عنوان (طيور غريبة على شجرة المسافرين) ، وهى أول فصول الكتاب ، يعرض المؤلف بعض الأشياء التى خرج بها من رحلاته المختلفة التى هى فى حقيقة أمرها سعى وراء المعرفة التى لايمكن أن تقتصر على مايحصل عليه المرء منها فى بلده ، بل هى تنتشر أيضًا فى مختلف بقاع الأرض . وهذا العلم الذى يجذب المرء إلى الارتشاف منه يمده به نبعان ، الطبيعة والإنسان . « وأنيس » لايهتم بأحدهما على حساب الآخر فهما فى تقديره كائن واحد . وبرغم العشرات بل المئات من البشر الذين يلتقى بهم الرحالة ، فإن قلة نادرة هى التى يتصادق معها ، لأن تكوين الصداقة صعب وليس عملية سهلة فحسب ، بل لأنها تحتاج إلى وقت كاف لتعميق جذورها .

وهذا الوقت الكافى هو العملة النادرة التى لايملك الزائر أو السائح فى بلاد أجنبية ، إلا أن يحرص عليها . وهناك مثل إغريقى قديم ينطبق على الرحالة والصداقة يقول : (إن الحجر المتحرك لاينبت عليه العشب) . . لأنه بالطبع لايستقر فى موضعه ليتمكن النبات من أن ينمو جيدًا .

ويفرق « أنيس منصور » بين نوعين من المسافرين ، الأول يعود من السفر إلى البلد الأجنبى ويحدث أهله بما رأى . فهو مفيد يثرى المعرفة وينقل الخبرة ويزود بألوان جديدة من أساليب الحياة تعيشها شعوب أخرى . والثانى يعود ولاينبس ببنت شفة ، وربما استمتع ولكنه فارغ لايملك مايعطيه . . لأن نفسه صماء (لم ينفتح على شىء ، ولم يتسلل إليها شىء . . والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصانًا ، ولذلك يقول كاتبنا أيضًا : ليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة وإنما أن يعود إلى بلده ليقول . . لعل أحدًا ينتفع بما قرأ . ولايخفى أديبنا تعرض المسافر الكاتب للخطأ ، أو بلفظ آخر . . إساءة فهم مايرى ونقله أيضًا . . ولكن هذا الخطأ الذى يمكن أن يقع فيه أحيانًا لايبرر عدم ثقتنا به على طول الخط ، فهو لاشك يقدم أشياء جديرة بالثقة

ومتابعتها والاستفادة منها . والرحالة الذى سافر إلى عشرات البلدان القصية وحول العالم قبل أن يرى الإسكندرية ، يعترف بهذا الخطأ . فالسفر إلى الخارج ليس منبت الصلة بالسفر ، داخل الحدود . . . فهما ينبعان من معين واحد هو التطلع إلى المعرفة ، ولافارق بين أن تكون محلية أو غير محلية ، فالإضافة الحقيقية دائماً عامل هام فى التطور والتقدم ، ويربط « أنيس منصور » بين الإنسان البدائى الذى بدأ حياته على الأرض صياداً ينتقل من مكان إلى مكان بحثاً عن الطعام الذى يملأ المعدة ، وبين الإنسان المتحضر الذى ينتقل من بلد إلى آخر ليغذى عقله ووجدانه ويستفيد جديداً ، (ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : أن يسافر فى بلاد ليعرفها . . وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ويصلح نفسه وغيره . . وليضيف إلى تاريخ بلاده . . تجارب الآخرين) . (ص ١٠) . .

« وأنيس منصور » المشدوه بالسفر ، وبما يقول المسافرون أو الرحالة فى كل مكان وزمان وصاحب العبارة التى حولها إلى أغنية يترنم بها ويرددها كثيراً فى كل مايكتب وهى : (ليس أروع من السفر) . . يبدأ حديثه عن أعجب الرحلات فى التاريخ ، بأول واحدةمنها وهى التى قام بها المؤرخ اليونانى القديم المعروف « هيرودوت » الذى ولد سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، ولايزال « هيرودوت » الذى يطلق عليه (أبو التاريخ) ، هو صاحب أجمل وأمتع رحلة قديمة إلى مصر . وأخطر رحلة أيضاً . . فكثير من ملاحظاته التى نقلها بحسن نيه ظلت عالقة بأقلام وأذهان الأوربيين أكثر من ألفى سنة كما هى) .

وقد لاحظ « هيرودوت » أن المصريين يتحدثون بعضهم إلى بعض بلاسابق معرفة ، وهم كرماء مع مواطنيهم والغرباء على حد سواء ، ولذا فالبخل رذيلة كبرى عندهم . . وهم غاية فى الرشاقة رجالا ونساء ، يعشقون الموسيقى التى تصدح فى كل بيت . وهم متحررون أكثر من شعوب أخرى ؛ ولم أكن أتصور أنه من الممكن أن يكوّن الإنسان حريات شخصية إلى هذه الدرجة ، أو يحرص المصرى على أن ينام داخل بيته ، لأنه يرى أن كل ماهو خاص جداً يجب أن يتم فى سرية ، كما أن

الطهارة أو النظافة ضرورة صحية مقدسة أيضًا .

والمصريون كما رآهم « هيرودوت » يحبون الغناء والرقص والفرفشة ويقيمون الحفلات والمهرجانات . . . ولكن هذا لا يمنع أن وجوههم عليها مسحة من الحزن (إذا نظرت إلى سيدة من بعيد ، وكانت تضحك أو تغنى . . . فإنك لاتعرف – حقيقة – إن كانت تبكى أو تندب عزيزًا عليها) !

وقد اندمج « هيرودوت » مع الناس وعاش حياتهم ليعرفهم أكثر ، ولم يكتف بما تتيحه الأماكن المفتوحة من مشاهد واعيه ذكية ، بل التمس المجتمعات المغلقة وكان أهمها على الإطلاق المعابد الفرعونية . وكان هناك القليل الذى يعرف عن هذه المعابد والكثير الذى يخفى ، فعول مؤرخنا اليونانى على كشفه . واستطاع بصداقته القوية . لرجال الدين أن يعرف ، ولكنه كتم معرفته ولم يكتب ماتوصل إليه ، لأنه وعد بذلك وبر بوعده .

ولقد أعجب مؤرخنا بمصر إعجابًا كثيرًا ، وأحب كل ما فيها ، إلا شيئًا واحدًا هو البعوض ولسع البعوض !

ولما كان الهدف من الرحلة ليس الاستمتاع فحسب ، بل أن يتكلم صاحبها أيضًا ، أى أن يحصل على الجديد والمفيد والموثوق به ولذا لم يكن هيرودوت يأنف من السؤال عما لايعرف . وإذا كان قد كتب الكثير والدقائق كما شاهد ، فهو لم يفعل بالنسبة إلى نفسه . فلم يذكر شيئًا عن كيفية قيامه بالرحلة وركوبه البحر ، وكيف كان يعيش فى مصر وأين يسكن وماذا يأكل ، ومن صادق ومتى أصابه المرض وكيف عولج .

ومن المعروف أن « هيرودوت » كان يحصل على قوته بتدريس اللغة اليونانية ومصادقة رجال الدين الكرماء ، وبهذا يكون مؤرخنا كما يقول « أنيس » : نوعًا من المؤرخين الذين ينشغلون بالعالم عن أنفسهم . هناك نوع آخر تشغلهم أنفسهم عن العالم . . هذا ينبع من الواقع . . وذلك ينبع منه الواقع (ص ٣٢) .

وفى موضوع آخر يقول « أنيس منصور » عن رحالتنا القديم مداعبًا ، مشيرًا إلى

بعض أخطائه التى عممها فبقيت فى أذهان العالم تتردد طويلا (هذا المؤرخ « هيرودوت » قد شوه سمعتنا كما لم يفعل أى زائر إغريقى إلى مصر) .

فقد كتب أنه لم يستطع أن ينام فى مدينة منف بسبب بكاء التماسيح طوال الليل ، ومنذ ذلك اليوم والعالم كله يتصور حتى أيامنا هذه أن التماسيح ماتزال تلعب فى النيل . بل إن الرئيس « جمال عبد الناصر » قد سأله أحد الزعماء السوفييت إن كان النيل مايزال مليئًا بالتماسيح ، ولو قال أى مصرى مهاجر فى أمريكا أو استراليا أو كندا أنه عندما جاء إلى القاهرة يزور أهله : لم أنم الليلة – من الفرحة طبعًا – لوجد من يقول له : بسبب بكاء التماسيح ! منه لله هذا المؤرخ الإغريقى « هيرودوت » : (ص ٢٢٤)

وليس الرحالة وحده هو الذى يقوم بزيارة البلاد الجديدة ، فهناك نوعيات أخرى تفعل ذلك أيضًا . . وإذا كان الأديب أو الفنان هو أقربهم إليه ، فإن هناك شخصيات تبدو بعيدة تمامًا عن هذا المجال ، ولكنها تفعل مثل القائد العسكرى وخاصة فى الزمن القديم . لقد كانت حروب « الإسكندر المقدونى » الكبرى عبارة عن رحلات فى نفس الوقت – هل تذكر فى التاريخ الحديث حملة « نابليون بونابرت » على مصر والفيلق العلمى الذى جاء معه – فى مسيرته الطويلة على رأس مئات الآلاف من الجند والتى بدأت من بلاد الإغريق إلى الهند مارة بعشرات من الممالك جاء بها (ذو القرنين) واستولى عليها فهذه الحروب والمواقع العسكرية كانت تعنى مع النصر المعرفة ، ولذلك فهو عندما حارب الهنود ، كان يريد أن يرى نهاية الدنيا أو العمار وهى الهند فى ذلك الوقت وأن يشاهد المحيط الذى هو آخر العالم . وفى حروب « الإسكندر » هذه التى استمرت أكثر من ثمانى سنوات لم تكن عينه وحده هى التى ترى وتستطلع ماحولها ، بل جاء معه لهذا الغرض بعدد كبير من العلماء والفلاسفة يلتقطون له المشاهد والملامح والألوان ، ويكتشفون المعرفة التى يرنو إليها . وهناك قائد عسكرى آخر يختلف كثيرًا عن « الإسكندر » فى هذا الاتجاه ، لأنه كان كتلة من الكراهية ضد الرومان وهو « هانيبال » الذى حاول أن يقهر « روما » التى استولت على كل ممتلكات قرطاجة فى البحر المتوسط ، فبدأ جيشه فى التحرك من قرطاجة الإسبانية إلى أن وصل إلى (روما)

عبر جبال البرانيز مثيرًا الرعب فى دول أوربا . . وهى رحلة كانت تصطبغ فى كل خطواتها بالدماء وحدها .

* * *

وإذا كانت نهاية الدنيا عند « الإسكندر الأكبر » هى الهند ، فإن آخر الدنيا عند « ماركو بولو » الذى جاء بعده بمئات السنين هى بلاد الصين . . التى قطع الرحلة إليها ومنها فى عشرين سنة كاملة ! بدأها من « البندقية إلى عكا ثم تركيا وأرمينيا وفارس وبخارى وسمرقند والهند وبلاد المغول والصين » . ويعيش « ماركو بولو » فى الصين هو وأبوه وعمه سنوات طويلة ، يعين فى أثنائها موظفًا فى القصر الإمبراطورى ويقربه « الخاقان » إليه ويستعين به فى مهمات رسمية .

ويتعلم الشاب الإيطالى اللغات الفارسية والمغولية والعربية ويجيدها . ومن الأشياء التى أعجب بها فى الصين ، العملات الورقية التى سبقت بها الصين العالم الأوربى المتحضر بقرون ، ونظام البريد الذى يستخدم الخيول ، والحمام الزاجل ، وشجاعة الصينيين .

ويقوم إيطالى آخر من أبناء جنوة ، هو الشاب « خريستوف كولمبوس » بعد ذلك بأعوام طويلة برحلة استكشافية تستهدف الوصول إلى الهند والصين بطريق آخر عبر الغرب بدل الشرق . . وكان قد عاش صباه وشبابه غارقًا فى أحلام الذهاب إلى البلاد البعيدة وأحلام الثروة والشهرة . وحاول إقناع حكومة « جنوا » بالصرف على رحلته ، ولكنها سخرت منه كما يسخر منه كل من يعرف . وفشل أيضًا فى إقناع حكومات إيطاليا والشمال الأوربى .

ويذهب أخيرًا إلى البرتغال ويعرض على ملكها « يوحنا الثانى » مشروعه ، ولكنه لم يتحمس له ويذهب إلى « فردناند وإيزابلا » ملكى إسبانيا ، ويفشل فى البداية ويتهم بالجنون ، ولكنه بمساعدة أحد الرهبان استطاع أن يلتقى ثانية بالملكين واقتنعت « الملكة إيزابلا » ومنحته خمسة آلاف جنيه وثلاث سفن ؛ فى المحيط ومع انقطاع الأمل وثورة رجاله عليه ، يرى الأرض . . وكانت جزيرة سلفادور ، ويظل كولمبوس لايعرف حتى

مات ، إنها قارة جديدة ! . . (ولم يحدث فى التاريخ أن استطاع إنسان بمعلومات خاطئة فى الجغرافيا والفلك أن يكتشف عالمًا جديدًا) ! . . ولكن كولمبوس فعل ! (إنها أكبر وأشهر وأعجب غلطة فى التاريخ كله) ! لقد ذهب ليبحث عن الهند والصين فاصطدم بأمريكا !

ومن هناك عرف الأوربيون السجائر لأول مرة ، ووجدوا الذهب الكثير.

ويعود إلى أسبانيا محملا بالهدايا والذهب وعدد من الهنود الحمر . يأمل فى الثراء الوفير عندما يحصل على عشر إيراد ثروات الأرض المكتشفة وكنوزها حسب اتفاقية مع « إيزابلا وفرديناند » . ولكنهما لم يفيا بوعدهما أبدًا . وظل محسورًا على ذلك طول حياته . وقام بعد ذلك بثلاث رحلات كانت أقل أهمية .

ومع « جيمس كوك » الذى عاش أربعين عامًا يقرأ عن الرحلات والفلك ويدرس الرياضة ويسافر إلى الجزر البعيدة ، ويشترك فى معارك بحرية ويرسم خرائط دقيقة . . تكتشف أستراليا . . القارة الجديدة التى لم يكن العالم يعرفها حتى ذلك الوقت فى عام ١٧٦٩ .

والمعاناة هى التى تواكب الإرادة الصلبة التى تصر على بلوغ الهدف أو محاولة ذلك . مهما بلغت الصعوبات والتضحيات . ولاشك أن الرحالة الإنجليزى « دافيد لفنجستون » عرف مثل هذه المعاناة المميتة وهو يجوس خلال أدغال أفريقيا بحثًا عن منابع النيل . وقد اهتم العالم برحلته المضنية خاصة عندما انقطعت أخباره عن بلده . وكان قبلها قد قام برحلة أخرى إلى القارة السوداء بتكليف من الحكومة الإنجليزية ليكتشف نهر زامبيزى استمرت خمس سنوات . أما رحلته الأخيرة فقد لاقى فيها كل التعاسة والآلام التى عرفها إنسان . . مع الغابات المخيفة والأمطار دائمة الهطول والوحوش المفترسة والأمراض التى أصابته وحولته إلى شبح أو بقايا إنسان ، وألعن من هذا كله الاكتشاف الذى لايظهر . . ومع ذلك يصر على المضى فى طريقه . وفى شهوره الأخيرة وهو فى شدة المرض والإعياء البدنى والنفسى ، ينقل خطاه فى الأدغال الأفريقية بصعوبة ليس معه من الرجال إلا أقل من أصابع اليد الواحدة ، لأن الباقين تركوه .

تركزت رغباته وآماله ووعيه ولاوعيه جميعًا فى أن ينتهى إلى منابع النيل ، حتى أنه ليلقى كل من يصادفه فى طريقه من بشر أو حيوان أو نبات بسؤاله المأساوى : ألا تعرف بحيرة تخرج منها أربعة أنهار ؟ !

ومات هذا الرحالة الطبيب القسيس ولم يكتشف منابع النيل ، ولكن التاريخ يسجل له معاناته النادرة ، إنه أول من درس من البيض أواسط أفريقيا ، ورسم تضاريسها بدقة . وكذلك كان « لفنجستون » (أعلى صوت استنكر تجارة الإنسان فى الإنسان) . . أى تجارة الرقيق .

ولاتقتصر الرحلات بالطبع على اليابسه ، أعنى أهدافها التى تتخذ بل تتجاوزها إلى البحار – ولعل أكثر فصول هذه الرحلات تتخذ من الأمواج وسيلتها – كما فعل الرحالة النرويجى (الشاب) « ثور هايردال » وهو يريد أن يؤكد أن الجنس الأبيض الذى سكن أمريكا الجنوبية ، قد هاجر إلى جزر المحيط الهادى ، والمسافة التى تبعد بينهما أكثر من أربعة آلاف ميل ، بزوارق صغيرة . فقام برحلة بنفس النوع من الزوارق التى استخدموها ، ونجحت بعد بقائه وزملائه فى المحيط أكثر من تسعين يومًا .

ويعرض « أنيس منصور » لرحلة أخرى قام بها « ثور هايردال » بعد ذلك بسنوات طويلة على زورق من البردى (هو رع الأول ، ثم رع الثانى) ، ونجح الزورق فى الوصول من الساحل الأفريقى إلى الشاطئ الأمريكى . . . فأثبت بذلك إمكانية وصول الفراعنة فى زمن سحيق بالغ القدم ، بزوارق من البردى ، من مصر إلى أمريكا ، وإقامتهم للحضارة المتطورة التى وجد « كولمبوس » بقايا آثارها عند وصوله للأراضى الجديدة . وتجربة أخرى فى البحر قام بها طبيب فرنسى يدعى « بومبار » ، عمل على أن يثبت أن فى إمكان الإنسان إذا تعرض للخطر فى المحيط ، أن يقاوم الغرق أو الموت ، بالسمك الذى يأكله وماء المطر الذى يشربه أو حتى بالماء المالح ، فى رحلة استمرت ٦٥ يومًا فوق الأمواج .

وإذا كان طبيبنا الفرنسى هذا قد غامر باستقبال الموت فى المحيط كتجربة علمية ، وعاش مثل هذا النظام فى الإبقاء على الحياة فى جسده ، فإن طاقم القلعة الطائرة

الأمريكية وعددهم ثمانية ، اضطروا إلى أن يفعلوا مثله تماماً بلا سابق اتفاق ! عندما سقطت بهم الطائرة فى المحيط وعاشوا عشرين يوماً فى البحر ، حتى اقتربوا من إحدى الجزر . .

أما التجربة الأخرى التى اتخذت من البحر أيضاً مجالا للاكتشاف ، فليست هذه المرة على سطحه بل فى أعماقه ، لقياس هذه الأغوار وماتحتوى ، قام بها عالمان فرنسيان وكان ذلك سنة ١٩٥٤ .

وآخر رحلة لسفينة شراعية كبيرة عابرة المحيطات ، قبل أن ينقرض هذا النوع من السفن .. فى عودتها من أستراليا محملة بالقمح إلى أيرلندا ، وبطولة شاب صغير استطاع أن ينقذ السفينة من الغرق .

ومع التقدم والتطور ظهرت الرحلات من السماء أيضاً ، وعندما عرف الإنسان الطيران . والفصل الذى يقدمه كتاب « أنيس منصور » فى هذه الناحية ، بطلته فتاة إنجليزية هى « إيمى جونسون » عشقت الطائرة منذ أن كانت طفلة ، وركبت هى وأختها طائرة طارت بهما فوق لندن . . ومنذ ذلك اليوم وهى تحلم بهذا العالم الغريب ، وتحلم بشراء طائرة خاصة بها . وأخذت فى الادخار !

ولكنها تدرك بعد قليل أن عشقها أصبح مثار سخرية من يعرف ، وخاصة أبوها . . . فتكتم هذا العشق فى نفسها وتنتظم فى الدراسة حتى تحصل على ليسانس فى الأدب الإنجليزى عام ١٩٢٢ .

وبعد أن أتمت دراستها العالية كأية فتاة عادية ، اتجهت على الفور إلى تحقيق أمنيتها الأولى وهى الطيران . نعم . . التحقت بمعهد طيران ، وتخصصت فى هندسة الطيران ، وتخرجت أول مهندس ميكانيكى طيران فى العالم . وعولت بعد أن اشترت طائرة صغيرة قديمة ذات محركين ، أن تطير وحدها من لندن إلى أستراليا والمسافة بينهما حوالى ، ألف ميل عبر الليالى والمحيطات والغابات والصحارى والجبال . . . وكانت مغامرة أثارت العالم فى شرقه وغربه بنجاح صاحبتها ، ولما عادت إلى وطنها ، كافأتها الحكومة البريطانية بتعيينها قائدة طائرة ، وبذلك كانت أول طيارة فى العالم . .

وليست أعجب الرحلات فى التاريخ التى اختارها « أنيس منصور » ، هى فقط التى تقع خارج الحدود فى البلاد القريبة أو البعيدة ، بل هى أيضا التى يمكن أن تحدث داخلها . . ومن غير الضرورى أن تكون حتى بين الأقاليم ، لأنها فى الإمكان أن تقوم فى عربة قطار . .

كما اتخذت فى مناسبة إنشاء أول خط حديدى فى العالم فى سبتمبر ١٨٣٠ بين ليفربول ومانشستر ، يعرض كاتبنا لهذه الرحلة التاريخية وماقابلها من صعوبات ليست مادية بقدر ماهى نفسية ، تعكس فى مضمونها الصراع بين القديم والجديد . وكيف ذهل الناس وخاصة حواء لهذا الحدث ، وأصبح منتهى آمال الفتاة أن تركب هذا القطار ، أو المعشوق الساحر الذى يسير بسرعة مذهلة هى خمسة عشر كيلو مترًا فى الساعة !

لايمكن أبدًا أن تصل إلى الوسيلة التقليدية.. العربة التى تجرها الخيول ! وفى داخل الحدود أيضًا تكون الرحلة إلى قمة جبل عال أى تسلق الجبال ، كما فعل الدكتور « باكار وبالما » وهما يتسلقان بتوفيق لأول مرة جبال الألب إلى أعلى قمة فيها وهى (مون بلان) وكان ذلك فى أغسطس ١٧٨٦ .

ويمكن أن تكون الرحلة عبر المكان ، ولكن الهدف الأساسى منها ليس هو المكان أو البلاد الأجنبية وأصحابها ، بل عالم المسابقات المجرد . . كما فى إقامة السباق الدولى للسيارات بين بيكين وباريس فى عام ١٩٠٧ « وشبيه بهذا ، هذه الرحلة التى قام بها « إيمى تشيفلى » من (بيونس إيريس فى الأرجنتين ، إلى مدينة نيويورك) على ظهر حصان ! . . قاطعًا عشرة آلاف ميل اخترق فيها الكثير من الجبال والمستنقعات والغابات الموحشة والدول !

* * *

ومن الرحلات العربية التى يعرضها « أنيس منصور » ، رحلة « ابن جبير » الأندلسى التى كتبها فى رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك ، ورحلة « ابن بطوطة » المغربى التى سجلها فى كتابه المعروف (تحفة الأنظار ، فى غرائب

الأمصار وعجائب الأسفار) .

والثانية هي أطول رحلة قام بها الإنسان فى العصور القديمة . . طولها ٧٥ ألف ميل و ٢٩ عاماً تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولداً وبنتاً ! ومن الطريف أن « ابن بطوطة » استطاع بذكائه وحيله وسرعة بديهته ، أن يجعل رحلته الطويلة هذه مجانية لاتكلفه شيئاً على الإطلاق ، مع أنه كان يعيش عيشة رغدة وفى مستوى مرتفع . .

كان لـ«ابن بطوطة» طريقة معروفة فى كل البلاد التى يذهب إليها أنه يسأل عن القاضى : السلام عليكم . وعليكم السلام . . أنا فلان قادم من المغرب فى طريقى إلى مكة والمدينة . . أوكنت فى مكة والمدينة . ويكون الجواب : أهلا وسهلا . . ضيفاً علينا ثلاثة أيام . ويقول « ابن بطوطة » : إن معى عدداً كبيراً من الأتباع والخدام والدواب . ويقول القاضى أو السلطان : كلهم ضيوفى !

ولا يجد « ابن بطوطة » حرجاً فى أن يقول له : ولكن هناك مشكلة بسيطة . ويقول المضيف : بسيطة إن شاء الله .

– إننى مدين لفلان بعشرين ألف دينار .

ويقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله .

هكذا فى كل رحلات « ابن بطوطة » التى استغرقت أكثر من تسعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليماً واحداً من جيبه . . وإنما هو بلطفه وظرفه وبراعته ينقل الفلوس من جيوب السلاطين والقضاة إلى أكراش التجار !

والنشاط الذى كان يمارسه « ابن بطوطة » فى رحلاته هو التقاضى بين المسلمين ، وكان له مواقف كثيرة فى توليد مفاهيم الدين الإسلامى الحقيقية ، فيرفض أن تعرى نساء (جزر المالديف) صدورهن ، ويعاقب الناس فى الشوارع ، ويقطع يد السارق .

ويحاول رحالتنا ماأمكن أن يكون دقيقاً ويطلع بنفسه على مايسمع ، وعلى الرغم من ذلك فقد كثرت فى كتابه الخرافات كشأن الرحلات القديمة بخاصة ، التى سجلها على علاتها ولم يناقشها .

ورحلة ثالثة قام بها عربى أيضاً مصرى هذه المرة من الصعيد هو « رفاعة رافع

الطهطاوى » صاحب كتاب (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) الذى كتبه بعد أن أقام خمس سنوات فى العاصمة الفرنسية . ولم يكن أحد يظن أن هذا الشاب الأزهرى ولاهو نفسه – الذى عين إماما يرافق البعثة التى أرسلها « محمد على » إلى فرنسا ، يؤمهم فى الصلاة ويرشدهم إلى دينهم ، سيكون ألمع أفراد البعثة ويساهم فى تشكيل وجه مصر الحضارى .

وإذا كانت النقلة كبيرة اليوم بين مصر والعالم المتحضر ، فهى مفزعة أيام أن سافر الطهطاوى إلى الخارج . فمن ظلام القرون الوسطى ، إلى وهج الحضارة ، ومن الجمود ومايشبه الموت إلى الحياة أعنف ماتكون الحياة . وأصيب بهزة كهربية شديدة جعلته يعرف الشك إذًا وأشياء كثيرة كانت عنده وعند غيره من المسلمات التى لايمكن المساس بها . . كونها مفاهيم قومه ، والثقافة التى رضعها فى عصره . ولذلك ركبته الدهشه وهو يرى القوم نظافًا يستحمون كثيرًا ، لأن النظافة من الإيمان وهؤلاء ليسوا مؤمنين . . وقارن بين نظافتهم وإيماننا أو قذارتنا فصدم . وشاهد أشجار النخيل ، فعجب لأنه كان يقرأ – كما طالع فى كتاب القزوينى (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) – أن النخلة شجـرة مباركة عجيبة ، ومن عجائبها أنها لاتنبت إلا فى بلاد الشام ! . . والفرنسيين بالطبع ليسوا مسلمين !

وعرف رفاعة أشياءً كثيرة واستغرقته كل مظاهر الحضارة الحقة التى تعنى تقدم الإنسان ورفعته والحفاظ على حريته وكرامته واحترام تراثه وحضارته .

(وإذا كان المؤرخ الإنجليزى الكبير « توينبى » قد أعتبر المؤرخ « الجبرتى » أعظم مؤرخ فى كل العصور ، لأنه انبهر بحضارة فرنسا ولكنه لم يرض عن احتلال الفرنسيين لمصر . فإن « رفاعة الطهطاوى » هو أكثر طلبة البعثات نبوغًا ونبلا . . . فقد بهرته فرنسا ببنائها وشوارعها ، ودستورها وعلمها ، ولكنه كان يصرخ . دائماً : فى استطاعتنا أن نكون كذلك ، لوتحركت أيدينا فى نور عيوننا وعلى هدى عقولنا) (ص١١٨) .

ويختار البعض أن تكون الرحلة قصيرة فى الزمان والمكان على السواء . . ولالوم عليه بالطبع إن فعل ، كما صنع السورى « إسماعيل النابلسى » صاحب كتاب (التحفة

النابلسية فى الرحلة الطرابلسية) . . التى يسجل فيه رحلته بين مدينتى دمشق وبيروت فى القرن السابع عشر . وأهمية هذا الكتاب كما يقول « أنيس منصور » ، أن مؤلفه (يفعل بالضبط مايجب ألا يفعله أى رحالة ، إنه لايتحدث عما رأى من الأشياء أو الناس) . لأن هدفه الذى تمليه عليه طبيعته وثقافته الدينية ، هو الإسهام فى الحياة الروحية ومناقشة أمور العقيدة والقيام بدور المفتى ، ولهذا لم يستفد المتلقى من روح الرحلة شيئاً هاماً . . حتى عندما التفت إلى الآثار القديمة وهو يزور بعلبك ، كان منتهى جهده أن يعد أعمدتها فترة !

* * *

فى البلاد التى تعشش فيها الأمية ، لايمكن أن يفهم أهلها أن الرجل العادى هو اليوم يمثل الجنس البشرى ، وهو الذى يستهدف سعادته وتحسين حالة وكل الثورات والحركات الإصلاحية ، وأن هذا الرجل نفسه هو من أجله نزلت العقائد السماوية . . وليس من أجل الحكام أو الأغنياء أو الطبقات المختارة . أما فى البلاد المتحضرة ، فقد بسط هذا الرجل العادى سلطانه منذ وقت طويل على مجريات الأمور . وعلى جهده هو تقوم عظائم الأعمال المادية والمعنوية معاً . . ومنها الرحلات . « فرايا استارك » واحدة من هذا الصنف العادى الذى لا يجرى فى عروقه دماء زرقاء ، وهى فتاة إنجليزية ثقلت عليها رتابة الحياة الحديثة التى تبعث على الملل . ولذلك كانت تردد دائماً كلمات بعينها هى : أريد شيئاً يهزنى من أعماق . . أريد شيئاً يفزعنى حتى الموت ، يسعدنى حتى الموت ، ولهذا وجدت فى المغامرات بغيتها .

وكانت قد قرأت كثيرًا عن (الحشاشين) وزعيمهم « حسن الصباح » ، فعولت أن تزور آثاره . فقد هزها ماكان يفعله هذا الرجل الدموى الذى حاول أن يقيم جنة على الأرض لايدخلها إلا أتباعه الذين يقدم إليهم مخدر الحشيش فيفقدون وعيهم فى دخانه ويطيعون أوامره طاعة عمياء حتى الموت . وبهذا الشكل استطاع أن يغتال الكثيرين من خصومه ، ويبعث الرعب فى أوصال المنطقة كلها .

ومن المعروف أن الشاعر الفارسى « عمر الخيام » كان من زملاء دراسته فى فترة

الصبا والشباب . وكان يزوره أحيانًا فى قلعته التى تسمى (قلعة الجبل) . وكان «الخيام» يشرب النبيذ بطريقة ظريفة ، وكان فى الصباح يصب الخمر فى أحواض كبيرة ، ثم يأتى بالفتيات الجميلات العاريات يسبحن فى هذه الأحواض ، وكان « الخيام » يشرب النبيذ من فوق أجسام الفتيات .

ويقول « أنيس منصور » معلقًا : وقد انتقلت موضة استحمام الفتيات فى النبيذ إلى أوربا أيام الحرب الصليبية . . . وانتقلت إلى أغانى شعراء (الطروبادور) فى فرنسا وإسبانيا فكرة الجنة على الأرض .

وسافرت الفتاة الإنجليزية إلى إيران حيث تقع هذه الآثار القديمة فى مناطق جبليه موحشة . حدث هذا فى عام ١٩٣٠ . . واستطاعت بكتابها (رحلة فى وادى الحشاشين) أن تضيف معلومات قيمة فى هذا الجانب .

وفتاة أخرى عادية أيضًا فرنسية هى « ميشيل دى » ، كانت تعمل عارضة أزياء فى مؤسسة شانيل . استقالت من عملها ومالت إلى أن تعمل مراسلة صحفية ، وكانت الحرب الفيتنامية على أشدها ، فاختارت أن تذهب إلى هناك . . وعاشت قسوة الحرب بين المعسكرين العدوين الشمال والجنوب : أو السوفييت والأمريكان ، بكل البشاعة والدمار .

وهناك طفل أوربى وهو « فان بوست » ، ساءه أن يقرأ عن أقزام (البوشمان) الأفريقيين الذين تعرضوا أكثر من مرة للإبادة بواسطة البيض ، فأصر فى حماس الصغار على أن يقف فى صفهم . وكبر الطفل ونسى أشياء كثيرة ، ولكنه لم ينس (البوشمان) المساكين . وخطط ليزورهم ويدافع عن قضيتهم ، ولكنه لم يستطع إلا بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية . .

فسافر إليهم وقام برحلة إلى الأدغال الأفريقية . . ووجدهم كما تخيلهم وهو صغير آدميون طيبون ، وليسوا كما تصورهم الكتب العدوانية أشرار الشياطين . وعندما عاد إلى وطنه ، أصدر عن رحلته كتابًا شن فيه هجومًا عنيفًا على التزييف الذى تعرضت له هذه القبيلة من مؤلفات الرحالة السابقين .

ولايمكن أن تزور بلدًا أو مكانًا وتتجاهل المرأة فيه سواء أكنت صديقًا لها أم عدوًا . . . كما لايمكن أن يتنفس الإنسان حياة طبيعية ولايخفق قلبه ويحب . ولذلك فمن البديهى أن تلم الرحلات بهذه الناحية الهامة ، وكذلك يفعل « أنيس منصور » . وفى (أعجب الرحلات فى التاريخ) ، لقطات ذات دلالة من هذا البلد أو ذاك . . ففى رحلة « ويلارد برايس » إلى أفريقيا يلتقى فى صحارى كلهارى (بقبيلة البوشمان) ، وهم أقزام أجسامهم ضئيلة يجرون أنفسهم فى المشى ، ولكنهم شياطين فى الجرى ونظرهم شديد القوة يرون بالعين المجردة كما يقال مالايراه التلسكوب (وهم فى حالة هياج جنسى دائم . . حتى الثمانين من العمر ، وهذا من دواعى فخرهم ، ولذلك فصفاتهم وأسماؤهم مأخوذة من هذه الحالة الجنسية الغريبة) .

أما أساليبهم فى الغزل (فهم يصنعون سهامًا صغيرة جدًا ويغمرونها بالعطر فإذا رأوا الفتاة أطلقوا الأسهم على ثوبها ، وطبعًا سوف تنظر الفتاة بكل خجل مفتعل إلى مصدر السهم ، فإن أعجبها صاحب السهم ، أبقت السهم فى مكانه ومعنى ذلك أنها وافقت على الزواج منه وإذا أخرجت السهم وكسرته فمعنى ذلك أنها رفضته زوجًا . . ولاتنطلق السهام عادة إلا إذا كان الرجال والشبان عراة تمامًا) .

وفى رحلة « جورج مكش » وهو كاتب مجرى ، إلى آسيا . . يذكر كيف أن الرجل فى (تايلاند — أو سيام قديمًا) يستطيع بسهولة وبلا مشاكل ، أن يجمع زوجته الواحدة وعشيقاته العديدات فى بيت واحد ، وفى رحلة أخرى « لمكش » إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، يذكر عن الخلافات الصارخة فى تطبيق القوانين بين الولايات ، وفى ولاية منسوتا . . . ممنوع نشر الملابس الداخلية للرجال والنساء على حبل واحد !

« وبول جوجان » الرسام العالمى الذى ترك بلده باريس وزوجه وأولاده ، راحلا إلى (جزر تاهيتى) فى المحيط الهادى ، لأنه لايستطيع البقاء دائمًا فى مكان واحد . . ولأنه يحس أن روحه تريد أن تنطلق فى أماكن أكثر رحابة . . . ووجدها هناك وكانت المرأة هى التى تكون ثالوثه (المقدس) مع حريته المنطلقة وموهبته الفنية . وكان « جوجان » يقارن كثيرًا بين الفتاة الفرنسية والفتاة التاهيتية ، فيفضل الثانية لأنها

الطبيعية المثيرة صارخة الرائحة بكل عطور الغابة التى تغرقك وتخدرك وتفقدك الوعى بلاتصنع . .

المرأة فى (تاهيتى) تقول : (لاأعرف إن كنت أحب هذا الرجل فأنا لم أعد أحبه) ويعقب الرسام على هذه المقارنة بقوله : أو يعرف الإنسان كيف يعطى ، هذا رائع . . أن يعرف الإنسان كيف يأخذ هذا أروع . . (ص٢٥٤) والعروس فى (المناطق الجبلية لفيتنام) كما وجدتها المراسلة الصحفية « ميشيل رى » ، يجب أن تكون عذراء . . . وإذا اكتشف العريس غير ذلك ، فعلى أسرة الفتاة أن تدفع له تعويضاً كبيراً . . عدداً من الجاموس !

وفى رحلة « رينيه كابيه » إلى (السنغال وداكار) فى سنة ١٨٢٤ ، لاحظ أن المرأة ترتدى الملابس الداخلية فى حين أن الرجل لايفعل أو هى تعتنى بنظافة جسمها والرجل على العكس والأنثى التى تحمل وتلد ، هى التى تقوم بالعمل ، على حين أن الرجل كسول ، يقضى وقته فى تدليك جسمه ، وشاهد الرحالة عناق زوجين (وقد تعلقا فى شجرة أمام البيت . . ثم راحا يتعريان ويتداخلان كأنهما اثنان من الأفاعى) .

وفى رحلة « أنيس منصور » نفسه إلى إيران ، يسجل غزل الشباب فى شوارعها للبنات ، فإذا بها لاتختلف كما كتب عن : ياقمر . . أنا قتيل شفتيك . . ساقيك . . . نهديك . ويعقب فناننا على ذلك بقوله : (آه . . نفس الكلمات التى يقولها الشبان فى كل البحر الأبيض المتوسط . . إنهم فى شوارع روما يقولون نفس الكلمات مع تأكيد المعنى الذى يقصدونه باللمس . . وأحياناً بالنكت القبيحة . . لأن هناك نظرية فى المعاكسة تقول من استطاع أن يفتح شفتى الفتاة يفتح قلبها . . ونظرية أخرى تقول : الفتاة وكل فتاة . . كالشجرة المحملة بالثمار . . هزها . . تتساقط هى قبل ثمارها . لأن هناك نظرية ثالثة تقول : ليست الكلمات الرقيقة هى التى توقعها ، وإنما الكلمات التى تصدمها وتصدم بها . . والنهاية مضمونة) (ص٦٨٤) .

* * *

والرحلات فى أحد جوانبها ، إيمان بالأسطورة ، وجرى وراء الخوارق التى لاتوجد

فى بلاد الرحالة ، ولكنها تتوافر فى الأوطان الأخرى . . وكلما بعدت هذه الأوطان احتشدت أكثر بالغرائب وارتفعت نسبتها وزاد الشاذ فيها . نجد ذلك فى عرض الحياة ، وعرض الكتب على السواء ، فالكتاب القصصى الأول فى العربية (ألف ليلة وليلة) ، هو فى واقع أمره رحلات متصلة بالأساطير. وليس هذا فحسب ، فالأساطير تتغلغل أيضًا فى أعماق الإنسان وهو يتحرك فى عالم بدائى أو عالم متحضر. . « فالإسكندر المقدونى » قبل أن يقوم مع جيشه بالاستيلاء على العالم . . بعدما ابتعدت به سفينته عن الشاطئ ، عادت تقترب ثانية من الشاطئ ليلمسه « الإسكندر » برمحه الطويل . . رمزًا على أنه سينال كل مايأمل فى مهمته !

نفس الإيمان بالقوى المجهولة ، الذى جعل رائد الفضاء فى العصر الحديث فى رحلته إلى القمر – قمة الانتصار العلمى – يضع حول رقبته خرزة تقيه السوء ! !

وإذا كانت النبوءة تعد من الأساطير ، فالرحلات وحياة الدجالين ملأى بالنبوءات التى يقتنعون بها ، يستوى فى ذلك الأجانب والعرب . ويذهب « أنيس منصور » نفسه بعيداً فيؤكد صحتها بتوكيد وقوعها فعلا فى حياة الرحالة أو المكتشف ، أو بعد وفاته ! . . حدث هذا مع « كوك » وكثيرين غيره ، ممن عرض لهم أديبنا فى كتابه !

واللمحات الإنسانية التى يلتقى بها القارئ فى كتاب « أنيس منصور » ، ليست مقصورة على ملامح سريعة فى هذا الفصل أو ذاك ، بل إنها لتتفجر بها فصولا كاملة نختار منها (رصاصة قتلت رجلين وأحيت امرأتين) التى تحكى قصة فتاة إيطالية صغيرة تنكرت فى شكل شاب يعمل بحارًا ، وسافرت من جنوه إلى نيويورك للبحث عن أمها التى فرت من قسوة أبيها وحقده وبخله . وتجدها فى النهاية بعد عذاب سنوات طويلة . وكذلك فصل (الرجال ينتقمون من أبنائهم أيضًا) ، الذى يصور تعذيب أب إيطالى لابن زوجه هو أعوامًا كثيرة ، بأن فرق بينهما بتهم كاذبة وكل منهما يتعذب ويقاسى الفراق المر .

وهذه الملامح الإنسانية التى يعرضها كاتبنا ، مختلفة الطعوم والألوان . أجملها ماتناوله فى (وبذلك أصبح الطفل رجلا) ، وهو يرسم صورة لمنهج أحد الآباء

الايطاليين – ماأكثر الشخصيات الإيطالية فى هذا الكتاب ! – فى تربية ولده حتى بعد موته . فى الاعتماد على النفس والحفاظ على كرامته ليستطيع أن يواجه الحياة والناس معًا ، قويًا مرفوع الرأس .

* * *

وبينما تشغل الصورة التى على ظهر الأرض « أنيس منصور » فيتأمل سطوحها الخارجية وأعماقها الداخلية وتأخذ من كتاباته الكثير ، فإنه يعطى اهتمامًا أيضًا لما يجرى فى قاع المجتمع ، أو العالم السفلى للفرد والجماعة . . الذى لايمكن تجاهله لأنه يشارك كذلك فى تكامل ملامح الصورة . وتلعب المرأة والجنس دورًا بارزًا فى نشاط هذا العالم السفلى ، الذى يستوعب بالدرجة الأولى انهيار القيم وتهافت الإنسان .

وهذا العالم لايأخذ من كتابات فناننا إلا حجمه الطبيعى فى ميدان ليس مجاله الأول ، ولهذا فهو لايتضخم على حساب العالم الطبيعى الذى يشكله المواطن العادى ، وهذا يعكس الفارق بين التناول الجاد والإثارة السطحية التى تجعل من الشاذ قاعدة وأساسا . فى (وكان المصريون يطلقون طيورًا من حجر) ، يسجل كاتبنا اتهام كهنة فرعون « للملك خوفو » بأنه منحط ، لأنه عندما تقلص غناه فى أواخر حياته ، استعان بابنته وبلفظ أدق بجسدها ، لكى يدر عليه مالا وفيرًا .. يدفعه الأثرياء ثمنًا للمتعة !

ولقطة أخرى من الهند على أيام حرب « الإسكندر الأكبر » لها ، وهى بيع الآباء (الهنود الفقراء) لبناتهم فى سوق الرقيق . وعملية البيع البشعة التى تمتهن الإنسان بشكل مفزع . فالزبون يأخذ فى تقليب البضاعة العارية تمامًا على مشهد من عشرات العيون المتطفلة المتفحصة وجها ، ويصبح جسد الفتاة كله تحت سطوة أصابعه . ويعقب أشهر المحاربين فى الزمن القديم على هذا المشهد بقوله : لو كان من يتزوج يفعل ذلك لسقطت فى الامتحان أكثر النساء والرجال أيضا !

أما فى القاع الأمريكى ، فهناك دنيا العصابات والاغتيالات وتهريب المخدرات ، والمتاجرة فى أعراض النساء . . بأسلوب يتسم بما بلغته الحضارة من تعقيد وعلم متقدم !

وفى بعض الأحيان تسمع « أنيس منصور » يردد لنفسه وللقارئ من داخل سطوره ، أنْ لا جديد تحت الشمس. وليس من الضرورى أن يقول بالنص وبشكل مباشر . فهو يجب أن يكون له أسلوبه أو ترتيبه الخاص ، بل يعكس المعنى فى ملامح أخرى ولعل أظهر هذه الملامح ، هو النقاط المتكرر أو المتشابه خاصة إذا اختلف الزمان . فعندما يشير إلى الفتاة الإيطالية التى رفضت أن تتزوج شاباً هجم عليها فى الطريق وعانقها بالقوة فى القرن الثالث عشر وعدتها إهانة لاتغتفر . . هذا الشاب الذى سيحفظ العالم اسمه بعد قليل لأن صاحبه دخل التاريخ والجغرافيا أيضًا وهو الرحالة ماركوبولو ، يذكر كاتبنا على الفور شاباً إيطالياً آخر فعل ذلك ، أى عملية العناق فى الشارع بعد ستة قرون ولاقى نفس المصير . وهو « بنيتو موسولينى » . . الزعيم والرئيس الفاشى فيما بعد !

نفس المعنى وهو يتناول المؤرخ الإغريقى « هيرودوت » الذى سقط فى الماء فى أثناء هروبه من بلده وقد كاد يغرق ، فانتشله البحارة . . فهو ماحدث بالضبط لشخصية أخرى عالمية فى صباها ، بعد ذلك بمئات الأعوام ، وهى « محمد على باشا » مؤسس مصر الحديثة ! وعندما يكتب أديبنا عما سمعه « ابن بطوطة » فى الإسكندرية ومنها تسلق أحد المصريين لعمود السوارى عارياً ، يذكر بسرعة أن راقصة مصرية فعلت ما يشبه ذلك بعد قرون ، عندما صعدت « دولت سليمان » عارية فى سنة ١٩٥٧ تمثال نلسون بلندن !

ويتخذ هذا المعنى ، أنْ لاجديد تحت الشمس ، شكلا واقعياً واعياً . . عندما يعاد تمثيل أحداث قديمة مرت فى مجال الرحالة والرحلات تدخل فى التراث الشعبى . فعند اكتشاف « كوك » (لجزيرة هاواى) ، حاول أحد الأهالى أن يطلق سهمه على واحد من البيض الذين جاءوا مع المكتشف ، فقتله القبطان « كوك » وهو لايعرف أنه قتل الابن الوحيد لشيخ القبيلة . . وثأر الأب لنفسه وقتل « جيمس كوك » — فبراير سنة ١٧٧٩ ، ويدخل هذا الحادث فى وجدان الشعب الهاوائى ، فيتحول مع مرور الأعوام إلى مشهد كوميدى ، كما شاهد « أنيس منصور » أيضًا — يقف الزائر الأجنبى وتتحلق

حوله الفتيات الهاوائيات راقصات وينشدن كلاماً غير مفهوم ، ويقدم لهذا الزائر الذى تطلق عليه الفتيات اسم القبطان شراباً غريباً ، وعندما يترنح من أثر الشراب . أو يدعى ذلك ، يحملنه ويلقين به فى الماء !

* * *

ولايفوت « أنيس منصور » أن يلتفت أيضاً إلى طبائع الزحالة أنفسهم وأمزجتهم التى تنعكس بالتالى على كتاباتهم عن أسفارهم . « ابن جبير » مثلا المتدين الحيى الذى يخاف من أن تكون النظرة الثانية عليه ، ولذا فهو يخجل من أن يطيل النظر ، ويفحص ماأمر الله أن نغض عنه الأبصار . ولذلك عندما تابع احتفالا بزفاف فى الشام ، واكتشف أنه معجب بمشية العروس المختالة ، استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ولم يكمل الوصف ! ومرة أخرى وكان فى (مكة) ورحلته تستهدف أصلا الحج ، سمع عن إحدى الأميرات التى تخرج ليلا ، ومايشاع عنها أنها على خلاف مع زوجها وأنها تغامر فى الظلام مع الرجال . . يستعيذ رحالتنا من سوء الظن (ولم يكمل سماع قصة الأميرة من أحد) ! ولهذا كان يستهوى « ابن جبير » فى الاهتمام الأول ، مرأى الأضرحة والمساجد والمقابر التى كتب عنها كثيراً ، قبل أى شىء آخر !

وعلى العكس من « ابن جبير » ، كان « ابن بطوطة » المهتم أكثر بالجماهير . . ولذلك جاءت أسفاره . . رحلة فى عادات الناس وتقاليدهم .

أما « ماركوبولو » الذى كان غير مثقف ، فقد جاء الكثير من ملاحظاته بلا أبعاد وتفسيرها أحياناً غير دقيق وسطحى مما يدل على جهل صاحبه . فهو عندما مر (بصحراء جولى) القاحلة تماماً والملتهبة ، تراءت له أنها تحتشد بالعفاريت وأنه يشاهد جيوشاً ومعارك لاوجود لها فى الحقيقة . . الأمر الذى جعل الأوربيين لايصدقون الكثير من أخباره وهو يحكيها لهم ، وأطلقوا عليه مداعبين (ماركو المليونير) ، أى ماركو صاحب المليون حكاية كاذبة ! !

وروح البحث تدفع إلى تحمل المشاق ، وإذا كانت هذه الروح أصيلة فصاحبها يعمل على الاندماج فيها وفيمن حوله من طبيعة وبشر . وكذلك كان اللورد الإنجليزى

« تشارلز واترتون » الذى أحب الهنود الحمر وعاش معهم لايختلف عنهم ، يسير عارى الصدر خالى القدمين ، مستغرقًا فى العوالم التى يتيحها النبات والحيوان والطقس . . وكان « واترتون » من القلة النادرة من المكتشفين الذى تسرى روح الرحلات فى دمائهم سواء فى حياتهم العادية فى بلادهم أو فى البلاد الأجنبية قائمين بمخاطراتهم . . إيمانا بأن الطبيعة هى الأم الرءوم وأن الفطرة هى منهج الأسوياء ، ولم يكن يكتفى باتخاذ الموقف المؤيد لفلسفته فحسب ، بل كان يدعو الآخرين إليها . وإذا وجد أن الظلم يتطاول على الأبرياء من جراء النظم المستبدة ، عمل على استخدام القوة لإصلاح الخطأ . . كما كان يفعل إزاء المقبوض عليهم من الهنود الحمر بأمر من الحاكم البريطانى ، وهو يهربهم من السجن ! ولذلك أحبته الجماهير الملونة وعدته حاميها . وكان يتجول فى الغابات البرازيلية ، هذه الأرض العذراء التى لم تعرف رجلا أبيض قلبه ، ويعيش أيامًا داخلها يتابع فيها حركتها وسكونها وأشجارها وأعشابها وحيوانها وطيورها ، ويتسلق الأشجار بمهارة فاقت السكان الأصليين . . يبحث عن تركيبة السم النباتى الذى كان يستخدمه الهنود الحمر فى السهام والنبال ، والذى يستعين به الطب اليوم – بفضل رحالتنا – فى التخدير .

ولعل أقصى مايواجه الرحالة من صراع ، ليس الرياح أو الصحراء والأمواج أو المطبات الهوائية أو الوحوش ، وإنما مع الإنسان ومفاهيمه ، سواء كان بدائيًا أو متحضرًا . كما أن أخلاقيات هذا الإنسان أيضًا تشارك فى تشكيل الصراع . فى رحلة « روبرت بيرك » فى غابات وصحارى أستراليا ، كان اعتماده على تاجر ماشية – الذى يعرف الطريق أكثر منه – ، سببًا فى تعرضه هو وأغلب رفاقه للموت . . فقد استولى التاجر على مايحمل من حاجات الرحلة وهرب بها .

وأحيانًا يكون الرحالة نفسه هو مصدر هذا الصراع لدى الآخرين ، كما آثار « بلاى الفاسى » ثائرة بحارته ، فتمردوا عليه وعرضوا رحلاته للفشل عدة مرات .

وإذا كان من ألوان الرحلات الرحلة السياسية أيضًا التى تشارك فى الحدث السياسى وصنعه ، والتى يقوم بها غالبًا الزعماء ورجال السياسة ، فإن (أعجب الرحلات فى

التاريخ) قد قدمت بعضًا منها . . إلا أنها لم تعالج بما يجعلها رحلة سياسية حقيقية يعرف القارئ بواعثها المباشرة وغير المباشرة . والوقائع السياسية التاريخية التى أنبتتها ، كما فى هروب « الدالاى لاما » رئيس (التبت) من بلاده (المقدسة إلى الهند لاجئًا سياسيًا ، خوفًا من المستعمر الصينى الذى احتلها . ولعل السبب فى عدم استكمال أديبنا لهذا الملمح الهام ، أنه كتبها فى وقت كان لايكاد يهتم فيه بالسياسة أو متابعتها والكتابة فيها ، بعكس مايفعل هذه الأيام فى موقعه من مجلة (أكتوبر) . . وليس لأن الكتابة السياسية دمها ثقيل خاصة على قارئ رحلات.«فأنيس منصور» يملك أسلوبًا يذلل الصعب فى هذا الجانب ، كما صنع يومًا وهو يبسط تناول الفلسفة .

ويمكن أيضًا أن يعلل تردد كاتبنا فى الاشتغال يومًا بالسياسية. بأنه أستاذ جامعة ودارس فلسفة وفنان حالم ، يكره الدخول فى معارك خاصة فى مناخ لايتخذ الموضوعية أداة للجدل ، بل يتعرض المشارك فى هذه المعارك إلى الاتهامات والشتائم والبذاءات . .

وليست السياسة وحدها هى التى تعكس عدم اطمئنان أديبنا إلى الدخول فى معارك ، فهناك أيضًا موقفه المتجاهل للتبشير . . الذى كان كثير من الرحالة الغربيين يجعلون منه رسالتهم الأولى التى يلتزمون بتحقيقها . وهكذا لا يناقش « أنيس منصور » هذه القضية ويدعها تمر سريعًا ، كما فعل أيضًا بالنسبة إلى قضية ثالثة تقترب من التجسس إن لم تكن هى الجاسوسية بعينها . . فمن المعروف أن رحالة عديدين كانوا من رجال المخابرات ، وكانوا بمثابة الفرق الاستطلاعية للدول الاستعمارية تكتشف لها الطريق ، قبل أن تقدم هذه الدول على ضربتها وتحتل بمختلف الوسائل العسكرية أو الاقتصادية ، البلاد (المتأخرة) ، ذات الثروات والمواقع الاستراتيجية . وهكذا لايكون السعى وراء المعرفة شيئًا مجردًا لخدمة البشرية . . بل يوضع أولا وأخيرًا تحت تصرف مصالح الدولة التى ينتمى إليها الرحالة . ولنذكر مثلا شخصية « يوهان بوركهارت » الذى تعلم العربية فى كمبريدج ، وذهب إلى حلب بسوريا ليجيد التحدث بها . وتنكر فى زى تاجر عربى مسلم وجاء إلى القاهرة ليذهب إلى الأراضى

المقدسة ويدخل مكة والمدينة اللتين يمنع زيارتهما لغير المسلمين ، وبذلك يكون أول أوربى مسيحى يفعل ذلك . فصاحب (أعجب الرحلات فى التاريخ) ، لايعقب كثيراً أو قليلا على هذا الحدث ، أو على حدث غيره صاحبه هو « المقدم فوست » بطل فصل (يبحث عن مدينة رسمتها الرياح بالرمال) ، الذى جهر المؤلف باشتغاله أى « فوست » بالجاسوسية .

لقد وضع « أنيس منصور » الرحلات وحدها نصب عينيه ، أما الأشياء أو القضايا الأخرى التى يمكن أن تعترض طريقها مهما عظمت أهميتها . . فليس هنا من وجهة نظره مكانها أو حتى مجرد تناولها الخاطف أو الإشارة إليها بسرعة . . فهى تذكر فقط – إن فعل – لتكون جملة مفيدة ويكتمل معناها .

وبعد . . فإن كتب الرحلات كما يقول « أنيس منصور » فى مقدمته هى (أعماق الآخرين . . وأعماقنا نحن أيضاً . . وأعماق هذه الدنيا . . ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى تقوم بها فى رحلات الآخرين .. نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ، نرتمى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معاً .. وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة .. أو نفعل مثلهم .. تسافر مثلهم .. ونكتب مثلهم .. وننفع بلادنا فى النهاية) .

* * *

وبعد ، فإن كتاب (أعجب الرحلات فى التاريخ) يعد تأريخاً ممتعاً ورائعاً لهذا اللون الجميل الممتع من أدب الرحلات فى الأدب الإنسانى كله .

الفصل السادس

أضواء على أدبه

الأدب الوجدانى

يمتاز أدب « أنيس منصور » بأنه يجمع بين خاصتين متباينتين هما :

خاصية أنه يفهم بعض الأشياء بعقله وفيها يبدو أنه لايستطيع أن يبدع شيئًا بعاطفته ، ولعل ذلك يعود إلى دراسته الفلسفية وماتفرضه عليه من تحكيم العقل ، والموضوعية ، والتجرد .

والخاصية الثانية يبدو فيها أدبه متسمًا بحرارة القلب ، وخصوبة التخيل ، وبعد التصور ، واتساع مدى الحب الإنسانى . . ولعل ذلك يرجع إلى ثقافته الأدبية الإنسانية ، وخوضه غمار الحياة والمجتمع ورحلاته المتعددة فى مختلف بقاع العالم ، وماستتبع ذلك من تجارب خصبة مرت به فى الحب والمَودّة والتعاطف الإنسانى ، وماصادفه من نماذج إنسانية مختلفة فى تلك الرحلات المثيرة .

ولكن أدبه الوجدانى الذى تمثل فى قصصه القصيرة ومقالاته الأدبية وخواطره الذاتية اتسم فى مجموعه بالصدق وقدرته الفائقة على التوفيق بين عواطفه المحتدمة وبين إرادة عقله الصارم ، فنجد أن أدبه فى نهاية الأمر يضم خلاصة تجاربه وبواعث آماله وأفراحه وآلامه !

وهو بذلك يختلف مثلا عن الأديب الفرنسى الكبير « أناتول فرانس » فى مرحلة حياته الأولى حين اهتم بالثقافة ، ولم ينعم النظر فى ذاته ، فجعل من ذهنه معرضًا لآداب الأجيال الغابرة وفنونها ، فتولد فيه ضرب من العبث بالأفكار ، والتشكك فيها ، والسخرية من آراء الفلاسفة والمفكرين جميعًا . . وتجلى ذلك فى تلك « المأدبة الشهيرة » التى رسمها فى قصته « تاييس » حين اجتمع الفلاسفة حول المائدة وأخذوا يتطارحون النظريات ، كل يباهى برأيه ويجتهد فى الزود عنه ، غير حافل بالوصول إلى حقيقة قدر ماهو مأخوذ بنشوة الجدل العقلى ، فالفكر كان يبدو « لأناتول فرانس » مثارًا للجدل فقط ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه لم يمر بأزمة وجدانية أو تجربة إنسانية

تعصف به فتكشف له عن دخيلة نفسه ، وتقربه من نفوس الغير ، وتجبره على أن يعكس فى أدبه الجانب الوجدانى والجانب الإنسانى وتجعل أدبه أكثر صدقًا وأصالة وحرارة .

ولكن « أنيس منصور » جمع بين النقيضين فى مقدرة فائقة وتفرد عجيب ، إنه جمع فى أدبه بين عقلانية « العقاد » وإنسانية « المازنى » ، وبين صرامة « نيتشة » وسلاسة « جوته » ، فجاء هذا المزيج الغريب من الأدب الوجدانى المطعم بالقليل من التوابل الفلسفية والعقلية !

وقد ساعده ذلك فى قصصه القصيرة التى كتبها خاصة مجموعته « عزيزى فلان » ، ومجموعته « هى وغيرها » حيث نجح « أنيس » فى تصوير نوازع النفس الإنسانية والصراع الذى ينشب بين الغرائز وبينها ، ولم يكتف بتسجيلها تسجيلا عقليًا فلسفيًا مجردًا . . والسر يكمن بالطبع فى أنه جمع بين الفلسفة والأدب فى توازن نادر دقيق ، أى أنه جمع بين الوجدان والعقل ، فجمعت قصصه بين النزعة الفنية والنزعة الإنسانية !

أدب السيرة الذاتية

فى خواطره الذاتية التى يعكس فيها خفقات قلبه وهمسات روحه ، ومايضطرم فى نفسه من مشاعر وهواجس وأحاسيس ، تجلت لنا أفكاره ونظراته فى الحياة والمجتمع والفن والواقع والخيال ، وقد اتسمت هذه الخواطر بالحرارة والصدق .

وميزة « أنيس منصور » أنه لم يخف عنا شيئًا من هواجس نفسه وهمسات روحه ، بل أودع ماكتبه كل ماجال بخاطره ، وكل معاناته وأحزانه وأفراحه ، فجاءت هذه الخواطر كأروع ماكتب فى أدب السيرة الذاتية فى أدبنا العربى المعاصر ، لأنه كانت لديه الشجاعة الكافية لأن يصور لنا – بصدق وصراحة – كل مايجول بخاطره ووجدانه من مشاعر وانفعالات مفرحة أو محزنة .

إنه مثلا حين يروى لنا تجربته الطويلة الحافلة مع الأرق والمَلل ، يصور لنا مشاعره وأحاسيسه بصدق ، ويفصح عن فلسفته فى الحياة والحب والملل حين يقول : [١]

« الملك شهريار فى « ألف ليلة وليلة » كانت تروى له « شهر زاد » قصته كل يوم ... وكانت قصصها مسلية .

فقط ألف قصة وقصة . . ولكنها لاتستطيع أن تروى كل يوم قصة . . . وحتى لواستطاعت فكيف يستطيع إنسان واحد أن يسمع من امرأة واحدة ألوف القصص .

إن القصة قد تكون مثيرة . . ولكن كيف تكون امرأة واحدة مثيرة دائماً ؟ !

إذا كانت المرأة مثيرة ، فكيف يكون الرجل هو نفسه مستمتعاً ممتعاً طول الوقت ؟

كيف لايملها ؟ كيف لاتمله ؟

ثم يصور مشاعره بصورة أدق وأوضح فيقول :

« هذا الملل الذى يصيبنا ، يجعلنا أقل تذوقًا للدنيا.. يجعل طعمها على اللسان غريبًا . . ويجعل ألوانها فى العين غريبة ، ورنينها فى الأذن غريبًا ، وملمسها فى اليد غريبًا أيضًا .

فالملل هو الذى يجعل كل ماحولنا غريبًا . . أو يجعلنا نحن غرباء فى هذا العالم . . وغرباء عنه !

فالشعور بالغرابة ، والشعور بالغربة ، والشعور بالاغتراب ، هو بداية الملل ، فالملل يجعل العين تأنف من الرؤية ، ويجعل من الأذن تعاف الاستمـاع ، ويجعل أيدينا فى حالة غثيان من لمس كل ماحولنا .

ويحس الإنسان كأن مرضًا أصاب الدنيا . . . إنها بدأت تذوى وتجف وتتساقط .

إن الملل هو إعلان خطر عن بداية الخريف والشتاء فى عز الربيع .

والملل مرض شديد العدوى .

هذا المرض الذى أصابنى وانتقلت عدواه إلى كل ماحولى هو الملل .

فأنا فى حالة الملل ، لاأعرف بالضبط إن كنت أنا المرض أو أنا المريض . .

---

(١) أنيس منصور / وداعاً أيها الملل ط ١٩٧٠ / ص ١٥ .

ولاأعرف إن كنت أنا المريض الذى انتقلت عدواه إلى غيره أو أنا الضحية لمرض الآخرين !

والملل كالمرض ، من الممكن أن يصيبنى دون أن أشعر به . . . وليس معنى عدم شعورى بالملل ، أننى لست فى حالة ملل . . فمن الممكن أن يشكو الإنسان من أوجاع فى ركبته دون أن يعرف أن سبب هذه الشكوى هو تسـوس فى أسنانه . . أو يشكو من الصداع دون أن يعرف أن سبب الصداع هو ضغط الدم ، أو التهاب فى المصران الغليظ !

ولكن ألم يجد « أنيس منصور » وسيلة للخلاص من الملل ؟

هل الملل أصبح خاصية يصاحبها لايمكن أن يزول ؟

ألا يوجد هناك أمل ؟

بعد طول التطواف والشطحات الفكرية ، وجد كاتبنا الحل فى الحب كما سبقه إلى ذلك « الملك شهريار »[1] :

« أنا أحب . . وأنت تحب . . « وشهريار الملك » يحب : إذن لاأنا ولاأنت ولاهو سنعرف الملل » !

* * *

ويصور لنا « أنيس منصور » خلجات نفسه وهمسات روحه ، من خلال استبطان ذاته ليجيب لنا عن سؤال حيوى طالما سأله لنفسه « من أنا » ؟ فتكون إجابته خواطر ذاتية تكشف لنا عن ملامح نفسيته وأبعاده الفكرية والوجدانية ، وفلسفته فى الحياة والحب ، فيقول :

« لا توجد عندى وسيلة للمعرفة سوى نفسى ... وسيلتى إلى معرفة العلاقات الإنسانية هو أنا ! .

فأنا المرصد والأجهزة التى اطل بها على العالم الخارجى ومن حين لآخر يجب أن يتأكد الإنسان من دقة هذه الأجهزة ، فينظر بها للداخل بدلا من النظر بها من الخارج

(١) أنيس منصور / وداعاً أيها الملل / ص ١٨ .

كما يحدث لأى طبيب ، فبدلا من أن يعالج غيره يعالج نفسه ، فهو فى هذه الحالة الطبيب والمريض معًا .

فأنا الرائى وأنا المرئى . . . أنا الممثل وأنا المتفرج .

وهى عادة عند كل فنان ومفكر : أن ينظر إلى نفسه وإلى أعماقه ، فالدنيا كلها تصب فى داخلى وأنا الوسيلة الوحيدة لكى تخرج هذه المعانى إلى العالم الخارجى .

فهى جاءت منه فوضى وتعود إليه منظمة ، فأصابعى التى تمسك القلم هى « دود القز » الذى يحول أوراق التوت إلى حرير !

وأصابعى وقلمى هما اللذان يحولان خيوط الحرير إلى أثواب !

فما أطول المسافة بين ورق التوت والبلوفر ، فالبلوفر أصله ورق التوت ولكن كم من العمليات المعقدة مرت بها ورقة التوت لتتحول إلى بلوفر .

وليس فى داخلى لابلوفرات ولامعانى ، ومفاهيم مثل هذا التعقيد ، ولايستطيع أى فنان أن ينشغل بنفسه طوال الوقت على العالم الخارجى . ولكنه من حين لآخر يهرب من الداخل إلى الخارج ، ويعاود الهرب من الخارج إلى الداخل ، والفنان بطبعه فريسة وسيلتها الهروب والتخفى » .

بهذا الأسلوب الفريد ، والتحليل الدقيق ، وذلك الصدق فى التعبير عن المشاعر والانفعالات ، جاء هذا الأدب الوجدانى صورة صادقة ومعبرة وفريدة فى أدبنا المعاصر .

* * *

إن « أنيس منصور » لم يكتف فقط بتسجيل أفكاره وهواجسه وانفعالاته . . بل سطر لنا تجاربه فى الحياة والحب ، فروى لنا تجربته مع الفقر والألم والمرارة فى طفولته وصباه . . . روى لنا تجربته مع الحرمان وعدم الاستقرار فى طفولته المبكرة ، ومعاناة أبيه ذلك الشيخ الطيب النقى الضمير ، الذى صادفته المتاعب بسبب إصراره على أن يكون صريحًا وصادقًا وشريفًا ، ومعاناة أمه بسبب التشتت وألوان الهوان ، وصبرها على احتمال الألم فى صبر وإيمان . . روى لنا فى صدق تجربته مع الخوف والفزع فى

طفولته من تلك الصور القاسية المفزعة :

صورة هؤلاء الذين يدقون باب منزلهم فى ساعة متأخرة من الليل فى العزبة التى كان يعمل أبوه فيها . .

وصورة الطلقات النارية المفزعة . . .

وصورة الدموع فى عينى أمه ، وهى تنظر من النافذة فى صبر وإيمان وترفع يديها إلى السماء تدعو الله بالستر والعافية !

إن من أروع ماكتبه « أنيس منصور » فى (أدب السيرة الذاتية) ماكتبه عن ذكريات طفولته وصباه فى أعماق الريف ، وألوان العذاب والفقر والهوان الذى عاناه فى رحلته فى بحر المعرفة !

إنك حين تقرأ هذه الصفحات تشعر فى كل سطر فيها بحرارة الصدق والأمانة والصراحة ، فى الكشف عن خلجات نفسه ، وهمسات روحه ونبضات قلبه ، وما يرويه عن ذكرياته الحزينة والمفرحة بلا مواربة أو لف ودوران ، بل تلمس فى كل سطر الصدق والحرارة والأمانة !

إن من أروع ماكتب فى أدب السيرة الذاتية ، وأدب الاعترافات هذه الصفحات التى أوردها هنا كاملة ، لتكتشف بنفسك روعة صدقه ، وعذوبة صراحته ، وجمال أسلوبه فى اجترار ذكريات الشقاء والعذاب والحرمان !

يروى لنا « أنيس » بأسلوبه الممتع الرشيق ذكرياته ورحلته الطويلة المضنية فى بحر المعرفة فيقول[1] « الله يفتح عليك يا ابنى » !

كنت أسمعها من أبى فى كل مرة يرانى أمسك كتاباً وكان يعجبنى منه هذا الدعاء ، فكنت أبالغ فى قراءة الكتب . . أو فى أن أبدو أمام والدى وأنا أقرأ الكتب . وكانت هذه الكتب – دائماً – كتب والدى . فلم تكن لى كتب خاصة وأنا دون العاشرة من عمرى . .

وكنت أسمع والدى وهو يروى لأصدقائه وضيوفنا أننى ولدت والكتاب فى يدى .

---

(١) أنيس منصور / ساعات بلا عقارب ط ١٩٧٢ / ص ٥ المكتب المصرى الحديث .

ولم يكن يقصد بذلك أنني ولدت قادرًا على القراءة . وإنما حيث أكون ، يكون هناك كتاب فى يدى أقلب فيه . . من اليمين إلى الشمال . أو مقلوبًا فى يدى . . ولم أكن أفرق بين كتب بالعربية أو بغيرها من اللغات . .

ولا أعرف لماذا كنت أنظر إلى أى كتاب على أنه مصحف . على أنه كتاب مقدس . ولذلك كان يجب أن أمسكه بعناية . وأنا أقلب فى صفحاته وأنا جالس . وقد لاحظت أن أبى لايقرأ الكتاب إلا جالسًا . ولم أعرف فى ذلك الوقت ، وإلى وقت قريب أن فى الإمكان قراءة الكتب والإنسان نائم فى فراشه ، ولاأذكر حتى الآن ، أننى قرأت كتابًا واحدًا وأنا نائم ، ولأنى أحترم الكتاب ، ولأنى حريص على أن تظل أوراقه سليمة ، وغلافه سليمًا ، وعلى أن أقرأه بعناية واهتمام ، فلابد أن أكون جالسًا

ولذلك فكل الكتب التى أقرؤها تحتفظ بوقارها واحترامها تحت عينى وبين يدى . وأحب أن أرى الكتب هكذا محرمة التناول . . ومن هنا كان حرصى على أن أشترى كتبًا . وحرصى على ألا أعطى كتبى لأحد من الناس . . حرصى أيضًا على ألا أستعير كتب أحد . فأكثر الناس لايحتفظون بالكتب نظيفة محترمة .

وأكثر الكتب التى وجدتها فى بيتنا وأنا صغير كانت دينية وأدبية .

وكان أبى رجلا متدينًا . وكان ذواقة للشعر والتاريخ والنوادر . وكان رجلا محترمًا . وقد لاحظت أنه حريص على أن يكون محبوبًا أكثر من أن يكون مهيبًا مهابًا . فكان يحب أن يستمع إليه الناس . وكان يحب الناس . وكانت روحه المرحة تذيب المسافات التى بينه وبين الناس . وكان يحفظ الكثير من الشعر . وكان ينظم الشعر . وكانت كل الكتب فى بيتنا من الشعر وعن نوادر الشعراء ، فهى كتب تؤهل من يقرؤها إلى أن يكون سميرًا جليسًا .

ولم أدرك كل مافى هذه الكتب من معان يوم قلبت فى معظمها . . فقد تعثرت أصابعى فى صفحاتها . وتعثر لسانى فى نطقها . وأعتقد أننى قرأتها كلها . وأعتقد أننى لم أفهمها كلها . فقد كنت أدرب عينى على القراءة فقط . وكانت المسافة كبيرة جدًا بين عينى وعقلى .

وأمام سخرية بعض الأقارب والأخوة بدأت أحس وأنا صغير أننى أفعل مالا أفهم . وأننى أقرأ مالا أدرى . ولكنى مُصِرّ على القراءة . فكنت أخفى الكتب تحت السرير وأختفى معها وكثيرًا ما نمت تحت وطأة التعب . وكان التعب مصدره أن الضوء ضعيف تحت السرير . وأن جلستى لم تكن مريحة . فكنت أقع من التعب . وأنا على البلاط ، ومرضت . وعرفت العناد فى القراءة . والإصرار على القراءة . ورأى ذلك والدى . وكان يقول : الله يفتح عليك ياابنى .

وتعلمت القراءة فى البيت . . بل فى أكثر من بيت . . ومن الصدف الغريبة أننى عندما كنت مدرسًا للفلسفة فى الجامعة . فوجئت بأن أحد تلامذتى كان من بين الذين علمونى القراءة وأنا طفل صغير !

* * *

وذهبت إلى كتاب القرية . .

وجلست أمام سيدنا أحفظ القرآن الكريم . أول كتاب وأعظم كتاب . وأول درس للنطق السليم للغة العربية . وجلست على الأرض . وجلس سيدنا على مقعد مرتفع . وكنا نرى سيدنا عاليًا : لأنه سيدنا وأستاذنا ولأنه يحفظ القرآن الكريم . ويعلمنا القرآن الكريم . وقال . وقلنا وراءه . وكانت له طريقته الخاصة فى الأداء . وكنا نقلده . وحفظت الكثير ولم أكن أدرى من الذى حفظته شيئًا . ولكن كنت أسمع من أبى شرح الآيات والسور .

ولا أحتفظ لأيام الكتاب فى قرية (نوب طريف) مركز السنبلاوين سوى ذكريات مريرة . فقد كان سيدنا قاسيًا ، وكانت عصاه أطول منه . . فقد كان قصيرًا ، وكان صوته صارخًا ، وكان بيته متداعيًا ، وكان يضع نوعًا من العطور مؤلمًا . وكانت تنبعث من بيته ومن حول البيت روائح كريهة ؛ وفى كل مرة أتذكر سيدنا يمتلئ أنفى برائحة كريهة . وقد ظللت سنوات طويلة لا أطيق رائحة نوع من الصابون ، لأنها تذكرنى بسيدنا ، وملابس سيدنا ، وعصا سيدنا .

وأعتقد أن سيدنا ضربنى مرة ومرة . .

وكانت صدمة عنيفة . فقد سمعت فى مجالس أبى أن الذى يحفظ القرآن مفضل على كل الناس . وأنه سوف يدخل الجنة قبل الذين لم يحفظوه . وأن من حق كل من حفظ القرآن أن يعطى يده للناس فيقبلوها . ولكن الذى يفعله سيدنا بزملائى من الأطفال شئ آخر . فنحن نجلس على الأرض . وهو يجلس فوق . ونحن ممنوعون من الطعام . وهو وحده الذى يأتى بالفطير ساخنًا والقشدة والبيض ويتناول ذلك أمامنا نحن الأطفال ولايعطينا شيئًا . ولايسمح لنا بأن نأكل – وعندما يفرغ من إفطاره الذى يستغرق وقتا طويلا يطلب إلينا أن نساعد زوجته وأمه فى أعمال البيت ، وكان من بين أعمال البيت : كنس البيت وإطعام الدجاج والماشية وتفريط كيزان الذرة . وكثيرًا مااشتكت زوجته أو أمه من واحد منا . . . فينهال ضربًا علينا جميعًا !

إن سيدنا لايعرف ماالذى يقوله الناس فى مجالس أبى عن الذين يحفظون القرآن . وربما كان عذر سيدنا أننا لم نحفظ القرآن بعد . يضربنا لا باعتبارنا تلامذة . ولكن باعتبارنا عمالا جهله بشئون البيت ! وفى كتاب آخر فى قرية (كفر الباز) مركز فرسكور ترددت على كتاب . وكان صاحب الكتاب من أقاربى . ولم يكن عدد تلامذته كثيرين كنا خمسة أو ستة . كان سيدنا هذا يعلمنا القرآن الكريم والخط . وكان هو يكتب بقلم أحمر . ونحن نكتب بالقلم الأسود . وكان قلمه الأحمر ميالا إلى اللون البنفسجى . وعرفنا منه فى ذلك الوقت أن هذا اللون اسمه : دم الغزال . . وهناك لون أحمر اسمه : لحم الهوانم . وكان سيدنا يختار دم الغزال ، ويفضله على لحم الهوانم . ولكن الأقلام فى ذلك الوقت رفيعة وطويلة جدًا . .

أحيانًا يصل طولها إلى المتر ونصف المتر . . وكانت على شكل عصا إلى رأس ثعبان . .

ولم أتعلم كثيرًا فى كتاب سيدنا هذا . وذهبت إلى كتاب ثالث لأحفظ القرآن الكريم وحفظت القرآن فى سنتين .

وتطلعت إلى الوعود الكثيرة التى سمعت عنها . فقد وعدنى والدى بأن يشترى لى ملابس جديدة ، وشرح لى هذه الملابس بالتفصيل . وتناقشنا فى ألوانها . . وكان أبى

أكثر حماساً من أمى . . فقد كانت أمى ترى فى هذه الوعود إسرافًا : فى الكلام أو إسرافًا فى الإنفاق .

ويوم حفظت القرآن جاء سيدنا معى إلى البيت . وهو فخور . ونحن فى الطريق إلى البيت كان يتعمد الوقوف عند بيوت الناس . أناس لا أعرفهم . ويقدمنى كأحسن (منتجات) الكتّاب ، وكأحسن تلامذته . وكانت تتردد على أذنى من أفواه لا أراها بوضوح عبارة . الله يفتح عليك يابنى..

وكنت لا أرى هذه الأفواه بوضوح . فلم يكن من عادتى أن أنظر إلى أحد فى وجهه ، لاأعرف لماذا . فقد اعتدت أن أنظر بعيدًا عن الناس . أتفادى النظر إليهم . وأتفادى نظراتهم . فأنا أتفاداهم كأننى أستدرجهم إلى أن يفعلوا مثلى : ولا أعرف ماالذى قاله الناس لسيدنا .

وعندما ذهبنا إلى البيت . انطلقت أسبق سيدنا واتجهت إلى أبى . لأقول له : إننى حفظت القرآن . وأن سيدنا فى الطريق .

وأنا وأنا . . وأن من حقى أن أفوز بما وعدنى به . وذهبت إلى البيت . ورأيت على وجه أبى ماعتدت أن أراها كثيرًا ولاأعرفه . رأيت وجهه حزينًا . والمسبحة فى يده . وأعصابه حائرة وشفتاه حائرتان . . ويداه ترتفعان بين الحين والحين إلى السماء وهو يردد دعاءً حفظته وأنا طفل لاأعرف معناه . فقد كان أبى يردده كثيرًا . لأنه أحب هذا الدعاء . أو لأن هناك ظروفًا متعددة متكررة كانت تقتضيه . كان يقول : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس .. وهوانى على الناس : ويكرر هذه العبارة الأخيرة وصوته مخنوق بالدموع !

لقد كان أبى إذن يشكو الناس إلى الله . . ويشكو إلى الله أن يخفف من هوانه على الناس وفى هذه اللحظة الأليمة وفى قلب هذه الشكوى من الناس ، والشكوى إلى الله ، جاء سيدنا يزف إليه هذه البشرى : إن واحدًا من أبنائه التسعة قد حفظ القرآن الكريم !

لقد ذهب كل شيء . اختفت فرحتى وضاعت أحلامى وآمالى من الخوف من الهوان على الناس .

ولا أعرف ماذا قال أبى ولا ماذا قال سيدنا . .

وأدركت أن أبى الذى يحفظ القرآن ويحفظ مئات القصائد من الشعر ، ليس أحسن حالا من غيره من الناس . بل هو أكثر الناس تعاسة وعذابًا . . وإلا فلماذا يشكو أبى إلى الله . فلماذا يرفع يديه إلى السماء كثيرًا . لماذا يبكى وهو يصلى ، ولماذا يبكى وهو يرتل القرآن ؟ ولماذا هو حزين ؟ وما الذى فعله أبى ؟ لا أعرف . .

وأصبح من الصعب علىّ أن أنظر إلى وجه أبى هو أيضًا .

ولم أعد أقرأ القرآن ولا أعتقد أننى لمست القرآن بعد ذلك . . ويوم حفظت القرآن عرفت أن هناك كتبًا مختلفة ليس من الضرورى أن يحفظها الناس . وليس من الضرورى أن يحترموها ويقدسوها . . إنها كتب فقط . وهذه الكتب تشبه أى شئ آخر . تشبه الأطباق والسكاكين وتشبه المقاعد . فى استطاعتك أن تلمسها وأن تتركها . وفى استطاعتك أن تقرأها وأن تتجاهلها . فليست كل الكتب مقدسة . ولا كل كتاب قرآنًا وحتى عندما أمضيت سنوات عديدة أذهب إلى الكتّاب وأجلس أمام سيدنا وأقرأ القرآن . حتى (جودته) فما الذى حدث بعد ذلك . . ماالذى لقيته من أبى ومن غيره من الناس ؟ لاشيء . كأننى ماقرأت وكأننى ماحفظت فعشرات من الناس فى القرية يحفظون القرآن . وهم جميعا يقرأون فى المآتم . ويذهبون إلى المقابر . أكثرهم أعمى وأقلهم بعين واحدة !

وهذه الكتب التى ليست قرآنًا أعطتنى شيئًا من الحرية . فليس من الضرورى أن أحفظها كلها . وليس من الضرورى أن أقرأها كلها . وليس من الضرورى أن يعرف أحد ذلك . فمضيت أقرأ . ولكن هذه الكتب كانت بعيدة عنى . إنها تتحدث بلغة غريبه . ولا تربطنى بها صلة . فليس فيها شيء يمكن أن أنقله لأحد . فأنا فى الليل أقرأ (أدب الدنيا والدين) ، وفى الصباح ألعب فى الحارة . . وفى الليل أحفظ (دلائل الخيرات) ، وأستحم فى الترعة ولاصلة بين الاثنين . ولاصلة أيضًا بين أن تضربنى أمى

بشدة لأننى تشاجرت مع أحد الأطفال ، ولابين أن أحفظ قصيدة (البردة) للبوصيرى . .

وقد عرفت من أبى بعد ذلك أننى لم أكن أتشاجر بالمعنى الحقيقى . فهى لا تذكر أننى ضربت طفلا ولا اعتديت على أحد . ولكن أمى فى ذلك الوقت كانت تعانى آلامًا نفسية وجسمية ومادية عنيفة . وكانت قسوتها علىّ نوعًا من قسوة الأيام عليها أيضًا . . وكانت معذورة . ولم أكن أعرف عذرها .

وقد أعطانى القرآن الكريم حقًّا فى أن أحضر جلسات الذكر . وأن أذهب إلى المسجد أحاول أن أفهم . ولم أكن أفهم الكثير . ولكن كان جواز سفرى إلى عالم الفقهاء هو أننى أحفظ القرآن . وحفظ القرآن هو خطوة – ولا شك – نحو فهم القرآن وفهم أصول الدين . . فأنا بغير شك مفضل على كثير من المصلين . .

ولم أجد من يرشدنى إلى فهم القرآن . . ولم أجد أحدًا يأخذ بيدى إلى فهم كتب كثيرة ووجدتنى وحدى . . أقرأ ما أجده . وأبحث عما أسمع عنه . ولم أكن أجد ماأريد . وإنما أجد مايعجب غيرى من الناس . أذكر أننى قرأت إعلانًا فى جريدة (الأهرام) ، عن إحدى دورالنشر فى القاهرة يطلب من القراء أن يبعثوا بعشرة قروش عن طريق البريد ، والدار تبعث لهم بنسخة من أهم الكتب التى صدرت هذا العام . وجمعت العشرة قروش وأرسلت خطابًا إلى دار النشر . وكنت فى ذلك الوقت تلميذًا فى الثانية الابتدائية . ولم يصلنى رد . وسخر منى الناس . وأكدوا لى أن هذه الدار قد نصبت علىّ . ولم أفهم فى ذلك الوقت معنى ماحدث . ولم أرسل خطابًا إلى أحد من الناس بعد ذلك . وكنت أحب أن أكتب الخطابات إلى أصدقائى . فى أثناء الأجازة الدراسية . وكانت خطاباتى أقرب إلى المذكرات ، فكنت أحدث زملائى عن الكتب التى قرأتها ، وعن مجالس أبى وأصدقائه . ومن الغريب أن زملائى كانوا يتلقون خطاباتى هذه بالاستخفاف ، وكانوا لايردون عليها . وحدث أن واحدًا منهم كتب لى خطابًا يقول فيه إنه سيسافر إلى الإسكندرية ليستحم فى البحر ، ولم أفهم هذا الخطاب . ولم أعرف لماذا يسافر الناس إلى الإسكندرية ، ولماذا الإسكندرية وماالذى

يفعله الناس فى البحر ، وأى نوع من البحار هو ؟ . وحاولت أن أعرف معنى هذا اللغز ولم يدلنى أحد . . ولم أعرف بحر الإسكندرية إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة فرأيته لأول مرة !

«ورأيت فى الريف مارآه الكثيرون : الحياة ضيقة ، خافته ، مخنوقه . النهار قصير والليل طويل ، وكان نهارى أضيق من نهار الناس . وليلى أطول من ليل الناس . فقد عشنا غرباء فى بلاد كثيرة . كنا نجرى مع أبى من قرية إلى قرية . ومن مدينة إلى مدينة . وكان انتقالنا يحدث فى الليل . وكان الليل كريهًا وكان مخيفًا . وكنت أرى فى الليل أشباحًا كثيرة . وكنت أنهض مفزوعًا لأجد كل من فى البيت نائمًا . وكنت أنهض من النوم لأجد سلالم نزلت من السماء . وأجد يدًا طويلة تمتد لإنقاذى . وفى إحدى المرات عندما تدلت هذه اليد من السماء تركتها لأجمع كتبى وأجرى معها . وعندما نزلت من السرير وجمعت كتبى لم أجد السلم ولم أجد اليد.. وإنما وجدت أبى يصلى ويدعو الله قائلا : وهوانى على الناس.. وهوانى على الناس..

«ولما رآنى أبى قد جمعت كتبى ، وكان هو قد فرغ من صلاته ، وضع رأسى على ركبته ولمسنى بيده حتى أنام . ونمت . وفى الصباح وجدتنى على الفراش . ولم يشأ أبى أن يأخذ منى الكتب . لقد وضعها إلى جوارى على المخدة .

ولم أعد أرى هذا السلم – ولاهذه اليد الممدودة من السماء .

وكانت الكتب وحدها هى التى تقوم بدور السلالم . . وكان مؤلفو الكتب هم الأيدى المتواضعة التى تأخذ بيدى فيختفى النهار فى الليل ، وتختفى مخاوف الليل مع فجر النهار . وكنت أغلق بابى فى وجه الريح ووجه الذئاب ، وأفتح أبوابًا أخرى فى هذه الكتب . .

«وفى تلك الأيام لم أكن أشعر بالأمان. فهذه الكتب لم تمنع أبى من أن يدر ويدوخ . لماذا ؟ لا أعرف . لماذا نحن على سفر دائمًا ؟ لا أعرف . لماذا نجمع ملابسنا فى حقائب ونضعها فى سيارة واحدة ونتنقل مع الليل من مدينة إلى مدينة . لماذا ؟ لماذا يضع أبى ساعة الحائط على ركبته . وتضع أمى حقيبة الملابس على ركبتها . وأضع أنا

الكتب وبعض أدوات الطعام على ركبتى وأظل طول الليل أنظر إلى حيوانات غريبة تتعلق بالسيارة . . حيوانات مثل الذئب وأحيانًا مثل الحصان . وكلها تطارد السيارة .

«ثم لا أنطق بكلمة. وإنما ينقذنى النوم من الفزع. ويمنعنى الفزع من السؤال. وعندما تتكون مفردات السؤال على شفتى تمنعنى ابتهالات أبى إلى الله أن أقطع عليه هذه المكالمة اللاسلكية مع السماء . وأسكت . . وكل يوم أرى وأسكت . . وأخاف وأسكت ، وأفزع وأسكت ، وأتوهم وأسكت ، وأنام لأرى مايخيفنى وأسكت .

«وتجئ الكتب تنقذنى وتختطفنى من مخاوفى. وتختطفنى من الطعام الذى يوضع أمامنا فى طبق واحد ونفرغ منه فى دقائق . فطعامنا فى ذلك الوقت كان من الممكن أن يتناوله الإنسان بيد واحدة . . فما الحاجة إلى اليد الأخرى لمن يقطع لقمة من رغيف ثم يبلها فى طبق . كانت يد فى الطبق ويد تمسك الكتاب . . ثم اليدان معًا تمسكان الكتاب !

وكان لى زميل فى مدرسة أبى حمص الإبتدائية. وكان قادرًا على شراء الكتب. وكان يشترى منها الكثير. وكانت كل كتبه روايات بوليسية . دنيا أخرى . . اسماء أجنبية . أسماء الناس والشوارع . . وهناك مطاردة مستمرة . . مطاردة فى داخل الرواية . ومطاردة منى لأبطال الرواية . ومطاردة لهذا الصديق . فأنا أذهب إليه وآخذ كل ماعنده من روايات عشرين رواية وأحيانًا ثلاثين . وأعيدها إليه بعد أسبوع . . إنها دنيا مثيرة غريبة عجيبة . . دنيا أخرى غير هذا العالم البليد الخانق المخنوق الذى نتلحرج فيه !

«ولكن لاحظت أننى كنت أقرأ وكأننى لا أفهم. فأنا لا أستطع أن أروى قصة واحدة . ولا حادثة واحدة . وإنما كان مايحدث هو أننى اقرأ وأستمتع فقط . ويضيع الوقت . فإذا جاء الليل كنت مهدودًا ونمت . ومع الفجر أفتح عينى على هذه الروايات المثيرة . وربما كان سبب عدم حفظى لهذه الروايات أنى لا أجد من أحكى له . لا أحد . فأنا وحدى أقرأ وأنا وحدى ملهوف . وأنا وحدى منعزل عن العالم . لا أحد كأننى أعيش فى فراغ .

«وكانت متعتى مطلقة مؤكدة. ولكن متعتى لم تكن كالأمراض معدية. لم أكن قادرًا على نقلها إلى أى أحد. فلم يكن هناك أحد.

« وربما كانت الفائدة النفسية المؤكدة لهذه الروايات أنها جعلتنى أتخفف من الخوف والفزع . فقد كانت هذه الروايات نوعًا من اللعب بالخوف وفى نفس الوقت انتصارًا على الموت . فقد كنت أقرأ هذه الروايات وأنا مشدود مشدوه خائف ولكن هذا الخوف كان مجرد (اندماج) منى على جو الرواية . . مجرد تأثر. ثم لايلبث أن يتلاشى . فهو خوف مؤقت . خوف فنى مدروس مركز ولكنه خوف لذيذ . . يعنى أنه من الممكن أن يكون الخوف لذيذًا مسليًا . وليس شيئًا ثقيلا بليدًا ؛ حجرًا يسد الطريق إلى رحمة الله . ولايجدى معه هذا الدعاء الذى أقوم عليه وأنام عليه . . أو أتساقط بين حروفه وكلماته . . وهوانى على الناس !

«وعشت سنوات طويلة فى (روايات الجيب) ، التى تقدم ملخصًا للأدب العالمى ، والتى كان ينشرها عمر عبد العزيز أمين . .

«وعندما انتقلت إلى المنصورة. انتقلت أيضًا إلى عالم جديد من الكتب. فعالمى كله كتب ودنياى كتب . ووسيلتى إلى أن أدرس الواقع وأرتقى على سلالم سحرية إلى مافوق الطبق الواحد . وإلى مافوق السيارة المرتجفة فى الليل : هى الكتب دائمًا !

فى المنصورة كانت هناك مكتبة عامة . . فيها ألوف الكتب . فى الأدب والتاريخ و (الفلسفة) ، وقد سمعت عن هذه الكلمة الأخيرة لأول مرة فى المنصورة . ولم أكن أعرف بالضبط معناها . ولكن أغلب الظن : أنها أفكار غريبة . وعندما لاحظت أن الناس ينطقونها باحتقار أدركت أنها نوع من الأفكار الكريهة . وغالبًا الأفكار التى تتنافى مع الدين !

وقلبت فى الكتب التى قرأت عليها كلمة (فلسفة) وكانت أصابعى ترتجف كأنها تمشى على حقول ألغام . . وكانت عيناى أكثر خوفًا من أصابعى . والذى قرأته لم أفهم منه شيئًا .

وبدأت أقرأ فى التاريخ ولم أجد متعة واضحة . ولا أذكر أحدًا من المؤلفين . .

ووجدت فى المكتبات كتبًا صغيرة أنيقة عن السيرة الإسلامية . وكانت هذه الكتب صغيرة وأنيقة وملفوفة فى ورق سوليفان . واخترت منها واحدًا من تأليف (محمد صبيح) . وكان عن « محمد » . وأخذت كتابًا ثانيًا وثالثًا . . واشتريت كل المجموعة . .

الكتب سهلة العبارة . رخيصة الثمن . ويمكن أن يضعها الإنسان فى جيبه . ليفتحها فى أى مكان يجلس إليه . .

وأعظم حدث فى حياتى كقارئ عندما سمعت عن مجلتى (الثقافة) و (الرسالة) . .

وعن طريق هاتين المجلتين عرفت دنيا الأدب والفكر فى مصر . وارتبطت نهائيًا بالثقافة المصرية والعربية وتابعت المؤلفين والقضايا . وأحسست لأول مرة أننى فى (الجو) المناسب . وأن هذه هى درجة الحرارة التى أستطيع أن أعيش فيها . . وأننى رأيت نفسى وعرفت قدراتى ورغباتى . . هنا . . هنا . . ومع هؤلاء وبين هؤلاء . . ولغة هؤلاء . . وضمن هؤلاء . .

وقرأت للعقاد . . وقرأت للعقاد . . وهزنى العقاد . . وبهرنى . . وتابعته . . وتابعت معه كل قضاياه . . وأصبحت من أكثر الناس ترددًا على ندوته يوم الجمعة عندما دخلت جامعة القاهرة . .

وقرأت لطه حسين . . وقرأت لتوفيق الحكيم . . وقرأت لكل أعلام الفكر والأدب والفن .

وأحببت المكتبات العامة . . فيها كل ماأريد . . وأكثر مماأريد . ولكن ليست فيها حريتى . . فأنا لاأستطيع أن انتقل بين رفوفها . . ولاأستطيع أن أتحرك كثيرًا . . ولاأجد فيها المجلات الأدبية يوم صدورها . . واكتشفت (الكراهية) فى وجوه زملائى من التلاميذ ، فقد كنت تلميذًا متفوقًا . . وكرهت الملابس الجديدة والأحذية الجديدة .

وكرهت المكتبات العامة لأنها تجعلنى أحس بأننى عاجز عن شراء ماأريد . وعاجز عن قراءة مجلتى (الثقافة والرسالة) فى نفس اليوم . . وأنا لاأطيق صبرًا على الانتظار يومًا ويومين حتى تشتريها المكتبات العامة . .

وكرهت الكتب . وكرهت الكتابة والقراءة . ففى كل يوم يتأكد لى أن أبى لم يستفد مما قرأ . وأن الذى قرأه – وهو كثير – لم يخفف عنه أهوال الحياة . ولم يضع يديه إلى جواره . . بل إنه ينام مرفوع الذراعين منكس الرأس مكسور النفس . فما الذى فعلته ؟ ماالذى فعلته القصائد ؟ ماالذى فعلته النوادر ؟ ماالذى يمكن أن يفعله من يقرأ ومن يكتب ؟ ماالذى يمكن أن أصير إليه أنا ، دون سائر إخوتى ، إذا كنت سأهتم بالكتابة والكتب . . وبالشعر والتاريخ ؟ ليس من الصعب على أمى أن ترى نفس النهاية . . نفس المصير . وربما كان مصيرًا أسوأ من مصير أبى . . فقد كنت أسبق إلى حفظ القرآن من أبى . هذا رأيه الذى يؤكده كل يوم وفى كل مناسبة . ثم إننى قرأت فى وقت قصير أضعاف ماقرأ هو . . ثم إننى تلميذ مجتهد . أكثر اجتهادًا من أبى ومن كل إخوتى الذين يكبروننى والذين يصغروننى .

وكرهت الكتب . وكرهت حبى للكتب . وكرهت ضعفى أمامها . كرهت تعلقى بها . . وازدادت كراهيتى يوم حملتها جميعًا لأبيعها بالأقه . كرهت أن أحملها . كرهت أن أبيعها كرهت أن يشتريها أحد . كرهت كل الناس فى الشوارع . . فليس فى أيديهم كتب ملفوفة حمراء نظيفة . كرهت الجدران التى أتساند عليها . التى أتخبط فيها . كرهت البقال . كرهت رائحة الجبنة والصابون والحلوى . كرهت الميزان النحاس . كرهت الموازين . . كرهت الأقة والأوقية . . كرهت القروش . . كرهت الخبز الساخن الذى أشتريته بعد ذلك . . كرهت الخبز الذى كان خمس أوقات من الكتب . . بعتها على أنها ورق . . مجرد ورق . . هل العقاد ورق ؟ هل طه حسين ورق ؟ هل الشعر مجرد ورق ؟ هل أدب الدنيا والدين مجرد ورق ؟ هل السيرة النبوية ورق فى ورق ؟

حتى كرهت كلمة : كرهت . .

كيف أنام ؟ كيف ينام البقال الذى اشترى كل ماعندى من كتب . طبعًا سوف ينام هذا الجزار ! هذا الذى رأى الكتب ملفوفة فى فوطة كأنها طفل . . لقيط . . بل طفل

شرعى . . بل أن بيع الكتب ليس إلا نوعًا من بيع الناس كرقيق . لايوجد رقيق . فكل الناس لكل الناس .

«ولكن القادرين من الناس اشتروا الفقراء. جعلوهم سلعة.. جعلوهم عبيدًا.. الفلوس هى التى جعلت بعض الناس سادة . . وجعلت أكثر الناس عبيدًا . . الفلوس هى التى جعلت أناسًا يملكون شراء الكتب ولايبيعونها من أجل الرغيف . . وجعلت بعض الناس يبيعونها حية دامية نابضة من أجل رغيف . .

«إننى بعت كتبى. لقد بعت قطعة من نفسى. وإن كانت كلمة (نفسى) لم يكن لها معنى فى ذلك الوقت . فلم تكن لى نفس . . بل لم يكن لى أى شىء — فحرف الياء فى كلمة (نفسى) لاتعنى أى شىء . . ولاأظن أننى استخدمت هذا الحرف إلا أخيرًا جدًا عندما أتحدث عن شىء يخصنى ، فلم يكن يخصنى شىء طول عمرى . . لأننى كنت واحدًا ضمن كثيرين . . وهؤلاء الكثيرون لاشىء يخصهم . بل هم لايخصون أحدًا من الناس !

«ومن الآن عندما استخدم هذا الحرف فإننى أحس أننى استعرته.. إننى استأجرته.. وإننى سوف أرده إلى أصحابه ! !

«وقررت بعد ذلك ألا أمشى من هذا الشارع من أوله لآخره.. ولم أذهب إلى بقال طول عمرى . . ولم أنظر إلى ميزان . . ولم أذق طعم الجبنة والحلاوة عشرات السنين . .

«وفكرت فى الانتحار. وكانت هذه أول مرة. فقد فكرت بعد ذلك كثيرًا وعلى فترات متباعدة ولأسباب مختلفة . . وقررت من أول مرة أن ألقى بنفسى فى النيل . ولم أنسى أن أكتب خطابا لأبى أعتذر فيه . . وعندما وقفت على كوبرى المنصورة تذكرت أن أمى مريضة وأنها تتقلب فى فراشها رافعة يديها إلى السماء . . وأن أبى هو الآخر يرفع يديه إلى السماء . .

«وعدلت عن الانتحار.. ولا أعرف ما هى القوة الغريبة التى جعلتنى أتذكر هذا كله . . وجعلتنى أعدل عن الموت . . وأسعد أيام حياتى يوم جاء ترتيبى الأول فى (التوجيهية) . . وكان من نصيبى أن أفوز بجائزة من الكتب . . وجائزة مالية . فالكتب

قدمها لى وزير المعارف « نجيب الهلالى » فى ذلك الوقت . والمبلغ كان خمسة وعشرين جنيهاً . وكان مبلغاً كبيراً فى سنة ١٩٤٣ . فقد ذهبت مع أبى واشترينا دفتر توفير. وأودعنا هذا المبلغ . . وذهبت إلى مكتب البريد أسحب جزءاً . وسحبت خمسة جنيهات واشتريت أول كتاب قيم فى حياتى . وكان فى (تاريخ الفلسفة اليونانية) للكاتب الألمانى « تسللر » . . أول كتاب . أول مرجع . أول نواة فى مكتبة أصبحت الآن تضم أكثر من خمسة عشر ألف كتاب بست لغات مختلفة . . وفى تلك الليلة — ليلة اشتريت هذا الكتاب — لم أعرف النوم . فكل شيء جديد . كل شيء غريب . ورق الكتاب ، غلافه السميك . رائحة الورق ، رائحة الحبر ، طعم الورق ، ضخامة الكتاب . اللغات المكتوبة فى الهوامش : الألمانية واليونانية واللاتينية والفرنسية والإيطالية ، وكنت فى ذلك أعرف القليل من الألمانية والفرنسية والإيطالية . .

لم أنم تلك الليلة . ولم يسقط الكتاب من يدى إلا على دقات غريبة على السلم الخشبى ، وكانت غرفتى تقع إلى جوار قصر من قصور الزمالك . فصاحبة القصر سيدة من عائلة يكن . وكان أبى يعمل مفتشاً على أراضيها الواسعة . . وصحوت من استغراقى فى القراءة . واقتربت الأقدام . وانهالت الدقات على الباب بعنف . ولم أجرؤ على أن أتقدم من الباب . وصحا أبى . وذهب يفتح الباب . ومن مجموعة الصرخات العنيفة والكلمات الملتوية لم أتبين إلا كلمة : حاضر . حاضر . .

وكان أبى هو الذى يقولها . .

وأقفل الباب . . وطلب منى أن أنام . . وأطفأ هو المصباح . وغلبنى النوم . ونمت . وسألته فى الصباح . فقال : إنها رأت نور الغرفة .

ولم أفهم . وعاد أبى يقول : إنها بخيلة . ولابد أنك كلفتها ماقيمته عشرين مليماً من الإضاءة !

وكانت تلك أول ليلة أقرأ فيها كتاباً قيما . ومن فلوسى . . واعتدت أن أقرأ بالنهار . ولم أقرأ على ضوء المصباح فى هذه الغرفة ليلة واحدة . واعتدت أن أنام فى ساعة مبكرة مع العصافير والدواجن . . وأصحو مع صياح الديك . . وعلى ضوء النهار أقرأ . .

وعلى ضوء مصابيح شارع الأمير حسين فى الزمالك – وهو نفس الشارع الذى أسكن فيه البيت رقم ٣٨ – كنت أقرأ وأقرأ . .

وقد لاحظت هذه السيدة أننى لم أعد أستخدم المصابيح . . وأن بعض بوابى القصر لاحظوا أيضًا أننى أجلس تحت مصابيح الشوارع واقرأ . فاستدعتنى السيدة وطلبت منى أن أقرأ لها بعض الكتب . وطلبت من أحد الخدم أن يصحبنى إلى مكتبتها . .

وذهبت لأرى مكتبة رائعة . وكانت الكتب كلها بالفرنسية ، وفى القانون والتاريخ العثمانى والثورة الفرنسية . وهناك كتب لعدد كبير من أدباء فرنسا .

وأحسست بالضياع ، فلاأعتقد أن لغتى الفرنسية فى ذلك الوقت تمكننى من القراءة ، ولا أعتقد أننى قادر على قراءة أو حمل شىء من هذه الكتب إلى غرفتى . . ولاقادر على قراءتها فى بيت هذه السيدة .

وأخشى إن أنا رفضت لها طلبًا أن يؤدى ذلك إلى إحراج أبى . . فقررت بينى وبين نفسى أن أنفذ لها أية رغبة ، حتى لو طلبت منى أن أرتب هذه الكتب وأنظفها كل يوم . . فقد كنت أفعل أسوأ من ذلك فى كتاتيب القرى . .

وطلبت منى هذه السيدة أن أقرأ لها بعض هذه الكتب فى الليل – يعنى أذهب إليها فى القصر وأقرأ لها بصوت مرتفع بعض هذه الكتب . . واعتذرت بأن لغتى الفرنسية لاتسعفنى . وأنقذنى من هذه السيدة أننى مرضت ، وكان زكامًا حادًا . واحتملت الزكام ، ولكن أنقذنى نهائيًا منها ، أن أصابنى مرض جلدى . وعرفت فيما بعد أن هذا المرض كان قد أصابها هى أيضًا قبل ذلك . إذن فأثاث القصر القديم . وليس بعيدًا أن تكون عندى حساسية للتراب المتناثر من الصوف أو القطيفة . فالحمد لله الذى أنقذنى من أن أقرأ لسيدة حرمتنى أعظم متعة فى حياتى . . جعلتنى أطفئ النور فى ليلة عرسى : أول ليلة أقضيها مع كتاب عظيم اشتريته بمالى !

ولكن غفرت لها بعد ذلك عندما أهدتنى كتابًا فى عيد ميلادها . وكان هذا الكتاب هو (الأفكار) للمفكر الفرنسى « باسكال » . . وقد هزنى هذا الكتاب . . هزنى من أعماق وهزنى فى سن مبكرة .

وأحسست أن هذه السيدة الجامدة البليدة قد أسدت لى معروفًا لن أنساه . فهذا الكتاب بما فيه من أفكار غريبة وجريئة وجديدة ، قد فتح لى آفاقا عريضة . . فهو ليس كالكتب . . والمؤلف ليس كأى أحد من الناس قرأت له وقرأت عنه .

* * *

« وعندما دخلت الجامعة . . دخلت العالم الواسع العميق . . وأصبح كل شىء قريبًا عند أطراف أصابعى . . كل المفكرين والأدباء والفنانين . . والعظماء والعباقرة . . السموات والأرض . . الجبال وأعماق المحيط . . والخيال والوهم . . إننى أتردد على مكتبة الجامعة . . إننى أعيش . . وأستدرك مافات . . ومافات كثير جدًا . . ولم أعد أشعر بأى نقص ولاأى عجز أمام مئات الألوف من الكتب فى هذه المكتبة . . فأمامها يفقد الإنسان أى أمل فى أن تكون له مكتبة : بل إن فقدان الأمل شىء طبيعى . فلا أمل . . ولايأس أيضًا . . بل لاتفكير فى أمل أو يأس . . فهذه المكتبة . . هى الدنيا . . لو كان الإنسان يستطيع أن يقرأ طول عمره ! لو كان العمر يتسع لكل هذه الكتب ؟ إن الفتحة التى أنظر منها إلى العالم الخارجى — خارجى أنا — قد اتسعت . . كانت فى أول الأمر فى اتساع ثقب المفتاح . . ثم أصبحت فى اتساع النافذة . . ثم أصبحت فى اتساع الأفق نفسه . . وامتلأت دنياى بالأسماء : أسماء المفكرين وأسماء الكتب . . وأسماء النظريات والكلمات العديدة ، وأصبح كل شىء لامعًا باهرًا . . جديدًا . . حيًا . . منعشًا . .

كأننى سمكة انتقلت من بئر إلى بحر . . ومن بحر إلى محيط . .

« وتمنيت كثيرًا أن أترجم الكتب التى أعجبتنى . وحاولت أن أترجم . وترجمت . ومزقت ماترجمته . ترجمت كتابًا فى (علم الجمال) ، وكنت أقرؤه مع المرحوم الدكتور « منصور فهمى » . . فقد كان يدرس لى وحدى . فقد كنت طالب الفلسفة الوحيد فى قسم الامتياز . وكنت قد ترجمت هذا الكتاب ليكون نصًا أدبيًا . وترجمت كتابًا عن الفيلسوف (كنت) . وترجمت كتابًا عن الفلسفة الماركسية . . وظلت هذه الكتب عندى . ومازال ولاأظن أننى سأنشرها فهى محاولات فى الفهم . ولذلك فهى أيضًا

محاولات فى الترجمة : أى نقل فهمى إلى الآخرين . . وحاولت الكتابة . .

وكتبت عدداً من المقالات . ونظمت عدداً من القصائد .

وكتبت عدداً من القصص . وبعض المسرحيات من فصل واحد .

وكلها محاولات جاءت فى فترات الاستراحة من القراءة والدراسة . . وأرى أيضاً أنها لاتستحق النشر . . ولكنها فقط تدلنى على ماالذى كان يدور فى نفسى فى ذلك الوقت . وقد لاحظت أنها تكشف خوفاً شديداً وقلقاً هائلا . وإننى فى هذه المحاولات أشبه واحداً يمشى على صفيح ساخن فوق نار جهنم ، وربما كان الشىء الوحيد الغريب هو أننى كنت أتحدث عن الأمل فى النجاة من الموت من جهنم !

والنجاة لاتزال ممكنة عن طريق الكتاب . . الذى أقرؤه والذى أكتبه . وماأكثر مايمكن أن أقرأه . فأنا أقرأ فى معظم محاولات المعرفة الإنسانية . وأجد الراحة فى أن أتنقل بين الأدب والعلم والرحلات والجغرافيا والتاريخ والنقد والفلك . . إنها رياضة نفسية وعقلية . . وهى راحة ولاشك . فإذا تعبت من الأدب استرحت فى الفلك . وإذا مللت الفلك انطلقت مع الحشرات . .

وأحياناً أقرأ فى أول الليل . وأحياناً اقرأ عند منتصف الليل . . وأحياناً اقرأ قبل أن أكتب . . حتى أكتب . . أو حتى لاأكتب . . وفى كثير من الأيام أقرأ حتى لا أكاد أجد رغبة فى الكتابة . وأحياناً أكتب وأكتب حتى يخيل إلى أننى لن أقرأ بعد ذلك . ولكن بعد ذلك أقرأ وأقرأ .

ولاأقرأ إلا جالساً . . وإلا على مكتبى . . ولاأقرأ نائماً . أو مستريحاً . ولاأعرف — ولم أعرف — كيف يمكن أن أسترخى وفى نفس الوقت أفهم ماأقرأ . لاأعرف . . ولاأدرى كيف أعرف أن أنام وأعود وأمسك كتاباً . حاولت فلم أفلح . ويظهر أننى أقرأ الكتاب وكأننى أكتبه . تماماً كما تترك سيارتك لواحد يقودها بدلا منك . . فأنت لاتستطيع أن تتجاهل حركات يديه ورجليه . . ولا إشارات المرور . . فلاأنت تقود السيارة ولاأنت تجلس إلى جوار قائدها . . وإنما أنتما الاثنان معاً . . وكذلك عندما أقرأ كتاباً ، فأنا أجلس إلى جوار سائق الكتاب . . لاأستطيع أن أنسى أننى سائق مثله . .

ولاأستطيع أن أتجاهل حركة يديه وساقيه . . بل حركات عينيه وأذنيه . . ولاأنسى أن أضع يدى على قلبه . . ولاأن أضع يدى على قلبى . . لاأستطيع إلا أن أكون كاتباً وأنا أقرأ لغيرى من الكتاب ، ولى أصدقاء كثيرون بين المؤلفين . . أعرفهم وأعرف متى أقرأ لهم . وماالذى أتوقعه عندما أقرأ . وماالذى فى استطاعتهم أن يقدموه لى . فهناك الكاتب الذى أحس أنه مثل البنك . أستطيع أن أجد عنده كل أنواع العملات . وأن أغير عنده مامعى من أموال . . وأن أحول الأوراق المالية الكبيرة إلى فكة . . وهناك الكاتب الظريف المسلى . . وهناك الكاتب الذى يعطى الأمل فى الحياة . وهذا الأمل لايجىء إلا عن طريق الفن . .

«وهناك الكاتب الذى يستطيع أن يعلو فوق الدنيا ويراها من أعلى.. ويحملنى معه . . لأرى مالاعين رأت . . وأعود إلى الأرض أكثر يأساً من الإنسان . . ومن الحياة . .

وأصبح من السهل أن أعرف ماالذى أجده وماالذى أتوقعه . . وأحياناً أستريح إلى هذا الذى أتوقعه . . لأننى أريده . . أريد أن أسمع مااعتدت أن أسمع . وأن أفكر فيما اعتدت أفكر . .

وعندما أريد أن أوقظ خيالى . . وأنبه حواسى . . وأضع قلمى إلى جوارى ، أقلب فى كتب الشبان الجدد فى أوربا وأمريكا . أرى معهم الدنيا . وقد تغيرت معالمها وتبدلت ملامحها . وأصبح للحياة طعم اليأس وأصبح لليأس طعم البارود . .

ولكن ليس فى الدنيا أمتع من كتاب . .

«إن ساعات كثيرة يقضيها الإنسان فى القراءة هى ساعات من السعادة. حتى لو كان الكتاب يتحدث عن التعاسة الإنسانية : فإن لمشاهدة عملية الخلق وعملية الإبداع الفكرى عند مؤلف الكتاب ، تجعلنى أنسى التعاسة ، وأنشغل طول الوقت بلمس نبضات المؤلف . فليست سطور الكتاب إلا عروقاً من الدم .

إن ساعات القراءة لاأول لها ولاآخر . . إنها ساعات لاعلاقة لها بالزمن . . خارج الزمن . .

«نحن نقرأ ونقرأ وننظر إلى ساعات فلانجد لها أرقامًا.. ولانسمع إلا دقات.. فلازمن فلاالساعات تحركت . . ولاقدمت ولاأخرت . . إنها تدق . . إنها تنبض . . إنها تصفق . . إنها لحظات لاتحبها العقارب .

« لقد تحديت نفسى أكثر من مرة . لقد حاولت أن أضع الساعة أمامى وأسجل الزمن على ورقة ..

ثم أشرع فى قراءة أى كتاب . . وبعد وقت قصير أو طويل . . أرفع عينى عن الكتاب . ثم أحصى الزمن . وفى جميع المرات لاأعرف . لأن الكتاب يستغرقنى تمامًا . . يجعلنى لاأشعر بالزمن . . ويجعلنى أنسى متى بدأت . . وأنسى متى توقفت عن القراءة . . ولاكم من الزمن راح منى . . أو ضاع منى . . أو أضعته فى القراءة . . أو على الأصح كسبته من القراءة . . وفى القراءة – وفى جميع المرات لاأعرف . . ولم أستطع أن أعرف–فساعات القراءة..هى ساعات نسيان الساعة..ولحظات نسيان الزمن . . وساعات تدق وتدق فقط . . فعقاربها أغرقها استغراقنا فى الكتاب الذى نقرأه . . وكل كتاب هو سفينة مشحونة بالبضائع فى محيط الفكر . . أو كل كتاب هو بوصلة ترشدنا فى غياهب العقل الإنسانى . .

« وانتقلت من القراءة إلى الكتابة . . إلى القراءة . . وأصبحت أعيش ماأقرأ . . وأعيش ماأكتب . . وفى مهب عواصف الزمن أقمت لنفسى كوخًا من الورق المطبوع » !

وتبقى تلك الصورة المفزعة الغامضة المجهولة فى عقل « أنيس » ووجدانه حتى بعد أن أصبح أحد كبار مفكرينا . . ويفصح لنا عن سر عقدته وخوفه من تلك الصورة الغامضة الحزينة التى كانت تحدث فى الليل فى تلك الحقبة المبكرة من حياته ، فيقول :

« ولاأعرف شيئًا . . وكل مايتبقى فى نفسى هو الفزع والنوم والليل ، وطلقات نارية ، وبكاء ونوافذ مغلقة ! »

* * *

لقد روى لنا « أنيس منصور » بأسلوبه الجميل الرائع عشرات التجارب الحياتية

والوجدانية والفكرية التى عاناها ومر بها .

روى لنا تجربته مع الفلسفة الوجودية ، وتجربته مع القرآن الكريم ، وتجربته فى الحج « طلع البدر علينا » ، وتجربته مع الفقر والحرمان والخوف والفزع ، وتجربته مع المرأة والحب ، وعشرات التجارب الثرية الخصبة التى تفصح عن صراحة أديبنا ووضوحه ، مما جعل أدبه يتسم بسمة أساسية تكتب له البقاء والذيوع وهى « الصدق الفنى » .

هذه هى العظمة . . وتلك هى غاية الأدب الحقيق فى كل العصور والأزمان .

إننا إذا كنا قرأنا ألوانًا من أدب التراجم الذاتية فى أدبنا العربى المعاصر لبعض أعلام فكرنا المعاصر مثل الأيام لطه حسين ، « وأنا » و « حياة قلم » للعقاد ، و « سجن العمر » لتوفيق الحكيم ، و « حياتى » لأحمد أمين ، و « هموم الشباب » لعبد الرحمن بدوى ، و « الاعترافات » لعبد الرحمن شكرى ، و « سبعون » لميخائيل نعيمة ، و « مذكراتى » لعبد الرحمن الرافعى ، فضلا عن الكتابات المتفرقة للدكتور زكى مبارك ، وأحمد حسن الزيات ، والمازنى ، والدكتور محمد حسين هيكل ، التى سجلوا فيها ذكريات المرارة والفقر ، ورأيهم فى الحياة والناس كما ضمت أبرز أحداث حياتهم ، ورسم صورة البيئة الأولى ، وتحولاتهم الثقافية والاجتماعية والفكرية من اتجاه إلى اتجاه ، ومن وضع إلى وضع .

وإذا كان لكل كاتب من هؤلاء فى اعترافاته ومذكراته طابعه الخاص به ، كطه حسين ، الذى سجل ذكرياته بأسلوبه الاستعراضى ، وأحمد أمين ، بأسلوبه العلمى المتأدب ، فإن « أنيس منصور » سجل ترجمته الذاتية بأسلوب تحليلى إنسانى مؤثر !

وبعد ، فقد صور « أنيس منصور » لنا تجاربه وآراؤه وأفكاره وفلسفته فى الحياة والحب ، بأسلوب غاية فى الصدق والصراحة والوضوح ، وقد تجلى لنا ذلك مؤخرًا فى الحلقات التى نشرها فى مجلة أكتوبر التى يرأس تحريرها بعنوان « فى صالون العقاد : كانت لنا أيام » ، وهى سيرته الذاتيه فى ضوء معرفته وذكرياته عن العقاد[1] .

---

(١) راجع مجلة أكتوبر / عام ١٩٨١ .

أنيس منصور فى الميزان

ولكن ماهى نظرة « أنيس منصور » لنفسه ؟ وتقويمه لها من خلال رحلته فى دروب نفسه ؟ يحدد لنا « أنيس » رؤيته لنفسه ، فيقول[١] :

«لاتوجد عندى وسيلة للمعرفة سوى نفسى ... وسيلتى إلى معرفة العلاقات الإنسانية هو أنا ، فأنا المرصد والأجهزة التى أطل بها على العالم الخارجى ، ومن حين لآخر يجب أن يتأكد الإنسان من دقة هذه الأجهزة فينظر بها بالداخل . بدلا من النظر بها من الخارج .

وعندما سئل « أنيس » عن آماله وأمنياته التى تحققت والتى لم تتحقق قال[٢] :

كان من أمنياتى أن أسافر إلى بلاد كثيرة ، ولذلك كنت أحلم بالاشتغال بالأمم المتحدة نظرًا لتمكنى من عدة لغات ، وربما كان حرصى على السفر هو حبى للمعرفة ، وربما سببه أننى نشأت نشأة ريفية حقيقية ، وإذا كنت قد طفت بأرجاء كثيرة من العالم ، فإن منتهى أملى أن أسافر من جديد إلى كل البلاد التى لم أرها ، أو التى رأيتها بسرعة وفى نيتى أن أصدر سلسلة كتب عن رحلاتى فى أوربا وآسيا وأفريقيا ، ولكن أملى الذى لم أحققه حتى الآن هو أن وقتى لم يتسع ولم تهدأ نفسى لكى أصدر دراسات عميقة سهلة فى كثير من المذاهب الفلسفية والسياسية والأدبية ، وأعتقد أننى فى حالة استعداد نفسى وعقلى لمثل هذه الدراسات المتكاملة ، وليست هذه الكتب التى أصدرتها إلا وقفات على طريق طويل نحو الهدف الذى أسعى إليه .

* * *

---

(١) مجلة المنصورة / ١٩٧٤/٨/١ مقال لمحمد محمود رضوان .

(٢) نفس المصدر .

بعد أن أصدر « أنيس منصور » عشرات الكتب فى مجالات الرحلات والفلسفة والتاريخ والأدب ، ماذا يمكن أن نقول عنه فى تقييمنا لمكانته ودوره فى سجل الأدب العربى المعاصر ، وماذا أضافه لفكرنا العربى ، وبمعنى أدق ماذا يبقى منه للتاريخ ، حاول « أنيس » أن يعطينا رؤيته لمكانته ، ولدوره الذى قدمه فى مجال الأدب والفكر ، فقال :

«إن هناك عدداً من كتبى يعاد طبعها عاماً بعد عام . . ومن هذا أن هذه الكتب تفيد الناس الذين سيعيشون من بعدى . هم وحدهم الذى يختارون ماينفعهم . .

«والذى ينفعهم هو الذى يحرصون عليه ؛ لأنهم حريصون على حياتهم وعلى استمرارهم وهذه الكتب لها حياة مستقلة عندى ، وهى باقية بعد أن فرغت منها .

« فمثلا كتابى حول العالم فى ٢٠٠ يوم » ، قد شجع ألوف الشبان على السفر وعلى الهجرة فى فترة ضياعهم ، كان هو السلوى والمتعة ، وقد كان هذا الكتاب رائداً فى أدب الرحلات ، فقد كتب كثيرون بعد ذلك كتباً عن رحلاتهم ، ولكن بقاء هذا الكتاب بعد ذلك ليس بيدى ، إنه فى أيدى أناس لا أعرفهم ، أناس فى المستقبل !

«إن رحلات ابن بطوطة ، وابن جبير ، وماركو بولو » ، متعة لمن يقرؤها ، وبرغم أن السفر أصبح أسهل ، وأن حقائق كثيرة قد عرفها الإنسان ولم يكن يعرفها هؤلاء المغامرون ، ولكن الجانب الإنسانى هو الذى جعل لهذه الكتب القديمة قيمة متجددة . وأعتقد أن الفن أطول عمراً من الفنان ، ولذلك عاشت هذه الكتب بعد وفاة أصحابها بمئات السنين .

«وقد صدرت لى كتب كثيرة من تأليفى ومن ترجمتى ، وفيها نفسى وتعبى وراحتى وآمالى وآلامى أيضاً .

إن هذه التأملات الفلسفية والنفسية والأدبية هى صورة من نفسى ومن حياتى وقد نقلتها من أعماقى إلى الورق . وتغيرت نفسى وتبدلت وبقيت هذه الكتب تأريخاً لى ، أو إسهاماً فى التاريخ العام فى الفكر والفن والأدب المصرى العربى » .

* * *

وبعد ، فقد سبحنا مع السندباد الطائر فى أجوائه الساحرة الممتعة . . وتجولنا معه فى عوالمه الفكرية المتميزة الناضرة ، فتجولنا معه فى (بلاد الله خلق الله) ، وتعرفنا على ملامح نفسيته ودقائق حياته الوجدانية والفكرية . . وعلى أبعاد فلسفته فى الحب والزواج والسعادة والملل !

وضحكنا معه فى سخريته المرة من المرأة : ذلك المجهول أو صخرة البطل سيزيف كما يسميها !

ثم تتبعنا رحلته الطويلة المضنية من الوجودية حتى وصوله إلى شاطئ الأمن والأمان والإيمان : إلى اليقين بعد أن طلع البدر عليه !

وتطول الرحلة وتمتد ، ولكن الوقت يمضى سريعاً ونعود إلى محطتنا الأرضية بعد هذا التطواف الممتع المثير فى تلك العوالم الساحرة للأديب الساخر الفيلسوف « السندباد الطائر » فى عالم الجمال والمجهول والحقيقة والخيال : « أنيس منصور » !

فهرس

كتب للمؤلف

	الناشر
١ – صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك (١٩٧٤)	دار الهلال
٢ – شعراء الرومانسية (١٩٧٥)	وزارة الثقافة
٣ – مأساة شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (١٩٧٦)	دار الهلال
٤ – شاعر النيل والنخيل ، صالح جودت (١٩٧٧)	وزارة الثقافة

تحت الطبع :

١ – شاعر الأطلال ، ناجي .

٢ – شاعر الجندول ، علي محمود طه .

٣ – شاعر الكرنك ، أحمد فتحي .

٤ – شعراء الحب .

٥ – من أبطال الإسلام .

٦ – شاطئ الحب « رواية » .

٧ – الفارس الشهيد ، يوسف السباعي

رقم الإيداع	١٩٨٣/٢٥٧٦
الترقيم الدولى ٦-٩١٤-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨١/٣٥١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

يعد أنيس منصور من أبرز أدبائنا الموسوعيين الذين استوعبوا الثقافة العالمية بمختلف اتجاهاتها وتياراتها ، وفى مختلف عصورها ، إلى جانب استيعابه للثقافة العربية قديما وحديثا .

وفى هذا الكتاب يطوف الكاتب بعالم السندباد الطائر - أنيس منصور - وهو عالم خصب ثرى بألوان العطاء والإبداع المتميزة ، وقد اعتمد الكاتب على ماعكسه أنيس منصور فى كتاباته من أفكار ومشاعر وأحاسيس وتجارب تراوحت بين الفلسفة والخيال والواقع ورحلاته المثيرة فى بلاد الله .. خلق الله ..

تصميم الغلاف : منال بدران